فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

421

أيار 2021

مقالات
كاظم حبيب
حسن عبد الله بدر
أحمد محمد الموسوي
محمد عامر حسن
سواد لعيبي
مصباح كمال

نصوص قديمة
عبد الحميد بخش

نصوص مترجمة
نانسي فريزر

حوارات
حوار مع فالح عبد الجبار

أدب وفن
ياسين النصير
ناجح المعموري
جواد الزيدي
محمد الكحط
رهبة أسودي حسين
علي ابراهيم
فاضل السوداني
نادية هناوي
خالد السلطاني
ماضي حسن
ايمان الكبيسي
مثري العاني
كاظم الجماسي
لطيف هلمت
رياض الغريب
جبار الكواز
عادل مردان
حميد حسن جعفر

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 421
أيار: 2021

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
hassab1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- العلاقة الجدلية بين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية في المجتمع العراقي ..... كاظم حبيب
18- الإنفاق الحكومي الاستثماري والفنات الميسورة ..... حسن عبد الله بدر
29- الإعلام باعتباره ميداناً للصراع الطبقي - شبكات التواصل الاجتماعي انموذجاً..أحمد محمد الموسوي
36- الحزب الشيوعي العراقي ومعايير الحكم الصالح ..... محمد عامر حسن
50- العدالة الاجتماعية على مر التاريخ ..... سواد لعيبي
59- وليم ستانلي جيفونز وحضور التأمين في كتبه ..... مصباح كمال

نصوص قديمة

73- من تاريخ الحركة النقابية العمالية العراقية ..... عبد الحميد بخش

نصوص مترجمة

86- ماذا تعني الاشتراكية في القرن الحادي والعشرين؟..بقلم: نانسي فريزر ..... ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

102- حوار مع المفكر والعالم السوسيولوجي د. فالح عبد الجبار ..... حاوره: طالب عبد الامير

أدب وفـــــن

113- البعد السياسي والاجتماعي للحداثة وما بعد الحداثة ..... ياسين النصير

123- أوروك بدئية السرد ..... ناجح المعموري

127- د.بلاسم محمد ... وداعا !

128- بلاسم محمد .. ومشاغل الخطاب الجمالي ..... جواد الزيدي

131- الصكار: كنز عراقي فقدناه في الغربة ..... محمد الكَحط

138- مذكرة الملك فيصل الاول ... جدل مستمر..... رهبة أسودي حسين

141- ريادة النقد الثقافي في العراق ..... علي ابراهيم

147- تاريخ الخوف ..... فاضل السوداني

156- الأجناس الأدبية ومؤهلات العبور ..... نادية هناوي

160- عيون لو كوربوزيه العمرانية ..... خالد السلطاني

164- الفن بين الاحساس والشكل والمهارة ..... ماضي حسن

167- مسرحية صندوق ..... ايمان الكبيسي

171- المرأة في المسرح العالمي ..... مثري العاني

179- قصة قصيرة، دموع الفرس ..... كاظم الجماسي

184- شعر: لوحات مفخخة بقصائد لامرئية ..... لطيف هلمت

186- دموع حلبجه ..... رياض الغريب

189- بائع التمر ..... جبار الكواز

191- مشهدٌ في الظلام ..... عادل مردان

192- الماضي /الهومسك وقوة التشويش الى الانصات ..... حميد حسن جعفر

لوحتا غلافي العدد للفنان علي جبار

التغيير الشامل.. ضرورة ملحة

قبل شهر من صدور هذا العدد، حلت الذكرى الـ 18 لاحتلال العراق، وإسقاط النظام الدكتاتوري. وعلى الرغم من مرور هذه السنوات الطوال، فإن واقعة التاسع من نيسان 2003، ما زالت تثقل كاهل العراقيين بالذكريات المؤلمة. فلقد جاءت كارثة الاحتلال بعد معاناة استمرت اكثر من عقدين، من ويلات الحروب العبثية، وسنين الحصار، هذا طبعا اضافة الى الممارسات القمعية للنظام المقبور وسياساته.

ومنذ تلك اللحظة، يستيقظ العراقيون كل يوم تقريبا على اخبار الموت والعنف والدمار. فقبل أن تضع حرب «التحرير» بالاحتلال أوزارها، بدأت دوامة الفوضى، ليتلوها الصراع والاقتتال الطائفي الدموي والصراعات السياسية المقنعة بالخطابات الطائفية أو الإثنية. وما كاد العراقيون يطوون صفحة العنف الطائفي ونذر الحرب الاهلية، حتى فتحت بوجههم صفحة الارهاب الداعشي السوداء. وقد ترافقت تلك المآسي، باتساع متزايد في نشاط العصابات والجماعات المسلحة الخارجة على القانون، ثم تغول المليشيات. وبالتأكيد لن تكتمل الصورة دون اضافة منظومة الفساد التي تنخر مؤسسات الدولة، لتصبح بنية تحتية ممتدة وراسخة، والقاعدة الاساسية لوجود الدولة العميقة.

الازمة البنيوية تتفاقم والفرز الطبقي يتعمق

إنّ الحصاد المُر لأحداث السنوات التي انصرمت منذ 2003، ما هو إلا مؤشر على تفاقم ازمة البلاد البنيوية، والتي تتخذ يوما بعد اخر أبعادا ومديات اعمق وتجليات اكثر تنوعا. كما باتت تنذر بما لا تحمد عقباه. هذه الازمة وان كانت ترتبط بتركة ومخلفات النظام المباد الثقيلة، وبغيرها من العوامل والظروف؛ لكنها لا يمكن تجريدها عن الآلية التي تم بها اسقاط النظام المقبور، والتي تمت عبر خيار الحرب والاحتلال. فهي المآل الملموس لخيارات دولة الاحتلال، ومعها بعض القوى والاحزاب السياسية. وهي خيارات بلورت مفرداتها الاساسية في فترة المعارضة. وعلى الاخص، حين تم ابتكار «نظام سياسي» خاص ليتلاءم مع الحالة العراقية بعد 2003. نظام يستند منهجه على المحاصصة الطائفية والاثنية في بناء وإدارة مؤسسات الدولة، وتغليب الهويات الفرعية، على الهوية العراقية الجامعة، التي كان من المفترض بها ان تقوم على اساس المواطنة. واذا كان الاحتلال هو من عمل على تأسيس نهج المحاصصة، فإن القوى السياسية المتنفذة هي التي قادت العملية السياسية بعد ذلك، وهي من عملت على ترسيخه وإدامته. وذلك عبر تكريس مفاهيمها عن «المكونات» وعن «دولة المكونات». وهي مفاهيم اتاحت لها ان تختزل «المكون» بنفسها، بشخوصها وكتلها السياسية. وذلك من خلال ادعائها انها الممثل الحصري والوحيد احيانا، او «الحقيقي» في احيان اخرى. وقد وفّرت عمليات الاختزال هذه الغطاء المناسب لتقاسم السلطة والنفوذ والمناصب.

ومن جهة اخرى، مثلت التفاوتات الاجتماعية المتنامية، والفرز الطبقي والاجتماعي المتعمق باستمرار، وما رافقه ويرافقه من تفاقم في مستويات الفقر والتهميش الحصيلة الابرز للفترة التي

انصرمت، منذ الاحتلال. فمحصلة السنوات الـ 18 الماضية، يمكن ايجازها بتراكم الثروات والنفوذ والامتيازات عند «النخب» الماسكة بتلابيب السلطة، التي تدعي تمثيل المكونات، ومعها كل الفئات والشرائح الاجتماعية التي ترتبط بها، وتشكل قاعدتها الاجتماعية المستحدثة.

وكان ذلك كله هو النتيجة الحتمية للسياسات الاقتصادية التي انتهجت بعد 2003 والتي ارتكزت على الرهان على انتاج النفط الخام وتعظيم ايراداته، وكذلك على اعتماد سياسات «السوق المفتوحة» والطروحات اللبرالية المنفلتة؛ حيث استمرت بنية الدولة والمجتمع تستند على قاعدة اقتصاد ريعي، يتعمق طابعه التوزيعي والاستهلاكي باضطراد، في مقابل تآكل مستمر للقطاعات الانتاجية، وتدهور متسارع في البنى التحتية. فاذا كانت الثروات ما برحت تتضخم وتتكدس عند شرائح وفئات اجتماعية محدودة، تتعاظم مداخيلها كلما تعاظمت سماتها البيروقراطية والطفيلية والكومبرادورية، فإنه بالمقابل نلحظ تدهورا في المستوى المعيشي، وارتفاعا في معدلات البطالة، وتراكما في حالات التهميش، وكذلك تناميا في مظاهر البؤس والفقر والحرمان بشكل مريع بين العديد من طبقات وفئات الشعب، خصوصا ذوي الدخل المحدود، من العمال والفلاحين والكادحين عموما.

إنّ الازمة البنيوية في العراق، ستبقى في حقيقتها ازمة العملية السياسية ذاتها. تلك العملية التي تم تدشينها بعد 2003. فبدلا من ان تمثل الاخيرة نسقا منضبطا، وفق سياسات وآليات منهجية، من اجل الانتقال من نظام دكتاتوري تسلطي نحو نظام دستوري وديمقراطي، تنهض اسسه على مبدأ المواطنة والهوية الوطنية الجامعة؛ تم مسخها الى مجرد عملية ايجاد افضل الصياغات لتحقيق «التوازن» في توزيع المناصب والوظائف العامة بين «المكونات». ولتتمحور في مطافها الاخير، الى مجرد تنافس مرعب وعنيف على السلطة والثروة والقرار.

الحراك الاجتماعي.. الشمعة المضيئة للتغيير

ان السياسات التي اتبعتها وتتبعها القوى المتنفذة القابضة على السلطة والثروة والنفوذ، ادت الى انطلاق اشكال متنوعة ومتباينة من الحراك الاجتماعي والمطلبي منذ شباط 2011، وصولا الى تفجر الوضع بانتفاضة تشرين 2019 المجيدة. فالتراكمات الاحتجاجية، والتي استمرت لسنوات طويلة، ساهمت في تنامي الوعي السياسي والنضالي عند الجماهير، معززة فيها روح المطالبة بالحقوق ورفض الظلم والفساد. فالعراقيون يجمعون على ان التغيير، صار شعارهم الابرز. فهو لم يعد مطروحا كإمكانية على طاولة النقاش، بل اصبح المهمة الاولى المدرجة في جدول الاعمال. ذلك أن حكم البلد وتصريف شؤونه بالسياقات والآليات القديمة، قد أمسى شيئا من الماضي. هذا الاجماع برهنت عليه جماهير ابناء شعبنا بنضالاتها وحراكها الاحتجاجي، المستمر منذ عدة سنين، والذي توّج بانتفاضة تشرين 2019 المجيدة وما تلاها من احتجاجات.

ونتيجة لكل ما سبق، يندر من لا يتفق على ان التغيير بات ضرورة ملحة، وذلك لأن الزمن قد عفا على تلك الشعارات والاساليب المعتمدة في ادارة وتوجيه الصراع السياسي والاجتماعي. لكن التغيير يبقى مخاضا صعبا، وشعارا يجسد عملية طويلة، مساراتها مليئة بالتناقضات والمنعرجات، والاماني والممكنات. ومع كل ذلك، فان الاكيد المستخلص من احداث وتطورات السنوات الماضية، انها اثبتت ان التغيير كي يكتسب كل ابعاده ومضامينه الحقيقية، يجب عليه ان يكون شاملا. وشموليته تشترط اقصاء كل منظومة المحاصصة بتجلياتها المختلفة: الطائفية والاثنية والمناطقية والحزبية.

وأخيرا، والعدد 421 على وشك الصدور، يحل في الاول من أيّار عيد العمال العالمي، ننتهز هذه الفرصة، لنتوجه الى الطبقة العاملة العراقية وكل الشغيلة والكادحين بخالص التحايا، متمنين لهم النصر المؤزر في معركتهم النبيلة، من اجل التغيير وإقامة البديل المدني الديمقراطي والحياة الكريمة، ومن اجل الديمقراطية والسلام والعدالة الاجتماعية والاشتراكية.

المجد كل المجد للطبقة العاملة في عيدها الاممي!

مقـــــالات

العلاقة الجدلية بين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية في المجتمع العراقي *

د. كاظم حبيب

إنّ دراسة البنية الطبقية للمجتمع العراقي، تستوجب ابتداءً البحث المعمق والشامل في طبيعة العلاقات الإنتاجية السائدة في الاقتصاد والمجتمع، أو نمط الإنتاج السائد، ومن ثم التعرف التفصيلي إلى بنية الاقتصاد العراقي؛ إذ أن طبيعة العلاقات الإنتاجية ومن ثم بنية الاقتصاد الوطني هما المحكان اللذان تنشأ منهما وعنهما البنية الطبقية للمجتمع. كما يمكن، وبحدود معقولة، تشخيص مستوى الوعي الاجتماعي والسياسي الفردي والجمعي في المجتمع. كما تلعب طبيعة الدولة بسلطاتها الثلاث ونهجها الفكري وسياساتها ومجمل بنية وعمل ونشاط البناء الفوقي دوراً محوراً في التأثير المباشر على واقع البنيتين الاقتصادية والاجتماعية، وعلى مستوى وبنية الوعي الاجتماعي الفردي والجمعي والحياة الثقافية لمختلف طبقات وفئات المجتمع.

فدراسة الواقع العراقي تشير الى أن ذهنية وفكر وممارسات بقايا العلاقات الإنتاجية البالية ما قبل الرأسمالية والتنظيم العشائري والمؤسسات والحوزات الدينية، ما زالت تمارس دوراً ملموساً في الريف. كما هي فاعلة ومؤثرة بقوة على أحوال وفكر وسلوك وممارسات نسبة عالية من سكان المدينة أيضاً من جهة، مع وجود ودور علاقات إنتاجية رأسمالية طفيلية، تهيمن على الحياة الاقتصادية وموارد البلاد المالية، لا سيما في قطاعات المال والتجارة والمقاولة والمضاربات العقارية وبعض الخدمات الأساسية، من جهة ثانية. إنّ هذه العلاقات البالية والمشوهة والطفيلية تمارس دورها في إعاقة نمو العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في القطاعات الإنتاجية وتوجيه الاستثمارات الحكومية والخاصة صوب القطاعات الاقتصادية الإنتاجية وعرقلة تنفيذ ما خصص لهذه القطاعات، خاصة في قطاعات الصناعة والزراعة والبنى التحتية لهذين القطاعين والقطاع السلعي الصغير. فهذه القطاعات الإنتاجية والخدمية ذات الأهمية الفائقة للنمو والتطور الاقتصادي والاجتماعي، ما تزال ضعيفة جداً ومتعثرة ومعرقلة للتنمية الإنتاجية والتنمية البشرية، وتشغيل الأعداد المتزايدة من العاطلين عن العمل، وضعف النمو الاقتصادي وقصور

واختلال في تقديم الخدمات الأساسية للمجتمع، وتحسين معدلات نمو الدخل القومي وأسس توزيعه واستخدامه بصورة عقلانية. فالقطاع الصناعي على سبيل المثال لا الحصر يعاني من الاختلالات التالية:

* اختلال كبير بين حصة الاستثمارات الموجهة للتنمية الصناعية والانفاق الاستهلاكي، وسوء توزع الانفاق الاستهلاكي.

* اختلال في بنية القطاع الصناعي بين الصناعات المختلفة بالارتباط مع الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة في البلاد لاسيما النفط والغاز وموارد معدنية أخرى من جهة، والمحاصيل والمنتجات الزراعية والحيوانية من جهة ثانية.

* اعتماد النسبة العظمى من المنتجات الصناعية المحلية على تصنيع السلع نصف المصنعة المستوردة من الخارج.

* اختلال في المستوى التقني والحداثة في المشاريع الصناعية العراقية، والتي اقترنت بالحروب الماضية والحصار وتلف أو تعطل كثير من المشاريع الصناعية.

* اختلال كبير في توزيع المشاريع الصناعية جغرافياً، أو على المحافظات العراقية المختلفة، وبالتالي فالتباين في مستوى تطور أغلب مدن المحافظات الجنوبية والغربية وبعض محافظات الوسط وكردستان كانت ومازالت تعاني نقصا في المشاريع الصناعية، في حين تركزت أغلب المشاريع الصناعية في بغداد والبصرة والموصل في فترات معينة، لاسيما في السبعينيات من القرن الماضي حيث حظيت البصرة ببعض المشاريع المهمة في الصناعات البتروكيمياوية. أما الآن فكلها تعاني التخلف وتوقف مجموعة كبيرة من تلك المشاريع الحكومية. ويجد ضعف مستوى القوى المنتجة تعبيره في ضعف التوجه صوب التعليم الفني والمهني والتدريب والتأهيل وإعادة التأهيل للعاملين لصالح توفير الكوادر الفنية والمهنية الوسطية الضرورية للتنمية الصناعية.

إن كل ذلك وغيره، لاسيما النظرة الدونية للحكام الحاليين إزاء عملية التنمية والتثمير الإنتاجي، لاسيما في القطاع الصناعي، أثر بشكل مباشر على القدرة التشغيلية في البلاد ونشوء المزيد من البطالة وضعف الدخل المتحقق للعائلات ونقص في السيولة النقدية وانتشار الفقر والعوز في آن واحد. لقد كان وما زال في الإمكان إقامة مشاريع صناعية زراعية ضرورية وصناعات دقيقة وحديثة لتغيير بنية الدخل القومي والتخلص من السمة الريعية النفطية للاقتصاد العراقي.

كل المعطيات المتوفرة تشير إلى أن القطاع الوحيد الذي حظي برعاية القوى الحاكمة الفاسدة هو قطاع النفط الخام لما يدّره من ريع لها، ولخزينة الدولة، وما يوفره من إمكانيات لهيمنة الدولة على المجتمع ومصادرة الحريات، ونشر الفساد المالي وتهريب النفط الخام بطرق شتى. وإلى حد ما يلعب الإنتاج السلعي الصغير دوره الملموس في العملية الاقتصادية المرتبط مباشرة بمجالات المقاولة والبناء. في حين تزدهر تجارة الاستيراد التي لم تغرق الأسواق المحلية بكل أنواع السلع السيئة والمتوسطة النوعية فحسب، بل وساهمت في تعطيل التوجه صوب توظيف رؤوس الأموال في التنمية الصناعية وتحديث وتنمية الزراعة من جانب الدولة والقطاع الخاص.

وتؤكد كثير من الدلائل على أن هذه السياسة مقصودة من جانب كل من إيران وتركيا، التي وجدت التأييد من النخب الحاكمة الفاسدة في العراق. فالمعطيات المتوفرة تشير إلى أن مساهمة قطاع الزراعة في توليد الناتج المحلي الإجمالي في عام 2020 بلغت 2.02%، في حين بلغت مشاركة القطاع الصناعي التحويلي 0.84% فقط، وهما يعبران عن البؤس الحقيقي لهذين القطاعين الأساسيين في البنية الاقتصادية العراقية [1]. في حين كانت مساهمة القطاعين الزراعي 4.7% والصناعي 4.5% في إجمالي الناتج المحلي لعام 1980، وهي السنة التي بدأت بها الحرب العراقية – الإيرانية، ثم بلغتا في عام 1985، 14% و9.2% [2].

وهذا التراجع في عام 2020 يعتبر نتيجة منطقية لطبيعة السياسات التي مارستها النخب الحاكمة طوال السنوات المنصرمة وابتعادها الشديد عن توجيه توظيفات رأسمالية صوب هذين القطاعين الإنتاجيين، وغياب العناية بالمشاريع القائمة. فعلي سبيل المثال لا الحصر تشير معطيات القطاع الصناعي إلى الواقع التالي [3]:

عدد المنشآت الصناعة الصغيرة العاملة 27856 منشأة

عدد العاملين في المنشآت الصناعية الصغيرة 114762 عاملا

أما في المنشآت الصناعية الكبيرة فكانت على النحو التالي:

عدد المنشآت الصناعية الكبيرة العاملة 600 منشأة

عدد المنشآت الصناعية الكبيرة المتوقفة 561 منشأة

عدد العاملين في المنشآت الصناعية الكبيرة 114762 عاملا

هذا الواقع يجسد طبيعة الدولة عموماً والسلطتين التنفيذية والتشريعية خصوصاً، فهما سلطتان تعبران عن مصالح الفئات الطفيلية وغير الإنتاجية في المجتمع، فئات رثة وفاسدة من حيث الفكر والممارسة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والبيئية في آن واحد، وهي فئات مناهضة للتنمية والتقدم الاقتصادي والبشري.

فمع أن السمة الريعية المميزة للاقتصاد العراقي ليست جديدة وميّزت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية واحتلت مكانة القطاع الزراعي ودوره الريعي، بما اقترن بها من خصائص أساسية من حيث بروز مظاهر العداء للديمقراطية ثم الاستبداد والقهر الاجتماعي ومصادرة الحياة الدستورية وحقوق الإنسان وممارسة القمع عبر العديد من أجهزة الأمن والمخابرات وتنوع أساليبها في الإرهاب والتعذيب، إضافة إلى هيمنة شديدة للحكومة والتحكم ببقية سلطات الدولة ومؤسساتها وهيأتها المستقلة دستورياً وموظفيها، دع عنك الهيمنة السياسية الشرسة على المجتمع والحياة الاقتصادية والثقافية، فإن تفاقماً ملموساً شهدته العقود الأربعة المنصرمة لدور الريع وعواقبه السلبية من جهة، وتدهوراً دراماتيكياً للبنية الاقتصادية غير النفطية، أي لقطاعي الصناعة والزراعة، وعواقبهما السلبية الأكثر دراماتيكية على البنية الطبقية للمجتمع العراقي ووعيه الاجتماعي الفردي والجمعي. فإلقاء نظرة على إجمالي إيرادات العراق وتوزيعها بين إيرادات القطاع النفطي والقطاعات الأخرى، سيجد القراء والقارئات اللوحة

المشوهة التالية لعام 2020[4]:
إجمالي الإيرادات النفطية
17.23.074.613.067 دينار عراقي، أي 95%.
إجمالي الإيرادات غير النفطية
935.028.991.961 دينار عراقي أي 5%،
إجمالي الإيرادات العراقية
18.168.103.605.028 دينار عراقي 100 %.

وما زاد في الطين بلّةً في العقدين الأخيرين حتى الآن هو النهج الطائفي والفساد السائد، كنظام فاعل، والأزمات السياسية والاقتصادية المتعددة والمتفاقمة والمتشابكة، بما ساهم في رفع حالة انكشاف الاقتصاد والمجتمع على الخارج وتبعيته المجحفة والشديدة لإيران على نحو خاص. فالمعطيات المتوفرة تشير إلى ارتفاع كبير في حجم الاستيرادات العراقية السنوية التي تستنزف جزءاً مهماً من إيرادات الدولة السنوية، لاسيما الاستيرادات والمصروفات العسكرية، ونسبة مهمة من استيرادات العراق من ثلاثة مناشئ هي الصين وإيران وتركيا. وتلعب الدولتان الأخيرتان دوراً كبيراً ومباشراً في عرقلة عمليتي التنمية والتثمير الإنتاجي في الاقتصاد العراقي. فقد بلغ حجم الاستيراد العراقي خلال السنتين 2018 و2019 على النحو التالي: 37 مليار دولار أمريكي و21 مليار دولار أمريكي على التوالي. وهذا التراجع في عام 2019 ارتبط بانخفاض إيرادات العرق من النفط الخام المصدر والذي سيلاحظ في عام 2020 أيضاً ولنفس السبب. وهيمن الانفاق العسكري والأمن على نسبة عالية من ميزانية الدولة العراقية حيث بلغت عام 2020 بحدود 22.6% وهي نسبة عالية جداً، في مقابل 9.3% للتربية والتعليم و3.8 للصحة.

إن المشكلة لا تكمن في حجم الاستيراد الخارجي للعراق فحسب، بل وبالأساس في بنية الاستيراد السلعي التي لم تشهد توجهاً صوب استيراد السلع الإنتاجية التي تساهم في تنمية الاقتصاد الإنتاجي، بل وكان استيراداً للسلع الصناعية والزراعية الاستهلاكية والسلع الكمالية التي تلعب كلها دوراً في إعاقة عملية التنمية وتطور الإنتاج السلعي العراقي بسبب منافستها للإنتاج المحلي لاسيما من حيث النوعية والتكاليف والسعر. وهذا الدور تمارسه فئة التجار الكومبرادور المرتبطة مصالحها بمصالح المنتجين والمصدرين الأجانب للسلع والمناهضين لتصنيع العراق. في ظل هذا الواقع، كيف أصبحت البنية الطبقية في العراق حالياً؟

إنّ التتبع المستمر للواقع الاجتماعي والاطلاع على جملة من الدراسات والأبحاث في الشأن ذاته، تؤكد كلها أنها تسهم في وضع عدد من الاستنتاجات نشير إلى أهمها فيما يلي:

1. انحسار شديد وتراجع كبير في حجم وبنية ومواقع عمل ووعي الطبقة العاملة العراقية وخاصة في القطاعات الإنتاجية، الصناعة والزراعة، والخدمات الإنتاجية المرتبطة بها. وهذا يعني بدوره انحسارا كبيرا في دور وتأثير الطبقة العاملة العراقية في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في البلاد.

2. انحسار شديد في شبابية وحجم الفئات

الفلاحية العاملة في الزراعة والريف العراقي وتراجع كبير في عدد العمال الزراعيين، لصالح زيادة عدد الفلاحين العاملين لدى أصحاب الملكيات الكبيرة من كبار الملاكين وشيوخ العشائر، مع تراجع في الوعي الاجتماعي والسياسي وتأثير الدين والفكر الديني المتخلف عليها.

3. انحسار كبير في حجم ومكانة ودور البرجوازية المتوسطة الصناعية في الاقتصاد الوطني وتخلف شديد في الاستثمارات الإنتاجية الخاصة والحكومية وضعف كبير في تأثيرها في السياسة والمجتمع، إضافة إلى ضعف ملموس في وعيها لمصالحها ودورها كواحدة من القوى الأساسية الحاملة للمجتمع المدني الديمقراطي، إضافة إلى الطبقة العاملة والفئة المثقفة. وتجليات ذلك كثيرة ومتنوعة.

4. تنامي ملموس في دور البرجوازية التجارية الكبيرة الكومبرادورية المرتبطة مباشرة باستيراد السلع والخدمات ومناهضتها الفعلية لتطوير القطاعات الإنتاجية في الاقتصاد الوطني، إضافة إلى نمو ملموس ومؤذٍ للبرجوازية المالية الطفيلية التي تعيش على مسائل مهمة منها: المضاربة المالية، ونهب المال العام وتهريبه، وغسيل الأموال، ومزاد العملة الصعبة. كما تشارك بفعالية طفيلية كبيرة الفئة المضاربة بالعقارات بدعم ومشاركة الأحزاب والنخب الحاكمة التي ساهمت بنهب عدد كبير من العقارات الخاصة والحكومية، أو استولت على أراض حكومية بطرق شتى أو تحويل صنف الأرض من زراعية إلى عقار للبناء.

5. رغم ضعف مكانة ودور البرجوازية الصغيرة في الإنتاج السلعي الصغير، إلّا إنها أفضل حالاً من البرجوازية الوطنية الصناعية.

6. تشير معطيات الواقع إلى اتساع ملموس في حجم فئة المثقفين والمثقفات والمتعلمين والمتعلمات في العراق، إلّا أن هذه السعة لا تتناسب مع الدور والتأثير اللذين يجب أن تلعبهما هذه الفئة التنويرية والتثقيفية المهمة في المجتمع. وهي نتيجة منطقية لطبيعة الدولة ونهج السلطتين التنفيذية والتشريعية المناهض للثقافة والفنون والتنوير والتوعية الاجتماعية.

مقابل هذا نجد أن هناك نمواً ملموساً في البنية الطبقية المشوهة المرتبطة بواقع العراق منذ نهاية الثمانينيات من القرن الماضي والمتفاقم سنة بعد أخرى حتى الوقت الحاضر على النحو التالي:

1. النمو الكبير في بنية الفئة البرجوازية الطفيلية في أجهزة الدولة وقياداتها (برجوازية بيروقراطية عليا) وفي قطاع السمسرة المالية والعقارية والتجارية والسوق الموازي والجنس والمخدرات وفي دور جمهرة من شيوخ الدين في الأحزاب الحاكمة وخارجها. وهذه الفئة الاجتماعية هي الماسكة للسلطة التنفيذية والمجلس التشريعي وسلطة القضاء.

2. استعادة كبار الملاكين القدامى وشيوخ العشائر لسطوتهم الاقتصادية والاجتماعية على مجتمع الريف العراقي وعلى مناطق السكن العشوائية التي هَجَرت الريف العراقي في فترات مختلفة، ولم تتخلص من تأثير بقايا تقاليد وعادات وفكر العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية والذهنية العشائرية. كتب عبد السادة البصري موضحاً واقع المناطق العشوائية بقوله: "المناطق

السكنية العشوائية هي المناطق التي كانت خالية ومتروكة سابقاً، ثم سكنها الناس بعد 2003 بسبب أزمة السكن، التي يعاني منها العراقيون منذ نصف قرن وما يزالون. ولأنهم شيّدوا بيوتهم كيفما اتفق بلا تخطيط عمراني ولا خدمات واغلبها من الصفيح (الجينكو) سميّت بالعشوائيات (الحواسم) ويسمونها (التجاوز)! إنها المناطق الفقيرة، بل الأكثر فقراً في وطننا، عائلات تعيش تحت خط الفقر وأخرى متوسطة الحال ومن ذوي الدخل المحدود التي أرهقتها تكاليف الإيجار وقلّة الراتب، بسبب الاستقطاعات والقرارات التي ما انزل الله بها من سلطان كما يقال! في كل محافظاتنا الوسطى والجنوبية تحديدا ومنها العاصمة، انتشرت هذه التجمعات السكانية وأخذت بالاتساع يوما بعد آخر، بسبب اللامبالاة والفساد المستشري في كل مفاصل البلاد، اللامبالاة بحياة الناس ومعيشتهم سواء عاشوا أو ماتوا، أكلوا أم جاعوا، سكنوا بيتاً أو في العراء" [5].

3. نمو هائل في بنية الفئة الاجتماعية الرثة الأكثر بؤساً وفاقة وحرماناً، حتى إن أجزاءً منها أشد بؤساً من أشباه البروليتاريا من الرجال والنساء، فئة اجتماعية كبيرة تعيش على هامش الاقتصاد الوطني والمجتمع والسياسة والحياة الثقافية وتحت ظروف بيئية متردية في المناطق العشوائية. وهي التي التهمت نسبة عالية من الطبقة العاملة ومن البرجوازية الصغيرة في المدينة والريف في آن واحد، كما تحتضن نسبة مهمة من المتعلمين والخريجين من مستويات مختلفة والعاطلين عن العمل.

4. تفاقم ظاهرة البطالة في المجتمع العراقي، رغم استيعاب القوات الحكومية وأجهزة الدولة نسبة كبيرة من القوى القادرة على العمل، وهم في قطاعات الخدمات غير المنتجة والمستهلكة للدخل القومي. فالمعلومات المتوفرة تشير إلى الأرقام التالية في كل العراق:

عدد الموظفين: 5.292.000 موظف

عدد المتقاعدين: 2.229.000 متقاعد

عدد العاطلين عن العمل على وفق تصريح وزير العمل في العراق وصل إلى حدود 4 ملايين عامل عاطل. وفي الواقع فأن الرقم الحقيقي يزيد على ذلك بكثير. مع واقع وجود عمالة أجنبية تصل إلى 3000 عامل في قطاع النفط والفندقة والخدمات الأخرى [6].

معدل البطالة العمرية في العراق:

الفئة العمرية 15 سنة فأكثر 13.8 %

الفئة العمرية 15 - 24 سنة 24.5 %

الفئة العمرية 15 - 59 سنة 27.5 %

الفئة العمرية 60 - 64 سنة 2.9 %

وإذ قدرت البطالة في عام 1918 بحدود 13.8% فأنها أصبحت في عام 2020 بحدود 40% من القوى القادرة على العمل لسبب إضافي هو وباء كورونا.

5. كما ازداد عدد الفقراء في العراق ونسبتهم إلى مجموع الشعب. وهي نتيجة منطقية لما جرى ويجري في الحياة الاقتصادية. وإذ بلغت نسبة الفقر في تموز/ يوليو 2019 31.7% [7]، أي بارتفاع 12% بالمقارنة مع عام 2018، أما في عام 2020 فقد ارتفعت حسب وزير العمل والشؤون الاجتماعية إلى 34% فقط [8]، في حين إن كل المؤشرات الاجتماعية المتوفرة تشير إلى ارتفاع نسبة الفقراء في البلاد إلى

أكثر من نصف المجتمع.

نحن أمام ائتلاف حاكم يمثل فئات اجتماعية طفيلية تعبر عن فكر ومصالح البرجوازية البيروقراطية الكبيرة والبرجوازية المالية والتجارية الكومبرادورية والعقارية والمقاولة، مع جمهرة من شيوخ الدين من أصحاب النعمة الحديثة وجمهرة أخرى من كبار الملاكين القدامى وشيوخ العشائر، إضافة إلى تشابك مصالح جمهرة من هؤلاء بعلاقات مع تشكيلات الجريمة المنظمة في مجال الاتجار بالعهر النسائي والذكوري وبالمخدرات، مستفيدة من أوضاع بؤس وفاقة عوائل كثيرة وفراغ وبطالة الشبيبة وتهريب النفط والآثار القديمة والسوق الموازي وغيرها، بشكل مباشر أو عبر الميليشيات الطائفية المسلحة والمكاتب الاقتصادية التابعة لها ولإيران. إنها سلطة عدوانية مناهضة لمبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، كما إنها مناهضة لمصالح الشعب وتغيير بنيتي الاقتصاد والمجتمع وتأمين العدالة الاجتماعية ومستنزفة باستمرار موارد الدولة المالية من الباطن بشكل علني وهائل. هنا العديد من العوامل التي تسببت في الوصول إلى هذا الواقع المزري في البلاد نشير إلى أبرزها فيما يلي:

1) هيمنة الدكتاتورية المطلقة على الدولة والمجتمع فكراً وممارسةً وانتهاجها سياسات قمعية دموية وسيطرة النزعة العسكرية والتسلح ونشوب حروب متعاقبة، وصولاً إلى الاحتلال الخارجي وإقامة نظام سياسي طائفي محاصصي وما اقترن بهما من عواقب على الدولة والمجتمع والاقتصاد الوطني والبيئة.

2) الإهمال الكامل للاقتصاد الوطني وتفاقم دور الريع النفطي في الاقتصاد، وتراجع شديد ومدمر لدور القطاع الصناعي، سواء بإهمال تام للمنشآت الصناعية الحكومية القائمة، أو بخصخصتها دون الاهتمام بما ستؤول إليه، أو بالابتعاد الكامل عن توظيف رؤوس أموال حكومية في القطاع الصناعي، لا سيما في الصناعات البتروكيمياوية والصناعات الغذائية والصناعات الإنشائية وصناعات الغزل والنسيج والصناعات الدقيقة ...الخ، بما يتناغم مع حماية البيئة الملوثة اصلاً في العراق، وخنق المنتج المحلي من خلال فتح أبواب الاستيراد على مصاريعها دون أي اعتبار لقانون حماية المنتجات المحلية من المنافسة الأجنبية من جهة، ودور أتباع إيران وتركيا في العراق في منع توجيه رؤوس أموال لهذا القطاع أو جهد لتطويره وحمايته.

3) الإهمال الفعلي لقطاع الزراعة. فالمعلومات المتوفرة تشير إلى المعوقات الأتية التي تحرم القطاع الزراعي من إمكانية النمو والتطور، كما يشير إلى ذلك مستشار رئيس الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية السيد أحمد القصير [9]:

أ) عدم دفع المستحقات (أثمان الحاصل المسّوق)، وتأخيره لفترات طويلة ودفعات متباعدة لا تفي بالغرض.

ب) ارتفاع تكاليف الإنتاج الزراعي، بسبب ارتفاع أسعار مستلزمات الإنتاج من البذور والأسمدة، الكهرباء، الوقود، المبيدات، الحراثة وملحقاتها والحصاد.

ت) تفاقم التملح وتدهور خصوبة التربة لتفاقم مشكلة استصلاحها وتقلص المساحة الصالحة للزراعة، مما أدى إلى انخفاض

في غلة الدونم الواحد وتراجع حجم وزيادة الإنتاج، وتردي دخل العائلة.

ث) عدم توظيف الدولة لاستثمارات رأسمالية ضرورية في القطاع الزراعي، سواء في محطات المكائن الزراعية، أو في مجالات مكافحة الآفات الزراعية، أو في توفير الخدمات الأساسية للريف والزراعة.

إن هذا الواقع يتطلب من وزارة الزراعة والبرنامج الحكومي توجيه العمل لصالح:

* تقليص الحد الأعلى للتأجير (في الأراضي المروية) وجعلهِ ضعف وحدة التوزيع، أو الحد الأعلى المقرر في القانون 117 لسنة 1970.

* الاهتمام الجدي بالأراضي التي تعتمد على الآبار، وتوفير احتياجاتها من مكائن والوقود، وشبكات الري الحديثة، إيصال الكهرباء لهذهِ المناطق باعتبارها مشاريع المستقبل.

* الخدمات الأساسية، الطرق، الماء الصالح للشرب، الصحة، التعليم، الكهرباء، مما يزيد تعلق أبناء الفلاحين بأرضهم وتقليل الهجرة.

* السماح للفلاح بغرس النخيل والأشجار المثمرة في المساحات المؤجرة وفق القانون 35 لسنة 1983 بمساحة من 5 إلى50 دونما ضمن العقد وتمليكها بعد أن تستوفي شروط البستنة المقررة في القانون 117 لسنة 1970.

4) الدور الدولي والإقليمي في التأثير السلبي على الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والثقافية، لاسيما الدينية والمذهبية، للدولة والمجتمع، وخاصة دور الاحتلال الأمريكي-البريطاني والمؤسسات المالية الدولية وكل من حكومتي إيران وتركيا.

5) الفساد المالي والإداري الذي رافق العقود الأربعة المنصرمة والذي تفاقم سنة بعد أخرى ليصل إلى مستوى نظام متكامل وشامل للفساد، وليس ظواهر مبعثرة هنا وهناك، تمارسه سلطات الدولة الثلاث وأجهزتها ومؤسساتها المختلفة ويمتد ليشمل المجتمع وكل الدول التي تتعامل مع العراق، لاسيما إيران وتركيا والولايات المتحدة وروسيا ودول الخليج. وتشير منظمة الشفافية الدولية إلى أن العراق احتل موقع 162 من 180 دولة [10]، وهو واحد من أكثر ست دول عربية فساداً [11]. والمعطيات المتوفرة تشير إلى أن حجم المنهوب من موارد العراق المالية وحدها خلال الحكم الطائفي السياسي بلغ حجم المقدار الحقيقي للأموال "الضائعة" حسب الخبير الاقتصادي منار العبيدي بـ "400 - 450 مليار دولار أميركي"، أي نحو 40 بالمئة من مجموع موازنات العراق[12]. وكان وزير المالية العراقي علي علاوي قد صرح بأن الأموال التي سرقت من العراق منذ عام 2003 بلغت 250 مليار دولار أمريكي [13]. وقد ردَّ عليه الخبير الاقتصادي منار العبيدي بأن المبلغ الذي تحدث عنه وزير المالية (250 مليار دولار أمريكي هو فقط للأموال التي ضاعت بدون قيود صرف رسمية" [14].

6) تراجع شديد في وعي الإنسان السياسي والاجتماعي الفردي والجمعي وعزلته الشديدة عن التحولات الجارية في العالم، وتراجع مستوى التعليم والعقلانية في جميع مراحله واختصاصاته، ووقوعه في براثن الفساد والغيبيات والأساطير والخرافات وتأثيرها الفعلي المباشر وغير المباشر على

دور وقدرة المجتمع في التأثير على سياسات الدولة ونهجها الاستبدادي والقمعي.

7) التشابك غير العقلاني بين الدين والفكر الديني من جهة، ومؤسسات السلطات الثلاث، لاسيما في مجالات التعليم والثقافة والإعلام، وتأثير ذلك على وعي الإنسان وقدرته على فهم واستيعاب حقيقة ما يجري في البلاد من جهة ثانية.

إن خلاص العراق يتطلب تحالفاً واسعاً وسريعاً لكل القوى الاجتماعية ذات المصلحة الفعلية في عملية التغيير العميقة في الواقع العراقي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وبيئياً. وهذه القوى بحاجة ماسة وقادرة على تحقيق مثل هذا التحالف الوطني المدني الديمقراطي، رغم ضعفها الراهن وهامشية الدور الذي تتميز به على صعيد السياسة العراقية.

من الناحية النظرية يمكن لمثل هذا التحالف الاجتماعي الواسع أن يتشكل من القوى الاجتماعية التالية:

القوى العمالية والفئات الفلاحية والبرجوازية الصناعية والبرجوازية الصغيرة، بمن فيها فئة صغار الموظفين، وفئة المثقفين والمتعلمين والطلبة، وأجزاء واسعة من أشباه البروليتارية التي تعاني التهميش والإقصاء والفقر والحرمان. ومن الناحية العملية في ظروف العراق الملموسة يلاحظ المتتبع عدم وجود مشاركة سياسية واسعة في الحياة السياسية أو في الانتفاضة التشرينية لفئات العمال والفلاحين والبرجوازية الصناعية وفئات البرجوازية الصغيرة من الكسبة والحرفيين، في حين كانت المشاركة سياسياً واحتجاجياً من فئة أشباه البروليتارية المسحوقة وجمهرة من المثقفين الديمقراطيين والطلبة من الذكور والإناث، والشبيبة. وهي قوى غير كافية لتحقيق التغيير المنشود في المجتمع. كما أن أغلب الفئات والقوى السياسية ذات المصلحة الحقيقية في التغيير لا تمتلك أحزابها السياسية ولا تمتلك حتى الآن الوعي، فإقامة مثل هذه الأحزاب السياسية، لاسيما البرجوازية الصناعية وفئات البرجوازية الصغيرة وقوى الانتفاضة التشرينية، ضرورية.

ويشير واقع البلاد إلى أن قوى التيار المدني والديمقراطي العراقي لم تستطع حتى الآن تحريك الريف العراقي ولا فئات البرجوازية الصغيرة العاملة في القطاعات السلعية الصغيرة أو البرجوازية الوطنية لاسيما الصناعية، وهي مازالت بعيدة عن تمثيل كل الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصلحة الفعلية في التغيير المنشود. وفي الوقت ذاته لم تنشأ تلك الأحزاب القادرة على التعبير عن إرادة ومصالح العديد من الفئات الاجتماعية ذات المصلحة بالتغيير. إنها عملية صيرورة وسيرورة معقدة وطويلة ومرتبطة ببنية الاقتصاد والمجتمع والوعي الاجتماعي. إنها عملية نضالية ذات محتوى سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي وبيئي متشابك لا بد من خوضها لصالح التغيير.

ان الانتفاضة التي تفجرت في تشرين الأول 2019 كانت نتيجة مخاض نضالي طويل للقوى المدنية وفضح مستمر لسياسات النظام الطائفي الفاسد، ومثلت بنية قوى الانتفاضة الشبيبة من الفئات الاجتماعية الفقيرة والرثة والمثقفين وخريجي الكليات والمعاهد والثانويات الذين يعانون البطالة، وكذلك الطلبة من النساء والرجال. إنها خليط

غير متجانس، ولكن في غالبيته ممن يعانون الأمرّين من طبيعة النظام ونهجه وسياساته وفساده، وممن خاب ظنهم بهذا النظام الذي اعتقدوا أنه يعمل لمصلحتهم!

إن هذا الواقع يجعل من الصعوبة بمكان استمرار الانتفاضة مجدداً ما لم تتخذ بنية الانتفاضة نزوعاً واعياً نحو العمق الفكري والسياس ووضوح الأهداف، ونحو العمل لجلب المزيد من الفئات الاجتماعية والقوى الواعية للعملية النضالية، ونحو الوعي بأهمية التنظيم والقيادة الموحدة للعملية الثورية الجارية في البلاد، أي لتحالف متين ومتماسك لقوى الانتفاضة وأصحاب المصلحة الفعلية بأهدافها المركزية، أي التغيير الجذري في طبيعة النظام السياسي القائم.

*** هذا المقال هو تطوير للمداخلة التي قدمها الدكتور كاظم حبيب في الندوة التي اقامتها مجلة (الثقافة الجديدة) يوم 12/شباط/2021 ونشرت مواد الندوة ضمن العدد 419 – 420/اذار 2021.**

الهوامش والمصادر:

1. أنظر: محمود محمد القيسي، الرقمنة العراقية 2020، ص 27 و28.
2. أنظر: كاظم حبيب، لمحات من عراق القرن العشرين، العراق في العهد الجمهوري، استبداد وبداية حروب الجمهورية الرابعة في العراق، الكتاب التاسع، الجزء الثاني 1979 & 1980 1989- & 1990. دار أراس للطباعة والنشر، أربيل- إقليم كردستان العراق- العراق، 2013م.
3. المصدر السابق نفسه.
4. المصدر السابق نفسه.
5. أنظر: عبد السادة البصري، ساكنوا العشوائيات...!، جريدة "طريق الشعب"، العدد 51، السنة 86، 23 شباط 2021، ص 12.
6. أنظر: الرقمنة العراقية، مصدر سابق.
7. أنظر: مؤيد الطرفي، معدلات الفقر في العراق إلى ارتفاع والحكومة تحاول السيطرة عليها/ موقع غربية، في 31/12/2020.
8. أنظر: تقرير تزايد لافت لمعدلات الفقر في العراق.. وهذه هي الأسباب، موقع الجزيرة، في 07 /02 /2021.
9. أنظر: مراسلة خاصة مع السيد أحمد القصير عبر الصديق الإعلامي حمدي فؤاد العاني حول أوضاع الزراعة والفلاحين في الريف العراقي.
10. أنظر: أنظر: تقرير تزايد لافت لمعدلات الفقر في العراق.. وهذه هي الأسباب، موقع الجزيرة، في 07 /02 /2021.، منظمة الشفافية الدولية، في 26 /01 /2020.
11. أنظر: د. أسامة مهدي، العراق ضمن سد دول عربية الأكثر فساداً في العالم، موقع إيلاف، 28 /01 /2021
12. أنظر: يكفي لبناء دول".. خبراء يكشفون بالأرقام حجم "أموال العراق الضائعة، موقع الحرة، في 05 /10 /2020.
13. أنظر: علي السويعدي، الكشف عن حجم الأموال المنهوبة من العراق منذ 17 عاما، موقع العين الإخبارية. بتاريخ 05 /10 /2020.
14. أنظر: يكفي لبناء دول".. خبراء يكشفون بالأرقام حجم "أموال العراق الضائعة، موقع الحرة، مصدر سابق.

الإنفاق الحكومي الاستثماري والفئات الميسورة *

د. حسن عبد الله بدر
دكتوراه اقتصاد متخصص في حقل النظرية الاقتصادية

تمهيد: بعد الغزو الامريكي 2003، صار بإمكان العراق، من بين أمور أخرى، أن يقوم بتصدير كميات أكبر من النفط، وبالتالي الحصول على عوائد مالية، تتيح له تحسين مستواه المعيشي، بما في ذلك زيادة الانفاق على السلع والخدمات الانتاجية (أو السلع الاستثمارية، تمييزاً لها عن السلع الاستهلاكية) التي تتمثل في الآلات والمعدات، ووسائل النقل، والابنية بمختلف أنواعها كالمباني السكنية وغير السكنية وكذلك المنشآت التي هي من قبيل البنية التحتية كالطرق والموانئ والمطارات والكهرباء والماء ومتعلقات الصرف الصحي وما شابه. ويصب هذا الانفاق مباشرةً في بناء، أو توسيع، الطاقات الانتاجية المتاحة للبلد، بهدف إنتاج ما يحتاجه من سلع وخدمات أو قسم ملموس منها. وبهذا المعنى، فإن هذه الاستثمارات، التي تحمل تسمية أخرى معبِّرة وهي تكوين رأس المال الثابت، تشكل السياسة أو الأداة الرئيسية للتنمية الاقتصادية، وبخاصة في بداياتها.

الفكرة الرئيسة التي أود إبرازها أن الانفاق الحكومي الاستثماري، أو، بإختصار، الاستثمارات (سوية مع الانفاقات الأخرى) التي كان يجري تحقيقها بعد عام 2003، والتي تضطلع الدولة بحصة الاسد في تمويلها، كما كان هو الحال منذ بداية الخمسينات، هي منبت أو بداية تكوّن الفئات "الطفيلية" في المجتمع العراقي. ولعل هذه الفكرة هي مجرد تعبير عن قناعة يكاد يُجمع عليها جمهور الاقتصاديين العراقيين، على إختلافهم، وهي أن ما تقوم به الدولة من إنفاق هو المحرِّك لكل النشاط الاقتصادي في العراق، الحكومي والخاص، وهو أيضاً باعث حركة المجتمع نفسه بفئاته وطبقاته المختلفة، وذلك منذ بداية الخمسينات بشكل خاص.

وستُقدم هذه الفكرة من خلال 3 نقاط: (1) زبدة التخصيصات الاستثمارية وتنفيذها خلال تلك الفترة؛ (2) محاولة تسمية، قدر الامكان، العمليات أو الفئات التي اقتنصت تلك المبالغ (وكذلك الانفاقات الاخرى، غير الاستثمارية، للدولة) أو أي جزء منها، وكيف آلت إليها بغير وجه حق؛ (3) ما يمكن استخلاصه من هاتين النقطتيْن على صعيد بنية المجتمع.

أولاً: التخصيصات الاستثمارية وتنفيذها خلال تلك الفترة.

صاحبَ احتلال الولايات المتحدة للعراق، حصول تغيرٍ كبير في توجهاته ووضعه الاقتصادي من بين مؤشراته الرئيسة:

- الإعلان عن التوجه نحو اقتصاد السوق وفتح الباب على مصراعيه أمام الاستيراد وحرية التحويل الخارجي للعملات الأجنبية؛

- إهمال عملية التصنيع على أساس أن الاستثمار الانتاجي، في الزراعة والصناعة التحويلية، أصبح من شأن القطاعيْن الخاص والأجنبي؛

- والزيادة الكبيرة في الموارد المالية للبلاد من إنتاج وتصدير النفط؛

- التوسع الضخم في الأجهزة الإدارية للحكومة، ومؤسسات الجيش والشرطة والأمن، وذلك أساساً بسبب عجز القطاعات الانتاجية عن استيعاب القوى العاملة وبالتالي تفاقم البطالة، والتوقف الفعلي للكثير جداً من المنشآت الانتاجية الحكومية، ولكن أيضاً لرغبة الأحزاب الحاكمة في الكسب السياسي من خلال إغراق تلك الأجهزة بمناصريها.

وبقدر تعلق الأمر بالإنفاق الاستثماري الحكومي في هذه الفترة، فإن نسبة معقولة ويُعتد بها من الناتج المحلي الاجمالي كانت تُخصص لصالح ذلك الإنفاق، مع أن الجزء الأكبر من الناتج كان يتجه، طبعاً، نحو الاستهلاك. إذ تتحدث المصادر المتاحة[1] عن عشرات المليارات من الدولارات التي تم تخصيصها للاستثمار حتى الآن، وبخاصة حتى نهاية عام 2014 حين بدأت أسعار النفط بالتقلب أو الانخفاض، وكذلك اجتياح واحتلال أجزاء واسعة من البلد من قبل عصابات داعش، الأمر الذي لم يكن يُبقي الكثير من الايرادات النفطية للاستخدامات الاقتصادية والمدنية، وبخاصة للتخصيصات الاستثمارية. وهكذا فإن نسبة لا تقل عن 20 بالمائة من الناتج المحلي الاجمالي، كانت تُخصص للإنفاق الاستثماري في فترة ما بعد 2003. كما يمكن الاستدلال، بطريقة أخرى، على ما تم تخصيصه للاستثمار. فمصادر مجلس النواب تقدر مجموع مدخولات الحكومة منذ 2003 (مدخولاتها من تصدير النفط، والإيرادات الأخرى كالضرائب والكمارك، وكذلك الهبات والقروض) بـ 855 مليار دولار. ونظراً لوجود بيانات موثقة رسمياً عن مشروعات كثيرة جداً تم إنفاق 284 مليار دولار عليها دون أن تكتمل، فمعنى ذلك أن التخصيصات الاستثمارية وحدها أخذت أكثر 30 بالمائة مما كان بحوزة الحكومة من أموال، علماً أن ذلك لا يشمل المخصص للاستثمار في قطاع النفط وإقليم كردستان. وهذه النسبة تعتبر عالية حتى بمقاييس الدول الغربية المتطورة اقتصادياً[2].

ثانياً: العمليات أو الفئات التي اقتنصت تلك المبالغ بغير وجه حق

إن ضآلة تنفيذ التخصيصات الاستثمارية يتضمن إهدار و/ أو سرقة جزء منها، وهو أمر يمكن أن يأخذ الصور التالية:

1 - تقاسم سرقة جزء من تكلفة عقد ما بين المتنفذين في جهة حكومية ما وشركة معينة من الشركات التي تتلكأ في الانجاز ثم تترك المشروع. المقطع التالي للمرشح

السابق للوزارة محمد توفيق علاوي يوّصف هذه العملية وأثرها المالي، علماً أن هذه الصورة تمثل احدى صور الفساد المالي:

عدد المشاريع المتلكئة منذ 2003 بلغ اكثر من 8000 مشروع، وكلفتها اكثر من (270) مليار دولار، وإن أكثر من 90% منها هي مشاريع متلكئة بسبب الفساد، حيث لا يتم تطبيق تعليمات العقود الحكومية من ناحية الشفافية وفتح المجال لكافة الشركات للتقديم، بل يتم الاتفاق مسبقاً مع شركات محددة وغير رصينة. وكان يتم الاتفاق معها على دفع عمولات كبيرة. فحين يتم دفع مبالغ مقدماً لهذه الشركات من قبل الدولة، يتم استرجاع هذه المبالغ كعمولة من قبل الجهة الحكومية التي منحتهم العقد، ثم تطالب الشركةُ بدفعة أخرى، ولكنها تجد نفسها غير قادرة على القيام بالمشروع لأنها غير كفوءة وتخشى من الخسارة، فتستولي على ما تسلمته من أموال، وتترك المشروع من دون إنجاز، وتحول ما تسلمته من أموال إلى خارج البلد. أما الجهة الحكومية التي تعاقدت معها في البداية، فتخشى من ملاحقتها، لأن الشركة، إنْ حوسبت، فستكشف العمولات التي دفعتها إلى الجهة الحكومية، فيسكت كل طرف عن الآخر ويذهب كل طرف بما ناله من أموال، بل لعل هذين الطرفين هم أقارب أو أصدقاء، فيبقى المشروع متلكئاً وغير منجز[3].

وهكذا يمكن القول إن العقود تُصاغ على نحو يستفيد منه الطرفان. وعلى هذا السبيل، يمكن الاشارة إلى المقدَّم الذي يُدفع للمقاولين على الحساب، ولكنه يمكن أن يضيع عند عدم اكتمال المشروع المعني أو كنتيجة للتواطؤ بينهم وبين الجهات الحكومية المتنفذة ذات العلاقة.

2 - المناقلة بين البنود المختلفة في ميزانية الدولة هي صورة أخرى لتحويل التخصيصات الاستثمارية إلى استعمالات أخرى تشغيلية أو استهلاكية ولأناس أو جهات قد لا تكون في محلها مثل الرواتب لموظفين أو جنود (وربما "وهميين") أو تقديم الأرزاق (الطعام والشراب) داخل الجيش والشرطة والامن بتكاليف تفوق التكاليف الحقيقية. "إن المخصص للاستثمار في الموازنة العامة يُستخدم لامتصاص التقلبات في الايرادات المالية: فحين تزداد الايرادات يصيب الاستثمار العام حصة كبيرة من تلك الزيادة، ولكن حين تنخفض لا تتأثر النفقاتُ التشغيلية كثيراً، لأن النقيصة تُقتطع أكثر من مُخصصات الاستثمار"[4].

3 - التواطؤات التي يُراد منها زيادة كلفة مشروع ما بحيث يتضمن جزءاً يذهب للموظفين المتنفذين، مع ابتزاز المقاولين- المجهزّين في الوقت نفسه بحيث يضطروا للتنازل/ الدفع لأولئك المتنفذين، علماً أن المصدر النهائي للدفع هو أموال الدولة التي سبق للمقاول تسلمها في صورة المقدَّم (العربون) أو أنه ينتظر يتسلمها.

4 - تسلم عشرات الألوف من الموظفين والعسكريين الوهميين رواتب كما لو كانوا حقيقيين هو سرقة مباشرة وسافرة للمال العام. وكانت المصادر الرسمية نفسها أول من تحدثَ عن وجود هؤلاء "الفضائيين" في مختلف دوائر الدولة المدنية، وكذلك في صفوف الجيش والشرطة والحشد الشعبي[5]، بل وحتى عن رجال "دين"

فضائيين في الجوامع. والقول نفسه يسري على من يتلقون مرتبات عديدة، مهما كانت عناوين وتبريرات ذلك.

والمثال التالي يمكن أن يعطي فكرة عن حجم المشكلة. لو كان عدد الموظفين الوهميين (200) ألف موظف (بين موظفي الدولة الذين تتراوح تقديراتهم بين 3.5 – 4 ملايين موظف، وعدد يصل إلى حوالي 7 ملايين فرد ممن يتلقون رواتب من الدولة بمن فيهم المتقاعدون)، ولو كان متوسط المرتب الواحد منهم مليون دينار[6]، فإنهم يتلقون حوالي 2 ترليون دينار (حوالي مليارين من الدولارات). وهو مبلغ كبير بكل المقاييس، وبخاصةٍ حين يُنظر إليه كجزء من مدخرات البلد أو فائضه الذي يمكن تخصيصه للبناء والاستثمار أو أي غرض آخر.

وثمة جانب آخر من هذا الموضوع لا يقل سوءاً، إنْ لم يكن أمّرْ وأشقى على النفس. فهؤلاء الفضائيون، والذين هم أيضاً، ربما، ممن يقبضون أكثر من مرتب واحد، وكذلك المتنفذون في أجهزة الدولة الذين يتواطؤون معهم، إنما يشغلون فرصة عمل هي من استحقاق، بين آخرين، أكثر الناس احتياجا لها: الشباب ضمن الفئة العمرية 17 - 30 سنة.

فالفقر، الذي من أُوَل وأظهرْ علاماته ومعاييره عدم وجود عمل وبالتالي مصدر دخل دائم لدى من هو فقير، أكثر انتشاراً بين صفوف هذه الفئة. إذ تبلغ نسبة الفقر بينهم 22 بالمائة [7]. وهي قريبة جداً من نسبة الفقر الاجمالية في العراق البالغة 23 بالمائة. وتعكس هذه النسب الظروف السيئة التي تقيد فرص الشباب، وتحد من امكانية حصولهم على مصدر دائم للدخل، وتدفعهم بالضرورة الى انتهاج أيّ سلوك قادر على ضمان التوظيف الحكومي لهم. وقد وجدتْ الكتلُ والأحزاب السياسية الحاكمة، ان كسب ولاء هذه الفئة يشكل جزءاً رئيساً من سعيها لضمان استمرار هيمنتها على السلطة والثروة، من خلال تقاسم "حُصص" الدرجات الوظيفية التي يتم استحداثها كل عام ضمن قانون الموازنة العامة للدولة. ولغياب المعايير المهنية في التوظيف، أصبحت عملية "التعيين" في دوائر الدولة، واحدة من اكثر أوجه الفساد وضوحاً وتفشيّاً، سياسياً وإدارياً ومالياً [8].

ويورد المصدر (المرجع) الأخير، في دراسةٍ جادة، المعلومات التالية[9] عن تفاصيل فئة الموظفين الفضائيين أو "الاشباح":

- ان نصف الموظفين لا يلتحقون بأعمالهم يومياً. والكثير منهم لا يعملون فعلا اكثر من ساعتين او ثلاث كل يوم. وبعضهم يحضر الى مقر عمله يومياً، ولا يعمل على الإطلاق.

- وعلى وفق تقارير دولية موثوقة، ومن خلال الخبرات الشخصية للعديد من الباحثين، فإن ثلث الوزارات العراقية، تعاني تفشي ظاهرة "الموظفين الاشباح"، وهؤلاء هم "الاشخاص الذين تدفع لهم الرواتب بانتظام، لكنهم لا يأتون (أو لا يتواجدون) مطلقاً في مقرات عملهم" .

- اما على صعيد المؤسسة العسكرية والأمنية (وزارتي الداخلية والدفاع) والتي تستحوذ (كمعدل) على 25 بالمائة من تخصيصات الموازنة العامة للدولة، فثمة مؤشرات، وشبهات فساد، تحوم حول ما

يسمى بالمنتسبين "الفضائيين". وهؤلاء هم "الاشخاص الذين يتم تعيينهم شريطة استحواذ مسؤولهم الاعلى المباشر على نصف رواتبهم (او اي نسبة يُتفق عليها معهم) مقابل عدم الالتحاق بوحداتهم أصلا، او مقابل اعفائهم من واجباتهم التقليدية.. أو منحهم إجازات طويلة".

إنّ فكرة الموظفين الوهميين، وكذلك تلقي عدة مرتبات من قبل فرد واحد لا ينبغي أن تنسينا المشكلة الأصلية، أي ضخامة الجهاز الاداري في العراق، وما يتطلبه ذلك من موارد، وما يشكله من قيد على التصرف بها من قبل صُنّاع السياسات. فمصر، مثلاً، وهي بلد نام، ويزيد حجم سكانه على ضعف سكان العرَاق، ويمتلك طاقات انتاجية زراعية وصناعية وخدمية واسعة، ويقوم حتى بتصدير قسم من منتجاته إلى الخارج، إلا أن جهازه الاداري يقل عن نصف الجهاز في العراق! هذا علماً بأن مصر ليست بالبلد المثالي من هذه الناحية، ومع ذلك فهي، بالنسبة لنا، في وضع تُحسد عليه.

5. ثمة هدر أو حتى فساد في تسويق بعض المنتجات الزراعية التي "تُنتج" في بلدنا. فهناك حديث عن وجود مزارعين يُزعم قيامهم بإنتاج منتجات معينة، كالقمح، بقصد بيعها للدولة، وفق الترتيبات المعمول بها، إلاّ أنهم، كما يُقال، يقومون بشراء المنتج المعني من ايران بسعر يقل عن سعر إعادة بيعه للدولة، بحيث يكسبون الفارق بين السعرين. وبهذا الشكل تتسرب موارد البلد إلى خارجه، وتتعطل موارده من عمل وأراض ومياه وغيرها، وما قُدم، ربما، من مساعدات حكومية في صورة قروض، ومكائن وآلات، وأسمدة، وخبرات بشرية، فضلاً عن الخسارة المعنوية الكبيرة المتمثلة بالنصب والاحتيال.

6. ثمة مصدر مهم آخر للهدر- الفساد في مجال بيع المنتجات النفطية من قبل المحطات الحكومية المعنية دون استيفاء أثمانها المستحقة من الأحزاب القريبة من السلطة السياسية، وبخاصة لسياراتها وآلياتها. وتقدّر مصادر أكاديمية قيمةَ تلك المنتجات بحوالي ترليون دينار في الشهر الواحد [10].

7. ثمة تقديرات بوجود حوالي 100 ألف عقار حكومي مشغول من قبل الفئات والأحزاب القريبة من السلطة من دون تسديد كامل إيجاراتها التي تصل إلى 2 ترليون دينار في السنة [11].

8. شهد قطاعُ التجارة التحولَ الكبير في اقتصاد ومجتمع العراق بعد 2003. إذ تبين الأرقام أنه أنتج حوالي نصف الناتج المحلي الاجمالي سنة 2014، وأن الاستيرادات أخذت حوالي 446 مليار دولار [12]. ورغم كل ذلك، لا يقدم هذا القطاع من الضرائب ما يتناسب مع ما يحققه من دخول. كما أن المقادير الضئيلة المدفوعة كضرائب كمركية على الاستيرادات الضخمة تفيد الأمر نفسه، وذلك بفضل العلاقات بين التجار والمستوردين والموظفين المتنفذين في هذا القطاع. ومع ذلك، وبهذا الخصوص، أنظر الفقرة التالية (وكذلك القسم "ثالثاً" الذي سيرد بعد قليل).

9. عدم تحصيل كامل المستحقات الضريبية الدخل بشكل جدي ومسؤول في بلد يتزايد فيه التفاوت بين الناس بين فئات تعيش على الهواء [13] وأخرى تكاد تتشوه من تخمتها، فضلاً عن إمكانية

استخدام الضرائب غير المدفوعة في مجال الارهاب، وتشكيل الميليشيات، والاغتيال لمن يفتح فاه، ونصب المحطات الفضائية التي تتولى تبييض وجوه المنغمسين في الفساد وشراء الذمم[14].

10 - وعن تهريب النفط في كل ربوع البلاد، شمالاً وجنوباً، ثمة حديث لا يتوقف منذ عام 2003، وعلى يد قوى ليست بعيدة عن الاحزاب الحاكمة. الحديث يدور عن قيم للنفط المهَّرب بالمليارات، وعن بيعه بأسعار بخسة حتى في الفترات التي كان سعره مرتفعاً (بين 70 - 90 دولارا للبرميل). ليس بوسعي أن أتحدث عن هذا الأمر بشكل محدد وموثق، ولكنه مؤكد.

11 - أما بالنسبة لإخراج العملة الاجنبية من البلاد بشكل غير قانوني، فربما هو من أشكال النهب والسرقة والفساد الذي كان أول وأكثر ما جرى الانتباه إليه والحديث عنه حتى من مصادر قريبة من جهاز الحكم مثل المرحوم د. أحمد الجلبي (والذي فقدَ حياته بسبب ذلك، بحسب عائلته والمقربين منها)، وكذلك من جانب ديوان الرقابة المالية. كما أن الحديث عنه يخص، إضافةً إلى أفراد في نظام الحكم، جهات حكومية أخرى مثل بعض المصارف، ودوائر الكمارك، ودول خارج العراق مثل ايران والاردن ولبنان وغيرها. ولكني لا أستطيع الحديث أكثر بشكل موثق عن هذا الموضوع.

12. أما قطاع الكهرباء، فلن نطيل الحديث عنه، لأنه معروف جيدا كأحد أهم مصادر المعاناة في العراق. أكتفي هنا بإيراد وجهة النظر المتداولة بين الخبراء والتي تذهب إلى تقدير المال الضائع في هذا القطاع بـ (70) مليار دولار، كمتوسط بين تقديراتهم، فضلاً عن حصر أسباب ذلك الضياع بين سوء الادارة والنهب على طول فترة ما بعد 2003.

إن كل هذه الصور للهدر/ السرقات تحدث على نطاق واسع أفقرَ البلدَ والناس بحيث أن كثيراً من المسؤولين التشريعيين والتنفيذيين لا يخجلون من المطالبة بأخذ قروض داخلية وخارجية لمجرد تسديد رواتب الموظفين والمتقاعدين، أي الاقرار سلفاً وعلناً بعدم القدرة على تسديد هذه القروض وفوائدها (لأنها ستُستخدم لغير الإنتاج) إلاّ بأخذ قروض جديدة، أي الاستمرار في الدوامة نفسها، دوامة الاقتراض، أو أن تأتي الصدفة والحظ من جديد بأن يزداد الطلب على النفط واسعاره، فتزداد إيرادات البلد المالية منه، لتعود حليمة إلى عادتها القديمة، اي ليعود البلد إلى الانفاق بدون قيود أو تحسبٍ للمستقبل.

ثالثاً: التركيب الناشئ من الفئات الاجتماعية وهي تحلب جهاز الدولة المتصرف بأموال البلاد

إنّ الصور السابقة، التي يزخر مجتمعنا بعد 2003 بغيرها أيضاً، وربما بما هو أكثر مضاءً ودلالةً، قد يساعدنا تجميُعها على رسم لوحة من فئات المجتمع الرئيسة وفقاً لمدى تنعمها بموارد البلد، أو بالعكس حرمانها منها، وذلك بحسب قربها من الدولة وجهازها الحكومي[15].

تتصدر "نخبة" الجهاز الاداري والعسكري والأمني صورة الفئات الميسورة وذلك لما تتلقاه من مرتبات ومخصصات عالية واستثنائية تتيح لها مستوى معيشياً مرموقاً. وفي إطار هذه النخبة، يأتي، أولاً،

الموظفون ذوو الدرجات الخاصة، بمن فيهم الرئاسات الثلاثة ومِلاكها؛ ثم الموظفون من الدرجة الرابعة وحتى الدرجة الأولى، ومن ثم منتسبو الدفاع والأجهزة الأمنية [16].

ومن ناحية أخرى، ولأن القطاعات الانتاجية المحلية، الزراعة والصناعة التحويلية، عاجزة عن تلبية احتياجات البلاد، الاستهلاكية والاستثمارية، وبخاصةً في ظل تجميد المنشآت الاقتصادية العامة بعد 2003 مباشرةً باستثناء الشركات النفطية، فإن الحاجة ماسة لاستيراد تلك الاحتياجات من الخارج، وبخاصة من الدول المجاورة. ومن هنا تبرز الحاجة لفئة التجار الذين يتولون هذه المهمة.

في البدء، لا بد من القول إن هذه الفئة تمارس عملاً مطلوباً اجتماعيا على الدوام وفي كل المجتمعات. فالمنتج، رغم إنتاجه، لا بد من تصريفه وبالتالي استعادة تكاليف إنتاجه وترك فضلة من الربح تحفز منتجه على الانتاج واستمراره، من ناحية. ومن ناحية أخرى، وحتى قبل القيام بعملية الانتاج، لا بد من تهيئة مستلزمات عملية الانتاج من قوة عمل ومواد خام... وفي الحالتيْن، مرحلة تهيئة متطلبات الانتاج للقيام بالإنتاج ومرحلة تصريف المنتجات، بعد انتاجها، ينهض قطاع التجارة، أو التجار، بهذه الوظيفة الضرورية. وفي العراق أيضاً، تحدث هذه العملية، وتبرز الحاجة للتجارة والتجار لأسباب إضافية، وهي الاسباب التي ترد في الفقرة السابقة تحديداً، أي ضعف ومحدودية الطاقات الانتاجية المحلية.

ولكن في ظل انهيار الدولة وتخريبها المتعمد من قبل قوى الاحتلال ومريديه؛ ومحاولة بناء الدولة الجديدة على أسسٍ من الطائفية والأصل العرقي والمناطقية وتحقيق ذلك بالفعل في كل مؤسساتها، بدءاً من الرئاسة والبرلمان والوزارة؛ وإشاعة فكرة أن عهد القطاع العام و"الاشتراكي" كان فاشلاً، وقد ولّى وأن الأمل هو في بديله الخاص والرأسمالي "الناجح عالمياً"؛ وفتح باب الاستيراد بكامله لاستغلال توق الناس لمواد الاستهلاك والترف بعد فترة من الحصار والضنك وبعد زيادة رواتبهم ومدخولاتهم، وكذلك، بعد سنة 2006، تركيز الانتباه على فقدان الأمان، فإن فئة التجار قد قامت بهذه المهمة على نحو يفوق المتصور، أتاح لها الاستحواذ على أموال طائلة.

ففي قطاع التجارة تولد 43.8 بالمائة من الناتج المحلي الاجمالي (من دون النفط) عام 2014، أي حوالي نصف ذلك الناتج [17] كما تبينْ الارقام أن 446.826 مليار دولار قد ذهبت لتمويل الاستيرادات حتى نهاية ذلك العام[18]، أي حوالي نصف ما دخلَ العراق من دولارات حتى ذلك الحين.

فئة التجار معروفة بديناميتها، وبصلاتها القوية بجهاز الدولة، وبخاصة الأقسام المرتبطة بالمال والأعمال والتجارة كالبنك المركزي العراقي ووزارات التخطيط والتجارة والنفط ومختلف المصارف، وكذلك بصلاتها الاقليمية والدولية.

ومن ناحية أخرى، فإن الحكومة نفسها، التي هي اليد الطولى والحاسمة التي يعتمد عليها نشاط التجار، فيها الكثير من التجار ورجال الاعمال أو من رجال الأحزاب ممن هم تجار أو من خلفية ذات صلة بالتجارة والأعمال بشكل عام. وقد وردَ، أكثر من مرة وعلى لسان أكثر من رئيس وزراء واحد، أن لديه ملفات فساد كبرى

وموثقة تتعلق بالمال والارهاب، لا يمنعه عن كشفها سوى كون أصحابها من رجال الدولة أو الأحزاب الحاكمة. ووسائل الاعلام تزخر بالإشارة إلى أن عدداً من المصارف، التي كانت أول من جرى اتهامها بالفساد في قضية بيع العملة الأجنبية في البنك المركزي العراقي، تعود ملكيتها لمسؤولين في الحكومة أو في البرلمان، علماً أن عدد المصارف في العراق أكبر بكثير مما تتطلبه حياة الاعمال في العراق، وبالمقارنة مع دول الجوار (كالأردن وتركيا وايران)، كما يعتقد الكثير من الاقتصاديين اللبراليين أنفسهم في العراق[19]. وثمة من يقول إن بعض رؤساء الجمهورية في العراق، أو أسرهم أو أحزابهم، هم على صلة بعالم المال والأعمال.

ومن ناحية أخرى، تتجلى دينامية التجار ليس فقط في العمل التجاري البحت والتقليدي (استيراد، أسواق، المتاجرة بالارض والعقارات،..)، بل أيضاً في الحقول القريبة أو المجاورة كالمقاولات، والمصارف، والسياحة الدينية، والعمل الذي يجمع بين توليد الكهرباء بالمولدات المحلية واستيرادها هذه المولدات من الخارج، وذلك سعياً وراء تحقيق المزيد من الأرباح.

ولكن هناك عوامل اقتصادية محددة وقوية حالتْ وما تزال تحول دون ظهور فئات أخرى من رجال الأعمال في قطاعات تقليدية عادةً مثل الصناعة التحويلية وحتى الزراعة، بالرغم من أن النظام السياسي الجديد، بعد 2003، يرفع شعار اللبرالية الاقتصادية ويعتبر التطويرَ الصناعي والزراعي من شؤون القطاع الخاص. وتتمثل تلك العوامل في ظروف العراق التي من شأنها أن لا توفر لرأس المال الخاص أي جدوى اقتصادية من تطوير الصناعة التحويلية على الاقل [20]. فإغراق السوق العراقية بالمنتجات الصناعية والزراعية المستوردة من دول الجوار، وبخاصة ايران وتركيا، يضع المنتجين العراقيين في وضع يتعذر فيه عليهم مجاراة تلك الاستيرادات، وذلك بسبب تكاليف إنتاجهم العالية نسبياً. فصناعاتنا ومزارعنا تفتقر للبنى التحتية الضرورية: فهي "تتحمل مختلف أنواع الرسوم المدفوعة للحكومة؛ وتكاليف الوقود والكهرباء العالية، وفقدان الحماية الفعلية من منافسة السلع المستوردة، بالرغم من وجود التشريعات التي يمكن أن تخدم ذلك، فضلاً عن البنية الآمنة للأعمال"[21]. وفي المقابل، تتمتع المنتجات المستوردة من تركيا وايران بميزة تنافسية قوية لأسباب من بينها تدني قيمة عملة هذين البلدين مما يجعل منتجاتهما في أسواقنا العراقية أرخص من منتجاتنا (عند توفرها)، وكذلك لأن حكوماتها تدعم صادراتها الخارجية (على غرار قيام العراق، في الستينات والسبعينات، بالدعم المالي للسمنت العراقي المصدَّر للخارج)، إضافةً إلى دعم ما تستخدمه المصانع والمزارع هناك من وقود وكهرباء ومواد خام في عملياتها الانتاجية، فضلاً عن الأمان والاستقرار في أصول الاعمال. وهذه المقومات للوفورات الداخلية والخارجية هي أساس توفر (أو غياب) الميزة التنافسية في بلد ما. وهذا هو السبب الحقيقي، في نظري، وراء ما يُسمى عملية كبت التراكم الرأسمالي الانتاجي، أي كبت تحول رأس المال التجاري إلى رأسمال صناعي[22]. فرؤوس الأموال متوافرة في العراق، وهي تتنقل بين الحقول التي وردَ ذكرها فيما سبق

تبعاً لما تدره عليها من أرباح. وهي أرباح مجزية بالفعل، علماً بأن رؤوس الأموال هذه لديها، في جميع الاحوال أو في حالة الضرورة، إمكانية الإيداع في المصارف العراقية الحكومية نفسها. والبيانات تبين بالفعل أن ثمة أموالا خاصة ضخمة مودعة لدى المصارف الحكومية نفسها[23].

وأمام هذه "المنافذ" المحلية والمحدودة للاستثمار، ثمة حديث عن إخراج (حتى لا نقول تهريب أو غسيل) الكثير من رؤوس الأموال العراقية/ المليارات إلى الخارج في صورة استثمارات مالية كالإيداع في المصارف أو شراء الاسهم والسندات أو في صورة استثمارات مادية كالعقارات، والمصانع أحياناً.

وهكذا، فإن لوحتنا للفئات الميسورة تضم، أولاً وقبل كل شيء، الرئاسات الثلاثة ومِلاكها، وصلاتها الأسرية، والمناطقية، والعشائرية والحزبية؛ وكذلك الموظفين من الدرجات الخاصة كالوزراء ونوابهم، وممن تقع درجاتهم الوظيفية بين الرابعة والأولى، ثم منتسبي الدفاع والأجهزة الأمنية، وذلك اعتمادا على مقادير رواتبهم ومخصصاتهم التي تتيح لهم مستوى معيشياً مرموقاً، ونفوذاً في تقرير كيفية التصرف بموارد الدولة في وزاراتهم وأحزابهم. ومما له أهمية استثنائية وحاسمة في تقرير كيفية اغتناء هؤلاء من الموارد المتاحة وكيفية اغتناء غيرهم أيضاً بها إنما هو الطابع العام للحكم. ونظراً لأن الحكم يتم بالمحاصصة بين الاحزاب المشاركة، وبعيداً ليس فقط عن عامة الناس ووسائل الاعلام وأدوات الرقابة، بل وحتى عن الأحزاب الأخرى المشاركة في الحكم نفسها. فلقد باتت الوزارات، مثلاً، "حكراً" للوزير المعني وحزبه وعائلته. ومن هنا، يأتي الحديث عن بيع وشراء المناصب الكبيرة، ومن هنا أيضاً شكاوى رؤساء الحكومات، أحياناً، من افتقادهم سلطة ما على وزرائهم الذين يأتمرون بأوامر أحزابهم فقط. ومن هنا الحديث المتواتر عن اغتناء الأحزاب نفسها. ومن هنا يمكن أن تستمر هذه الاستطرادات والاستشهادات. وإذا كان هذا يحدث في العاصمة بغداد، حيث البرلمان ووسائل الاعلام والصحافة المحلية والأجنبية ودوائر النزاهة والتفتيش وسفارات العالم، فيمكن تخيل كيف يمكن أن يكون عليه الحال في المحافظات (التي أُلغيت مؤخراً مجالسها وعادت السلطة فيها للمحافظين، كالسابق). المقصود أن طابع الحكم القائم على المحاصصة، بعيداً عن أسس الكفاءة والحق في تكافؤ الفرص، هو الذي أتاح للنخبة الحاكمة التنعم بموارد البلاد والعيش بمستوى رفيع واستثنائي ومتنفذ.

والاسباب هذه هي نفسها ما يقف وراء المستوى المعيشي الذي صارت تتمتع به فئات أخرى ورِدتْ في المتن، أي فئات التجار والمقاولين - المجّهزين والمصرفيين، وإلى حد ما الصناعيين والزراعيين أيضاً.

لا شك في أن لوحتنا هذه للفئات الميسورة عامة جداً، وتبسيطية، وينقصها الكثيرُ من التفاصيل والأرقام والأسماء.

أملي أن أستكمل ذلك عن قريب، وكذلك دراسة الفئات الأخرى المكّونة لمجتمعنا العراقي، التي يمكن أن تضم الفئات الوسطى، والفئات الفقيرة، والفئات المعرضَّة للفقر من الفئات الوسطى نفسها.

*** هذا المقال هو تطوير للمداخلة التي قدمها الدكتور حسن عبد الله بدر في الندوة التي اقامتها مجلة (الثقافة الجديدة) يوم 12/شباط/2021 ونشرت مواد الندوة ضمن العدد 419 – 420/اذار 2021.**

الهوامش والمصادر:

1. د. علي خضير مرزا "قضايا إقتصادية في العراق 2003-2020: الهيكل الانتاجي، السياسات المتبعة والأزمات الحالية"، نيسان 2020، الجدول 5 عن تكوين رأس المال الثابت، ص 39-29. المقالة متاحة على موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين: Merza_Economic_Issues_Iraq_2003-20
2. من بيانات اللجنة المالية البرلمانية، وتصريحات متكررة لرئيستها السابقة د. ماجدة التميمي.
3. محمد توفيق علاوي في صفحته الإلكترونية في فترة حكم د. حيدر العبادي، وكذلك في أحاديث متكررة له عن البنك المركزي العراقي
4. الدكتور أحمد ابريهي علي: "الاقتصاد العراقي وآفاق المستقبل القريب"، تموز 2011 ص 4 http://iraqieconomists.net/ar/2011/07/07
5. "أصبحت قيادات الحشد الشعبي تمتلك عقارات وأسواق بعد أن كانوا لا يملكون شيئاً.. وأن تعداد الحشد الشعبي (60) ألف شخص، ولكنهم يقبضون رواتب (150) ألف شخص"، الدكتور حيدر العبادي، رئيس الوزراء العراقي الاسبق، وهو من قيادات حزب الدعوة الذي كان على رأس جهاز الحكم في معظم الفترة بعد 2003.
6. أثناء مناقشات موازنة 2021، كان هناك طلب رسمي من الحشد الشعبي بجعل مرتب منتسبيه (جنوده) مليون و (450) ألف دينار، وذلك إسوةً بمرتب أمثالهم في القوات المسلحة.
7. د. حسين أحمد السرحان: إستراتيجية التخفيف من الفقر 2022-2018"، مركز الفرات للتنمية والدراسات، 2019. النسبة المذكورة هي المتوسطة على مستوى العراق. أما النسب الفعلية في بعض محافظات الوسط والجنوب، فتصل إلى حوالي 50-40 بالمائة، بحسب المصادر الرسمية. متاحة على: https://pulpit.alwatanvoice.com/content
8. د. عماد عبد اللطيف سالم: الفساد في العراق: من البُنْيَة إلى الظاهرة: محاولة للخروج من الحلقة المفرغة للاستدامة (1974 - 2015)، 2016. متاحة على الرابط التالي: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=535144
9. نفس المرجع السابق
10. د. همام الشماع، في ندوة تلفزيونية مع اقتصاديِّن عراقيِّن، أواخر شهر ك 2، 2021 (الفيديو متاح في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين)
11. نفس المصدر السابق.
12. د. علي خضير مرزا، المصدر السابق، الجدول 9 ص 39-31 وكذلك: د. صالح ياسر "الاقتصاد العراقي.. محنة الحاضر.. ورهانات المستقبل"، الجدول 9، ص 26، تموز 2016 http://iraqicparchives.com/index.php/sections/objekt/45419-2016-07-13
13. أنظر الهامش رقم (7)
14. لا تتيسر لي أرقام عن حجم المستحقات الضريبية ودورها في تمويل نفقات الدولة، ولكن مسودة الموازنة للعام 2021 تتضمن إيرادات غير نفطية تصل إلى ما نسبته 22 بالمائة من مجموع النفقات، وهي تتمثل في الرسوم الكمركية، وحصة وزارة المالية في أرباح الشركات العامة، والضرائب على الدخول، والضرائب السلعية المحددة كالضرائب على السكائر والتبغ والمشروبات الروحية، والسيارات، والهاتف النقّال، والطيران الخارجي والداخلي، وعلى المشتريات والخدمات المقدَّمة في الاسواق الكبرى والمولات. وفي حالة تعديل المسودة باتجاه تقليل النفقات، فربما تزيد حصة هذه الايرادات في مجموع الايرادات. وهذه خطوة في الاتجاه المطلوب من ناحية جباية مستحقات الدولة. وهذا القول يرد فقط في حالة جباية هكذا ايرادات بالفعل بحيث يتحقق، سويةً مع ذلك، شيء من العدل الاجتماعي في تحمل الأعباء، وكذلك درجة من حضور الدولة وإستعادة هيبتها المفقودة. ثمة ملخص وافٍ لتلك الموازنة في: الدكتور نبيل المرسومي: "موازنة 2021 بين الهدر والاصلاح"، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين، ك2، 2021، ص 7 http://iraqieconomists.net/ar .

وبخصوص تحصيل الرسوم على الهاتف النقّال: فما أسمعه عن أهمية هذه الرسوم يصل إلى حد مقارنتها بدور عوائد النفط في تمويل رواتب الجهاز الاداري الكبير ومدفوعات من يتقاضون رواتبهم من الدولة بمن فيهم المتقاعدين؟

15. الدكتور أحمد ابريهي علي: "الاقتصاد العراقي وآفاق المستقبل القريب"، تموز 2011 ص 3.
16. المصدر السابق، ص 3-2.
17. الدكتور صالح ياسر: "ملاحظات أولية حول بعض الفئات المهيمنة في عراق ما بعد 2003"، الثقافة الجديدة، العدد 382، أيار 2016، ص 20. https://tareeqashaab-archives.com/images/altheqafealjededе/382.pdf
18. المصدر السابق ص 19.
19. "حجم الاقتصاد العراقي، خارج القطاع النفطي، لا يبرر وجود 54 مصرفاً تعمل في السوق العراقية في وقت تهيمن فيه المصارف المملوكة للدولة، وعددها 7 مصارف، على 90 % من موجودات القطاع و81%،3% من الودائع..": موفق حسن محمود: "القطاع المصرفي العراقي واقعه كيف النهوض به"، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2016، ص 7. علماً بأن عدد المصارف الآن أكثر مما كان سنة 2016. http://iraqieconomists.net/ar/2016/01/28
20. الدكتور أحمد ابريهي علي: "التنمية والتمويل في العراق عام 2014 وآفاق المستقبل"، نيسان 2014 ص 15، 30. http://iraqieconomists.net/ar/2014/07/14
21. "أكثر من 50 ألف مشروع متوقف.. هل تستعيد الصناعة العراقية عافيتها بعد خفض قيمة الدينار؟" مقابلة مع رئيس اتحاد الصناعات العراقي، علي الساعدي، بين آخرين، في قناة الجزيرة بتاريخ 2/1/ 2021. المقابلة متاحة على الرابط التالي: https://www.aljazeera.net/ebusiness/2021/1/2
22. الدكتور صالح ياسر: "ملاحظات أولية حول بعض الفئات المهيمنة في عراق ما بعد 2003"، الثقافة الجديدة، العدد 382، أيار 2016، ص 20.
23. الدكتور أحمد ابريهي علي: المصدر السابق، ص 14.

الإعلام باعتباره ميداناً للصراع الطبقي
شبكات التواصل الاجتماعي أنموذجا

أحمد محمد الموسوي

أحمد محمد الموسوي، بكالوريوس آداب/ فلسفة، مؤسس ورئيس تحرير مجلة "الشرارة" النجفية خلال الفترة 2005 – 2009. كما انه مؤسس ورئيس تحرير مجلة قراطيس، (مجلة ثقافية صدر منها أربعة أعداد بين عامي 2010/ 2011). والموسوي كاتب وقاص، وعضو الهيأة الإدارية لاتحاد الأدباء والكتاب في النجف الأشرف، وناشط مدني ومناصر لحقوق الإنسان وقضايا المرأة ومساهم فاعل في الحركة الاحتجاجية المدنية في العراق.

قبل الخوض في التفاصيل، وهي (مكمن الشيطان) كما يقال، يتوجب علينا توضيح الآتي:

- ترتكز المؤسسات الإعلامية بشكل عام على ركيزتين أساسيتين، هما (البناء المادي التحتي: وهي الوسائل الإعلامية المتاحة) و(البناء الفوقي: ويضم العاملين + ما يعرف بالخطاب الإعلامي، أو محتوى الخطاب الإعلامي)، وواضح أن الثانية هي شغل الأولى أو ما يتوجب عليها أن تصدره، وأن الأولى هي ما تنتجه الثانية، وأن العلاقة فيما بينهما هي علاقة جدلية مترابطة، فالخطاب يسهم في خلق الجمهور وتشكيل وعيه، مثلما الجمهور -المتخصص منه بالذات - يسهم في خلق الخطاب... وكلما زادت جودة البناء التحتي أصبح من اليسير تصدير الخطاب وشيوعه، وكلما كان الخطاب أصيلاً وكان ناقلوه احترافيين، سهلت كذلك عملية تصديره أو نقله للجمهور العام. ولذلك رأينا كيف شهد العراق عمليات التصفية الجسدية للإعلاميين والمشتغلين بالحقل الثقافي التوعوي من المدنيين، إضافة إلى عمليات الترغيب والترهيب لضمان اقصاء أو تحييد بعضهم أو كسبهم لهذا الطرف أو ذاك، كما راقبنا مراراً الاعتداءات على العديد من المكاتب والمؤسسات الإعلامية لغرض تخريبها.

- إن (الرأي العام) باعتباره شكلاً من أشكال الوعي الاجتماعي ما هو إلا نتاج للحياة المادية الاجتماعية بحسب ماركس (الوعي انعكاس للمادة، أو انعكاس للواقع الاجتماعي).

- ولكن يحدث أن تقوم الطبقة المهيمنة،

بفعل احتكارها لوسائل الإعلام في التشكيلة الاجتماعية، بالتعمية على الوعي الطبقي للطبقات المهيمَن عليها وتضليلها، لخلق وعي مدجن أو رأي عام مغاير ومعارض في نتائجه النهائية للمصالح الطبقية لتلك الطبقات، فيتبنى بعض العمال أو الفلاحين – مثلاً، وهم لا يعلمون- خطاباً يضر بمصالحهم ويصب في مصلحة نقيضهم الطبقي من البرجوازيين أو الاقطاع، وهم يصطفون بذلك مع أعدائهم غافلون وراضون في الوقت نفسه... ولكن كيف يحدث ذلك؟ هنا يتوجب البحث.

- لقد شكّلت الثورة المعلوماتية وشبكة التواصل الاجتماعي (السوشيل ميديا) في بداية القرن الحادي والعشرين انقلاباً حقيقياً في المعادلة فأطاحت تدريجياً باحتكار الطبقات المهيمنة لسلطة الاعلام (التي سنسميها بعد ذلك الإعلام السلطوي أو اعلام السلطة)، وأتاحت الفرصة واسعة أمام المهمشين والمستغَلين (بفتح الغين) لانتزاع المبادرة بصناعة وتصدير وعيهم الخاص وآرائهم التي تمثل مصالحهم عن طريقها وبقوة، خصوصاً بعد تراجع وسائل الإعلام الكلاسيكية، الورقية والاذاعية والفضائية، فكان أن غادرت معظم المجتمعات –ومنها المجتمع العراقي- حقب الرقيب الفكري والعقائدي (لجان السلامة الفكرية في عهد البعث مثالاً) أو ما يسمى في مؤسسات الإعلام بحارس البوابة، لتدشن عهداً جديداً للإعلام ينفتح فيه على الفرد بصفته وبكيانه الشخصي، ويجعل منه مؤسسة اعلامية متكاملة تمارس انتاج الخطاب، وتلقّيه في آن واحد، وهي لا تحتاج إلا إلى شاشة مضاءة ولوحة مفاتيح عاملة، وما توفره شبكة التواصل ذاتها من معلومات، وسنسمي هذا النمط من الإعلام بـ(الإعلام الشعبي) الذي من المفترض به أن يكون المعبر عن الطبقات المهيمن عليها، ورافعة لخطابها فيما إذا لو أُتقنت ادارته.

- في المقابل تبقى هذه الوسائل الحديثة متاحة أيضاً أمام الإعلام السلطوي يضيفها إلى قدراته الأخرى وبإمكانات مادية أكبر ومن خلال حشد أنصاره أو من يستطيع شراءهم لتنفيذ ما يطلبه منهم.

من كل ما تقدم، نستطيع القول إن الطبقات المهيمن عليها استطاعت من خلال ثورة المعلوماتية والتواصل الالكتروني أن تلج عالم الإعلام وصناعة الرأي العام - ولو من باب ضيق - قياساً لإمكاناتها المتاحة، ولكنها لم تحسم قضية غلبة الطبقات المهيمنة على هذه الوسائل تبعاً للإمكانات المتاحة لها أيضاً.

لذلك نستطيع قول التالي:

- أصبحت وسائل الإعلام، والسوشيل ميديا بالخصوص، ميداناً واسعاً للصراع الطبقي متاحاً لطرفي الصراع بعد أن كان الإعلام بصيغته التقليدية أداةً بيد الطبقة المهيمنة تحتكرها وتمارس بث خطابها التضليلي من خلاله، وتحرم الطبقات الأخرى منه بقوة التشريعات مرة وبالقوة الغاشمة مرة أخرى، فتلجأ العديد من الحركات والأحزاب المعارضة إلى الوسائل السرية في الترويج لخطابها (فيما كان يعرف بالإعلام السري) وهو في معظم الأحيان يكون محدود التأثير إذا ما قيس بإعلام السلطة.
- بالمقابل بقيت المشكلة في الإعلام

الشعبي قائمة في إدارة المنصات الإعلامية وكيفية توجيهها من خلال قلة الموارد البشرية الاحترافية التي تمتلك الوعي الطبقي، القادرة في الوقت ذاته على صياغته بقوالب جاذبة لنشره بين الجمهور.

الخطاب الإعلامي لأحزاب السلطة في العراق بعد العام 2003... الطبيعة والتحليل:

منذ البداية، أي بعد نيسان 2003 حرصت سلطة الاحتلال والأحزاب الطائفية المؤتلفة معها – التي شكلت السلطة - من خلال وسائل إعلامها المختلفة على اخفاء جوهر الصراع في المجتمع العراقي، وتزييف هوية التناقض الرئيس فيه الذي كان ومازال فاعلاً ومتجلياً بين الممسكين بثروات البلد الريعية (وهم القابضون على السلطة)، وبين الطامحين لتوزيعها عليهم بعدالة اجتماعية، وهم غالبية الشعب. ولتحقيق ذلك قام إعلام السلطة بخلق وتضخيم تناقضات وهمية أو ثنائيات اجتماعية لإشغال الرأي العام فيها بعيداً عما يحدث من سرقة وتراكم لرأس المال الوسخ بيد الاحتلال وذيوله من الفاسدين والمتنفذين المهيمنين على صناعة القرار السياسي والاقتصادي... ونستطيع لذلك أن نرصد الصور الآتية لفهم طبيعة هذا الخطاب ومحاولة تحليله:

- إشاعة الثنائيات الزائفة في المجتمع العراقي، ومن هذه الثنائيات ما عرف في حينها بـ (عراقيي الداخل وعراقيي الخارج) حيث كان الخطاب الإعلامي للسلطة وأحزابها يركز على تخوين (الداخل) بالكامل واحتسابهم على حكومة البعث على الرغم من أن قطاعات واسعة منهم كانت من ضحاياه وهي شبه أسيرة له، إن لم تكن كذلك بالفعل، وذلك لإتاحة الفرصة أمام العناصر الحزبية التي كانت في الخارج وعادت بعد سقوط الديكتاتورية للهيمنة وجني المكاسب لأحزابهم كونهم من (الثقات)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لجعل الولاء للحزب المعني شرطاً لدخول عراقيي الداخل في اللعبة... هذه الثنائية الزائفة أو هذا التناقض الوهمي كان المقصود منه شرعنة السطو على مقدرات الدولة، بحجة أنها ملك للنظام السابق يستحقها المعارضون له فقط، وليست ملكاً للعراقيين، لأنهم ببساطة متهمون بتبعيتهم للنظام السابق كونهم من (الداخل)، هكذا بدون تمييز، فكان أن تمت سرقة ومصادرة العديد من الممتلكات المادية والعينية وشراء الذمم والولاءات بالتهديد والترهيب، إضافة إلى احتكار السلطة والمناصب وادارة الدولة بشكل عام حتى أصبح من النادر أن تجد مسؤولاً رفيعاً من (عراقيي الداخل)، وإن وجدته فهو ممن قدم فروض الولاء والطاعة لأحد أحزاب السلطة ليدخل اللعبة. وكانت استباحة المال العام وشرعنة نهبه والتغانم عليه من كل الأطراف واحدة من نتائج هذا الخطاب.

- انما قدمت هذه الاشكالية على اشكالية (الصراع الطائفي والقومي) لأنها برأيي تمهد إلى مسألة غاية في الأهمية بخصوص جني أرباح هذا الصراع... فالصراع الطائفي اعتمد بالدرجة الأساس على التشكيلة الحزبية لغالبية أحزاب المعارضة في المهجر التي كانت عبارة عن أحزاب طائفية شيعية وأحزاب قومية كردية حتمت

على الأحزاب القومية العربية أن تكون أحزاباً سنية أيضاً، (وكتلة إياد علاوي مثال عن ذلك)، وربما دفع البعث المنحل بعد سقوط دولته إلى ذلك كمحاولة منه للتستر بالطائفة، منفلتاً من قانون الاجتثاث وحظر النشاط السياسي للبعث... ولأن زعماء الطائفة هم قادة الأحزاب الطائفية بالضرورة، وأن هؤلاء القادة هم من (الخارج)، والشيعة منهم بالتحديد كانوا في ايران، وهم مدعومون منها ومرتبطون بها بشكل أو بآخر، وولاؤهم لها، لذلك فقد ارتبط الشيعة بإيران مثلما ارتبط السنة بالمحيط العربي السني، كردة فعل واستجابة للصراع الاقليمي العربي – الإيراني... من جانبه انتهز الإعلام العربي من خارج العراق هذه الفرصة – فرصة غياب الإعلام الوطني - ليملأ الفراغ بخطاب مماثل زاد من شدة الاحتقان الطائفي وتأجيج أوار الصراع الذي أكل أخضر العراقيين بسعير يابسهم.

- ومن باب التشخيص العلمي نستطيع القول إن الصراع في المجتمع العراقي بعد سقوط صدام، كان بين القوى الكومبرادورية الطفيلية – والعديد منها هو من قوى المعارضة في زمن حكم البعث التي ارتبطت بشكل أو بآخر بسلطة الاحتلال وبنت اقتصاداً ريعياً، استحوذت فيه على مكامن الثروة في البلاد واتخذت المحاصصة الطائفية بين المكونات الاجتماعية، والمحاصصة الحزبية بين الأحزاب المهيمنة داخل الطائفة الواحدة نهجاً لها في تقاسم الغنائم أو الكعكة، كما كان يحلو لكثير منهم تسميتها - وبينها جميعاً وبين قوى الشعب الكادحة المتضررة التي بقيت تعاني مشاكل الفقر والبطالة ونقص الخدمات وغياب الأمن...الخ، بل وتفاقمت هذه المشاكل وتعمقت في الواقع الاقتصادي والاجتماعي الى أن غدت اشكاليات عصية على الحل ومرتبطة بنيوياً مع جذر النظام الطائفي المحاصصاتي الحاكم.

- ولكن هل كانت هذه الصورة واضحة وجلية للرائي والمراقب عن بعد، أو للمواطن المكتوي بنارها؟

- الجواب أكيد (لا)، لم تكن الصورة واضحة.

- لماذا؟

- لأن اعلام السلطة (الطائفي) المستفيد من الواقع السيئ، نجح برسم صورة نمطية جامدة، مأخوذة من زاوية واحدة للصراع السياسي والاجتماعي ما بعد 2003، معبراً عنه وموهماً الجمهور المهيمَن عليه طائفياً على أنه فقط صراع ما بين بقايا البعث الصدامي المحظور وبين "النظام الديمقراطي" الجديد، وأن هذا الصراع بالأصل هو صراع طائفي اجتماعي يستحضر التاريخ من جهة، باعتباره ميداناً للاختلاف والتناحر، متناسياً الواقع المعاش ومبتعداً عنه، بل ومحيلاً إياه في صورة أخرى إلى التاريخ. ومن جهة أخرى، يستلهم الفقهَ كميدان نظري لهذا الصراع، مستبعداً بذلك البرامج السياسية والاقتصادية التي من المفترض أن يتبارى من خلالها المتنافسون في النظم الديمقراطية، وساعدهم على ذلك ضعف اعلام القوى الوطنية والمدنية واليسارية المعارضة للنظام الطائفي، بل وغيابه – أي هذا الإعلام – في بعض الأحيان، أو مجاراة بعضه لهذا النهج في بناء الدولة

ونظام الحكم من خلال المشاركة السلبية المباشرة في المؤسسات السياسية الطائفية، هذه المشاركة التي خلطت الأوراق وأضاعت فرصاً مهمة لفضح الجهات الطائفية وليس سياساتها فقط. ومن جانب آخر فقد أسهمت قوة المؤسسات الاعلامية لأطراف الصراع الطائفي ـ سواء من الذين دخلوا في العملية السياسية أو من المؤسسات الاعلامية لبقايا النظام السابق ـ بإذكاء هذا الصراع وتأصيله في الذهنية العامة.

- في هذه اللجة غابت فكرة المعارضة الإيجابية في العملية السياسية، فكان المعارض متهماً بأنه من فلول النظام السابق أو من الإرهابيين أو من الاثنين معاً، (مثال على ذلك اتهامات حكومة المالكي للحركة الاحتجاجية المدنية التي انطلقت في 25 شباط 2011)، وبالتالي حتمت هذه الأجواء على أن يكون كل من في العملية السياسية هم من السلطة، حتى وإن كانوا خارجها، وكل من في داخل السلطة هم مع العملية السياسية حتى وإن كانوا ضدها، وتحكمهم في ذلك قواعد لعبة المحاصصة الطائفية والإثنية، فكان أن أصبح الكل في السلطة، والكل خارجها في الوقت نفسه. وكل يسعى لاغتنام (حصته) باسم الطائفة التي يمثلها، أو يدعي تمثيلها بالتعبير الأدق.

- إنما رسّخت هذه الخارطة في الذهنية العامة بسبب غياب الصوت الإعلامي للمعارضة الوطنية وتشتته وضعفه أمام تسيد إعلام السلطة الطائفية بشقيها، إذ دشنت الأحزاب الطائفية بمختلف مسمياتها العشرات من الفضائيات والإذاعات والصحف والمجلات... الخ، التي كانت تروج الصراع الطائفي وتغذيه، من العام 2003 إلى ما بعد العام 2010 حيث دخل آنذاك عامل جديد في اللعبة، وهو شيوع استخدام شبكات التواصل الاجتماعي في أوساط الشباب وخصوصاً المتضررين من نظام المحاصصة الطائفية، ليس في العراق فحسب، وإنما في العالم العربي عموماً حيث شهدنا في العام 2011 ما عرف بحركات الربيع العربي التي كان غذاءَها (الإعلامُ الشعبي) الذي أصبح بديلاً عن إعلام المعارضة وخصوصاً في العراق.

- على الرغم من أن تشكل الاعلام الشعبي بدأ مع ظهور شبكات التواصل الاجتماعي في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلا أن بزوغ نجمه كان في بداية العام 2011 مع تصاعد حركات الربيع العربي وانطلاق الحركة الاحتجاجية المدنية في العراق 25 شباط، التي طالبت بإصلاح النظام ومحاربة الفساد والمحاصصة وبناء الدولة المدنية الديمقراطية بشعارها المعروف (خبز، حرية، دولة مدنية). وهنا تكشّف الصراع وظهر بصورة جلية، إذ كما كانت لإعلام السلطة أدواته، أصبحت للإعلام الشعبي أدواته أيضاً التي يصدّر من خلالها خطابه مباشرة للجمهور وللعالم أجمع، فكانت حملات الترويج للفعاليات الاحتجاجية والإعلان عن شعاراتها والدعوات وحملات التضامن مع المعتقلين والمهددين والمتضررين تنجز بنسبة كبيرة من خلال صفحات الفيسبوك وتويتر وغيرهما من المنصات في شبكة التواصل الاجتماعي ليتطور الصراع الطبقي الاعلامي تدريجياً مع نمو هذه المنصات

أفقياً وعمودياً، بالكم والنوع، إلى أن خُلقت فضاءات ومساحات تنظيمية مهمة بواسطة (الكروبات)، المغلقة أو المفتوحة، فكان أن أصبحت عبارةً عن أطر تنظيمية للحركة الاحتجاجية يجري التباحث والتداول فيها على كل شيء. كما أنها أصبحت ميداناً للتثقيف وتداول المعلومة وبث الوعي بأشكاله المتنوعة... لذلك سرعان ما لجأت السلطة لترتيب أوراقها من جديد والدخول إلى هذا الميدان للمواجهة، فظهر لدينا ما يعرف بـ "الجيوش الالكترونية" للسلطة وأحزابها، بعد أن أصبح واضحاً أن سهم الاعلام الفضائي بدأ هو الآخر بالهبوط في سوق صناعة الرأي العام، ملتحقاً بشكل ما بالورقي والاذاعي. فالمواطن مع ثورة المعلوماتية ما عاد مقيداً أمام شاشة الـ TV بعد أن حررته أجهزة اللابتوب والتاب والموبايل منها، لتصبح تدريجياً الميدان الأول في صناعة الرأي العام وتحريكه، مثلما شهدنا ذلك في الموجات الاحتجاجية 2015 - 2018 وصولاً إلى انتفاضة تشرين 2019 التي بدا واضحاً فيها أن شبكات التواصل الاجتماعي، وبعد أن شاعت بين الجمهور أصبحت هي الإطار التنظيمي، السري والعلني، الذي يحرك الجمهور ويبني وعيه وينقله للعالم الذي أصبح بدوره قرية صغيرة... لذلك وفي مواجهة هذا الواقع اضطرت حكومة عادل عبد المهدي لأكثر من مرة أن تعطل شبكة الأنترنيت على الرغم من جسامة الخسائر الاقتصادية التي تكبدها الاقتصاد الحكومي والخاص جراء ذلك.

- ومع أن هذه الوسائل - كما قلنا سابقاً - متاحة وبشكل أكبر للسلطة، مما يجعلها في بعض الأحيان متسيدة فيها بحكم الامكانات المتوفرة لديها والقدرات اللامحدودة التي تملكها، إلا أنها في الوقت نفسه ميدان مشترك للصراع، أصبح فيها الجمهور العام لأول مرة فاعلاً وليس منفعلاً فقط، منتجاً وليس متلقياً فقط، ومكنته بالتالي من مقارعة خطاب السلطة بالسيف ذاته، ان جاز التعبير.

- ومثال على المبارزة الإعلامية هذه نستطيع أن نرصد ما كانت تروّجه "الجيوش الالكترونية" للسلطة وأحزابها للطعن بالحركة الاحتجاجية واستهداف ناشطيها، بدءاً من مصطلحات (البعثية والإرهاب، وداعش، وانتهاءً بالجوكرية والمخربين وأبناء السفارات !)، وفي المقابل وبالضد من هذه الاتهامات يمكننا أن نرصد مصطلحات (الذيول والفاسدين والقتلة وفرق الموت والظلاميين وقندهار والملثمين) وغيرها مما كان يتداوله الناشطون في وصف السلطة القمعية ورموزها الفاسدة، وهي دلالة أيضاً على انتقال الفعل لدى الجمهور من الدفاع إلى الهجوم، بعد أن امتلك مقود القيادة في الإعلام من خلال منصات التواصل الاجتماعي.

- وكان شيوع استعمال مفاهيم المدنية والمواطنة في الخطاب الاحتجاجي والشعبي بشكل عام، قد قاد إلى أن غدت هذه المفاهيم ثقافة عامة إلى الحد الذي اضطرت فيه الأحزاب الطائفية تبنيها في البرامج السياسية والانتخابية المعلنة لها، بل وتعدت ذلك في تغيير مسمياتها وعناوينها الانتخابية باتجاهها، وهي بحق من أهم الانتصارات التي حققها الاعلام الشعبي...

بعض صفات وميزات الاعلام السلطوي:

- منظم تنظيماً عالياً، ولا يخرج عن السياق المرسوم له إلا نادراً.
- مسيطر عليه ومقاد هرمياً بشكل مباشر.
- يستند الى قواعد ايديولوجية وعقائدية ومصالح حزبية وفئوية ضيقة.
- منحاز بالكامل إلى مصالح الطبقة الحاكمة.
- يمتلك قدرات مادية وبشرية هائلة.
- متنوع الوسائل والأساليب.
- يعتمد الخطاب الديماغوجي وتزييف الحقائق وطمسها.

بعض صفات وميزات الاعلام الشعبي:

- عفوي وقليل التنظيم، لذلك يكون عرضة للأخطاء والتشويش والتقاطعات والخروج عن المسارات المرسومة على قلتها.
- يمتلك قدرات بشرية كبيرة ولكنها قليلة التدريب وغير موحدة، أو لا تستطيع دائماً إنتاج خطاب موحد.
- قدرات مادية ضئيلة جداً، تعتمد على ما يمتلكه الأفراد أو المؤسسات ذات التمويل البسيط.
- بعيد عن تأثيرات الأيديولوجيات والعقائد، قريب من الحريات الفردية، لكنه مع ذلك قادر على إنتاج خطاب جمعي أحياناً بدالة المزاج العام.
- منحاز لقضايا الشعب والطبقات الكادحة.
- يعتمد الموضوعية لأنه يهدف إلى كشف الحقائق واظهارها وليس إلى طمسها أو تزييفها.

خلاصة القول:

- يعد بزوغ فجر شبكات التواصل الاجتماعي، بداية لكسر احتكار السلطة للإعلام.
- وتراجعت بسببها تدريجياً وسائل الإعلام التقليدية، وخصوصاً الورقية منها.
- ووفرت هذه الوسائل فرصة كبيرة ليكون المواطن صانعاً إعلامياً وناقلاً للخبر ومحللاً له، في الوقت ذاته الذي يمارس فيه دور المتلقي.
- وأتاحت له أيضاً فرصة أن يفلت من اسار إعلام السلطة بسهولة، أينما توفرت له البدائل الكافية.
- واستطاعت لذلك أن تفتح الإعلام ميداناً واسعاً للصراع الطبقي، ووفرت إمكانية أن يكون هذا الصراع لصالح الطبقات الكادحة.
- وكشفت أيضاً عن حاجة فعلية لتدريب الجمهور العام للطبقات الكادحة على فن إدارة هذه المنصات الإعلامية وبشكل منظم لتكون أغزر إنتاجاً وأمضى فعلاً.
- وسهل معها تنظيم الجماهير وزجهم في الفاعليات الاجتماعية والثقافية والسياسية بشكل أكبر.
- ومن النتائج الجانبية أيضاً أن بردت الأطر التنظيمية التقليدية – الحزبية وغير الحزبية - وصغرت دائرة اشتغالها بين الجماهير لصالح السعة والشمولية الاجتماعية التي تعمل من خلالها هذه المنصات، في مقابل أنها فتحت أيضاً آفاقاً رحبة أمام تلك الأطر التنظيمية التقليدية لتطور نفسها من خلالها.

الحزب الشيوعي العراقي ومعايير الحكم الصالح

د. محمد عامر حسن

د. محمد عامر حسن، مواليد بغداد 1979، حاصل على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية – جامعة بغداد عام 2002، وشهادة الماجستير – قسم السياسة العامة من معهد التطوير الكوري (KDI) – سيئول – كوريا الجنوبية عام 2013 وشهادة الدكتوراه في العلوم السياسية – الجامعة الاسلامية في لبنان – قسم العلاقات الدولية والدبلوماسية عام 2020. من ابرز الدراسات التي اعدها: غسيل الأموال واسترداد عائدات الفساد في العراق، تجنيد الاطفال في المنظمات الارهابية (الاساليب . الاسباب . الادوار والمعالجات)، مناهج داعش التعليمية (ديوان التعليم . المراحل الدراسية ومناهجها)، بيروقراطية داعش (توسيع السلطة . العمليات العسكرية . الدعوة . الحسبة والحوكمة)، أزمة النازحين في العراق (المشاكل.. الاستنتاجات والتوصيات).

عقد الحزب الشيوعي العراقي مؤتمره الأول (الكونفرس) في شباط/ فبراير 1945، وفيه أقّر الميثاق الوطني للحزب الذي تضمن مطالب شعبية عادلة ذات أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية أهمها يتلخص بما يأتي[1]:

1. النضال من أجل السيادة الوطنية.

2. النضال لإيجاد حكومة تعمل لمصلحة الشعب وجهاز حكومي لائق ونظام ديمقراطي صحيح يتضمن، برلمان ومجالس ادارة وبلدية ينتخبها الشعب، وتمثله حقا وإزالة القوانين والمراسيم والتعديلات التي لا تتفق وروح الدستور.

3. حل مشكلة التموين، بالضرب على ايدي المضاربين والمحتكرين بتوفير المواد الضرورية للشعب وتمكينه من شرائها بأثمان تتناسب ودخله.

4. النضال من أجل الدفاع عن مصالح العمال، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية، في سبيل تنظيمهم وتأهيلهم لممارسة دورهم عبر نقاباتهم، وسن قوانين تحمي مصالحهم واحترام وتنفيذ قانون العمل رقم (72) المعدل، وتوسيع ما جاء به من حقوق وتوفير ضمان اجتماعي يقيهم عوز البطالة والشيخوخة، والنضال المستمر ضد تصرفات أصحاب الأعمال الكيفية واستبداد السلطة بهم.

5. توسيع نطاق التعليم لأبناء الشعب

من كلا الجنسين وبدون تمييز في القومية والمركز الاجتماعي وترقية الحياة الاجتماعية والرياضة عند الشعب عن طريق النوادي والجمعيات العلمية والرياضة.

6. الدفاع عن المرأة كمواطنة ومساواتها بالرجل في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

7. ايجاد مساواة حقيقية في الحقوق للأقلية القومية الكردية مع مراعاة حقوق الجماعات القومية والجنسية الصغيرة كالتركمان والارمن واليزيدية.

8. النضال من اجل الصداقة والتعاون السياسي والاقتصادي والثقافي مع الشعوب الديمقراطية, لتأسيس علاقات دبلوماسية متينة ومتميزة.

9. تقوية التنظيمات الشعبية وتوحيد جهودها، من أجل رفع مستوى الشعور الوطني، وممارسة الحريات الديمقراطية كافة، ورفع مستوى الشعب الاجتماعي والاقتصادي والصحي والثقافي، والنضال ضد التيارات والمفاهيم المغرضة، وأساليب الحكم الاستبدادية اللاديمقراطية.

10. التعاون الاقتصادي بين الاقطار العربية من اجل المحافظة على ثروات بلادنا وتنميتها واستخدامها لرفع مستوى البلاد العربية الصناعي والزراعي تحقيقاً لسعادة ورفاه شعوب البلاد العربية.

"هذا هو ميثاقنا الوطني, هذا هو دستور مرحلتنا الحالية، نقدمه لكل مواطن شريف يحب وطنه وشعبه، ومن اجل هذا ندعو كل مواطن شريف إلى النضال لتحقيقه" [2].

وفي هذا الميثاق نتلمس بوضوح الاهتمام الكبير بمعايير الحكم الصالح في ما يتصل بالعمال والفلاحين والاقليات والمرأة وغيرها

[3] وطبقا لمقررات مؤتمر الحزب الشيوعي العراقي السابع عام 2001، أقر الحزب ميثاقاً وطنياً اخر، وأبرز ما أكد عليه الاتي [4]:

1. إزالة آثار وعواقب الدكتاتورية الداخلية والخارجية.

2. اعمار البلاد وإعادة بناء الاقتصاد الوطني.

3. حماية الطبقة العاملة والشغيلة عموما.

4. تطوير القوى المنتجة في الريف عن طريق تشجيع الاستثمارات الصغيرة والمتوسطة الخاصة والمختلطة والحكومية الكبيرة، وحماية العمال الزراعين.

5. تأمين الرعاية الصحية المجانية وإعادة النظر في التعليم والعناية بالثقافة وتحفيز نموها.

6. الإسهام في نضالات القوى والفعاليات السياسية والاجتماعية اليسارية والتقدمية والديمقراطية في سياق حركة اممية ديمقراطية النهج والأطر والأساليب من أجل التقدم والعدالة الاجتماعية.

وعند تغيير النظام السياسي العراقي عام 2003، اختار الحزب الدخول في الترتيبات السياسية التي انشأت عقب احتلال العراق، فكان احد الاحزاب التي اشتركت في مجلس الحكم، وأسهمت في تشكيل الحكومة [5].

وفي مرحلة ما بعد 9 /4 /2003، لم يخف الحزب الشيوعي العراقي موقفه الرافض للاحتلال وقواته، لأنه يرى أن ذلك الوضع قد حقق الهدف الذي تنشده القوى السياسية العراقية المتمثل بإسقاط النظام الديكتاتوري الشمولي، واصبح وجودها لا مبرر له. ويلخص سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حينذاك (حميد مجيد موسى) موقف الحزب بالقول "اننا

نعتبر التواجد الامريكي احتلالاً لنا، لكننا في الوقت الحاضر لسنا بحاجة إلى جدال متضارب بصدد ما اذا كان ذلك احتلالاً او تحريراً او شيئاً آخر، المهم ان دور الامريكان في هذا الشأن قد انتهى، وأنهم حققوا مآربهم. والآن يجب العمل على سحب القوات الأمريكية من العراق ويجب أن يتم ذلك بأسرع ما يمكن" [6].

وعليه، ظل الحزب يؤكد أن الاحتلال الأمريكي له غايات ومصالح تمتزج مع تطلعات المعارضة العراقية التي كانت تبغي التخلص من النظام العراقي، أما المقاومة فهي بنظر الحزب ليست "مقاومة وطنية" بموجب مبررات عدة. ويقول في ذلك (رائد فهمي) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في حينه، إن الاحتلال الأمريكي يمسك "بأوراق عديدة ويتحكم بعامل الزمن، وهدفه إعادة هيكلة العراق ليندمج بنفطه الهائل في السوق العالمية تحت رعايتها، وليكون سنداً لها في المنطقة، وما الحرب والوجود العسكري والاحتلال إلاّ وسائل لتحقيق هذه الغاية" [7].

وفي المؤتمر الوطني السابع للحزب لعام 2001 أقرت، مبادئ بناء تنظيم الحزب ونشاطه الوارد في البرنامج والنظام الداخلي، مؤكداً ان الحزب هو اتحاد طوعي لمناضلين، تجمعهم الماركسية ويكرسون طاقاتهم لقضية الطبقة العاملة وسائر فئات الشعب، وأهدافها في تأمين التطور الديمقراطي الحر والمستقل للبلاد، ولتحقيق التحولات الاجتماعية وصولاً إلى الاشتراكية فيها. وعلى وفق أدبيات الحزب، فانه يؤمن بإطلاق الحريات الديمقراطية، وأهمها، حرية التنظيم الحزبي والسياسي والنقابي والمهني والاجتماعي والنشر والصحافة والتعبير عن الرأي والاجتماع والتظاهر والاضراب، وحق الافادة من اعلام الدولة من جميع التيارات والأحزاب السياسية، واحترام العقائد الدينية ودور العبادة [8].

وعلى وفق أدبيات الحزب، فان تطور نضال الطبقة العاملة والشعب العراقي وحركته الوطنية والديمقراطية، استلزم قيام الحزب الشيوعي العراقي. فالحزب الشيوعي نشأ استجابة لهذه الضرورة في العراق، فهو حزب الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين، أو كما تسميهم أدبيات الحزب بـ(شغيلة اليد والفكر). لذا لا غرابة أن يكون نضال الحزب مكرساً ضد الاضطهاد السياسي والقومي، وضد الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي. ومن اجل التحرر الوطني واقامة المجتمع الديمقراطي، وتحقيق التقدم الاجتماعي وبناء الاشتراكية في العراق [9].

ويسترشد الحزب الشيوعي العراقي في سياسته وتنظيمه ونشاطه بالماركسية، ويسعى من أجل تطبيق هذه السياسة على ظروف العراق السياسية والاقتصادية، يستقي ويغني ثروته الفكرية من منابع الحضارة الإنسانية، وكل ما هو نافع في أفكار وتجارب الأحزاب الشيوعية والعمالية، والحركات والتنظيمات الوطنية والديمقراطية والاشتراكية المختلفة، ويستلهم ويتبنى ويحفز كل ما هو اصيل في مجال العلم والثقافة الوطنية بصورة عامة [10]. كما يسعى الحزب إلى إعادة بناء الاقتصاد الوطني على وفق "الأولويات التي تمس حياة المواطنين وحماية سائر المنتجين، وصياغة سياسة اقتصادية ترتكز على تحقيق تنمية متوازنة ومستقلة للاقتصاد الوطني بالاستناد في الاساس إلى دور الدولة

والقطاع العام في تنظيم النشاط الاقتصادي وتطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية في إطار عملية شاملة تستهدف تطوير القوى المنتجة وتحقيق تحولات ديمقراطية في المجتمع وتشجيع القطاع التعاوني وتوسيع القطاع المختلط ودعم النشاطات المنتجة والخدمية للقطاع الخاص، وادخال منجزات الثورة العلمية التكنلوجية في عملية البناء، وضمان التوزيع الجغرافي للمؤسسات الانتاجية والخدمية في جميع مناطق البلاد دون استثناء، وبما يقلل من الفوارق الكبيرة بين العاصمة وبقية المدن" [11].

وعبر السياسات الاقتصادية، يسعى الحزب الى حماية الطبقة العاملة بإصدار التشريعات الخاصة بقوانين العمل والتنظيم النقابي والمهني وحماية حقوقها ورفع مستواها المعيشي والدفاع عن مصالحها الاقتصادية والاجتماعية. كما يهدف الحزب الى تعديل قانون الاحوال الشخصية بما يتماشى والغاء التمييز بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية والمدنية والشخصية والارتقاء بدور ونشاط وحياة الشبيبة والطلبة ودعم حقوقهم الديمقراطية في التنظيم الطلابي والشبابي. ويحترم الحزب الشيوعي العراقي الأديان وتعددها في العراق، ويولي دور العبادة القدر ذاته من الاحترام، ويبدو ان هذا التحول الذي طرأ على موقف الحزب من مسألة الدين، يعود الى اعتقاد الحزب بأن الشعب العراقي متشرب بالثقافة الدينية. وعليه فمن الصعب الولوج الى الشعب العراقي عبر بوابة تبتعد عن الدين أو لا تتفق معه، فضلاً عن طبيعة المرحلة السياسية الحافلة بالأحزاب ذات التوجه الديني التي جعلت الحزب ملزما نوعاً ما بالتفاعل والحوار معها. إن الحزب الشيوعي العراقي يعتمد على الاشتراكية الماركسية بوصفها واحدة من اهم مرتكزاته الفكرية، فهو يؤكد خياره الاشتراكي لبناء المجتمع في المستقبل وذلك ادراكاً منه لواقع أن التطور الرأسمالي لن يحل أزمة المجتمع [12].

وفي ذات الوثيقة، لم يقتصر اهتمام الحزب بالديمقراطية السياسية، بل أولى اهتماما كبيرا أيضا لتحقيق العدالة وتوفير الضمانات الصحية، والتعليم المجاني، ومحاربة الفقر، والبطالة الى جانب المساواة على وفق مبدأ المواطنة، واحترام التنوع القومي والديني وحرية المرأة وتفعيل مشاركتها في المجتمع وفي السلطة السياسية [13].

وعلى الرغم من أن الديمقراطية السياسية ومرادفاتها العملية اصبحت الشغل الشاغل للحزب الشيوعي العراقي في صياغة برنامجه السياسي المقر في المؤتمر الوطني السابع 2001، بيد أن الحزب ظل يرى أن الديمقراطية، لا تستقيم من دون معايير، وهي أي الديمقراطية، ليست انتخابات وحسب بل هي حريات وحقوق إنسان ومؤسسات ودولة قانون ومشاركة وطنية في الحوار الوطني [14].

وقد تأكد التوجه الذي يربط الديمقراطية بمعايير صالحة للحكم في أدبيات ومواثيق المؤتمر الوطني الثامن للحزب الشيوعي العراقي عام 2007، إذ يؤكد الحزب أنه حزب ديمقراطي في أساليب نضاله، ويرفض التطرف والتعصب والعنف والإرهاب، ويدعو إلى نبذها واستبعادها من الحياة السياسية واعتماد الوسائل السلمية والديمقراطية لحل المشكلات السياسية والاجتماعية وكفالة شرعية هذه الأساليب

بالدستور وقوة القانون واقامة دولة القانون والمؤسسات الدستورية والفصل بين السلطات واستقلال القضاء، وتفعيل مبدأ المواطنة ومساواة المواطنين كافة أمام القانون وضمان تمتعهم بحقوقهم [15].

وفي سياق تأكيد الحكم الصالح دعا المؤتمر الثامن للحزب إلى اطلاق الحريات الديمقراطية والسماح بعودة المهجرين والغاء قرار التهجير وضمان عودة الأكراد الفيليين وتعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم، والتمسك باحترام حقوق الإنسان، كما عبر عنها الاعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق الدولية المكملة له، وضمان حقوق الطفولة وحرية الثقافة والإبداع واحترام التعددية الثقافية والسياسية والقومية في الثقافة الوطنية [16].

وفي المؤتمر التاسع للحزب المنعقد للمدة 8 - 12 ايار 2012، فقد وردت اشارات لمعايير الحكم الصالح في أكثر من عشرة مواضع في برنامج الحزب؛ ففي توصيف الحزب لنفسه يرى بأنه "حزب ديمقراطي في جوهره، يعمل على إقامة نظام ديمقراطي أساسه التعددية الفكرية والسياسية والفصل بين السلطات والتداول السلمي للسلطة واحترام حقوق الانسان وضمان الحريات الشخصية والعامة واعتماد مبدأ تكافؤ الفرص وتأمين "العدالة الاجتماعية"، وبناء دولة القانون والمؤسسات، "الدولة الديمقراطية العصرية" [17]. ليؤكد أن تأمين العدالة الاجتماعية هي ركيزة من ركائز اقامة النظام الديمقراطي.

وفي مجال انحياز الحزب إلى عالم العمل وقيمته وإلى العاملين بسواعدهم وافكارهم، يرى الحزب "أن الدفاع عن مصالح الفئات الاجتماعية الاكثر تعرضا للتهميش والاضطهاد والاستغلال هو الطريق المفضي إلى العدالة" [18].

وفي نضاله من أجل عالم أفضل على الصعيد الدولي، يرى الحزب أنه من الضروري الإسهام في نضالات ومؤتمرات القوى والفعاليات السياسية والاجتماعية اليسارية والتقدمية والديمقراطية في سياق حركة أممية, ديمقراطية المنهج والاطر والاساليب، من أجل التقدم والوصول الى حكم صالح [19].

ولما كان جوهر بناء الاشتراكية يكمن في انهاء استغلال الإنسان للإنسان، فإن الحزب يستحضر حكم القانون والعدالة لأنه يدرك ان "انضاج شروط تحقيق الخيار الاشتراكي عملية نضالية طويلة الأمد؛ اذ يقوم خيارنا الاشتراكي على تحقيق العدالة، والديمقراطية الحقيقية المتكاملة، والتوزيع وفق مبدأ من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله" [20].

ويكرر الحزب في برنامجه لأكثر من مرة مطالبته بنظام عادل عالمياً وتوزيع واستخدام عادل للدخل والثروة، فهو "يناضل من أجل تثبيت القيم الإنسانية وحمايتها، ولإقامة نظام عادل للعلاقات الدولية" [21]، كما ويناضل من أجل تأمين توزيع عادل للدخل والثروة، وتنمية الموارد البشرية، والعناية بالفئات الاجتماعية الأكثر تضرراً و"حفظ حقوق المتقاعدين وتأمين حياة لائقة لهم، وضمان شمولهم جميعاً بقانون جديد موحد وعادل" [22]. ولأجل توفير ضمانات العيش الكريم للمواطنين وحمايتهم من الفقر والعوز يعمل الحزب على توفير ذلك بـ"الاستخدام العادل لثروات البلاد وعوائد التنمية"، وفي مجال الصحة ولغرض معالجة الوضع الصحي

لعموم الشعب، يشترط الحزب ضرورة "ضمان حق التأمين الصحي للسكان جميعاً, كجزء من منظومة الضمان الاجتماعي، واعتماد نظام عادل لتمويله"، وفي مجال الموارد المائية يسعى الحزب إلى "ضمان التوزيع الجغرافي العادل لها واستثمار المياه الجوفية". كما يسعى من أجل "عرض موضوع المياه على هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والإنسانية الاخرى لغرض الزام البلدان المتشاطئة بتلبية حقوق العراق العادلة" [23].

وفي حدود العلاقة ما بين السلام والأمن وكل ما هو عادل، فإن الحزب في مجال العلاقات الخارجية يسعى إلى "مواصلة النضال من أجل إرساء الأمن والسلم العادل في المنطقة واخلائها من القوات والقواعد والاساطيل الأجنبية, ومن أسلحة الدمار الشامل, النووية والكيماوية والجرثومية". وفي مجال الاتصالات يعمل الحزب على تحقيق مجموعة أهداف من بينها "اعتماد السلطة الاتحادية سياسة شفافة وعادلة في تنظيم الترددات" [24].

وفي التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني التاسع للحزب الشيوعي العراقي، الذي كتب تحت شعار "دولة مدنية ديمقراطية اتحادية... عدالة اجتماعية" [25]، تمت الإشارة إلى العدالة وحكم القانون واستطالاتهما العملية جميعاً والمتمثلة بمناهضة الاستبداد والتعسف والقهر والفساد والفقر والتمييز والبطالة والمحاصصة والإرهاب ومناصرة المساواة والفقراء والمرأة.

وقد اشترط الحزب وتبعاً لإيمانه العميق بدقة مبادئه، العديد من الثوابت في دخوله للتحالفات مع الأحزاب الأخرى [26]. إذ اشترط الاحترام المتبادل والمساواة والتكافؤ والاستقلالية الفكرية والتنظيمية، ورفض الوصاية أو الدور القائد، وضمان حق النقد العلني في إطار التعاون والتحالف والعمل المشترك وإشاعة أجواء المنافسة في إطار حوار الافكار والبرامج والشعارات والنشاط السياسي بين الأحزاب والقوى والتيارات السياسية والفكرية والاحتكام إلى آراء وإرادة الجماهير، وعدّ الديمقراطية والتعددية ودولة القانون وحقوق الإنسان مبادئ اساسية لأي تحالف، يكون الحزب طرفا فيه [27]. ومن أهم تلك التحالفات هو "التحالف المدني الديمقراطي"(*) الذي تشكل قبيل الانتخابات البرلمانية لعام 2014 الذي التزم في برنامجه الانتخابي بالعمل على "تحقيق مستلزمات الدولة المدنية الديمقراطية وبناء مؤسسات الدولة كافة واعتماد المواطنة والكفاءة والنزاهة اساسا لتلك المؤسسات، بعيداً عن المحاصصة الطائفية والإثنية".

وفي سياق معايير الحكم الصالح، يشير البرنامج إلى جملة قضايا اعتمدها الحزب الشيوعي العراقي في برامجه السياسية وأنظمته الداخلية لتعزيز مفهوم الحكم الصالح، ومن أبرزها [28]:

- في المحور السياسي، دعا البرنامج إلى العمل الجاد على تطبيق مبدأ سيادة القانون واستقلال القضاء والهيئات المستقلة, والتصدي لظاهرة الفساد السياسي والمالي والإداري, واحترام التنوع القومي والديني والثقافي واللغوي والتزام الدولة ومؤسساتها بقيم التعددية مع وضع الضوابط الامنية الحازمة لمنع التهجير والتغيير السكاني، واعتماد المهنية ومعايير المواطنة، اساسا

في بناء القوات المسلحة وقوى الأمن الداخلي بعيدا عن المحاصصة بمختلف اشكالها، وحصر السلاح بيد الدولة وحل الميليشيات وتفعيل المصالحة الوطنية، وحصر مهمة التحقيق بالسلطة القضائية وحل مشكلات المهجرين داخل العراق وخارجه، ومنح التعويضات المنصفة وحق العودة إلى الوظائف دون تمييز [29].

- في المحور التشريعي، اكد البرنامج استكمال تشريع القوانين المنظمة والمفسرة لعمل الدستور، ولا سيما قانون الاحزاب وقانون انتخابي عادل ونظام توزيع المقاعد وقانون حرية التعبير عن الرأي والتظاهر السلمي، وحق الوصول إلى المعلومات وتداولها، وإقرار القوانين ذات العلاقة لتحقيق العدالة وتعزيز الحريات، فضلاً عن ضرورة تشريع قانون العمل على وفق المعايير الدولية بما يحقق للطبقة العاملة ما تصبو اليه في رفع مستواها المعيشي وحقوقها في تنظيم نقاباتها واتحاداتها المستقلة [30].

- في المحور الاقتصادي، اشار البرنامج إلى توزيع العوائد المالية على اقليم كردستان والمحافظات توزيعا عادلاً وعلى وفق ما جاء به الدستور، وتفعيل قطاع الاسكان والإعمار وتمكين هذا القطاع من حل ازمة الاسكان الخانقة، ومعالجة المشكلات المترتبة عن وجود مجمعات العشوائيات السكنية والمتجاوزين على اراضي الغير، وخفض معدلات البطالة ومكافحة الفقر وتوفير الحياة الكريمة للشرائح الاجتماعية المتضررة (الارامل، الايتام، المتقاعدين وذوي الاحتياجات الخاصة) [31].

- وفي المحور الاجتماعي، دعا البرنامج إلى المساواة التامة للمرأة مع الرجل وتفعيل دورها في إدارة الشأن العام وتشريع القوانين التي تكفل مشاركتها في اتخاذ القرارات وتنفيذها، وازالة كل اشكال التمييز والعنف الاسري والتهميش في أوضاعها العامة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وايلاء الطفولة عناية خاصة وتفعيل مشاركة الشباب والشابات في ادارة الشأن العام وتوظيف طاقاتهم الكامنة في الابداع والعطاء والبناء [32].

- وفي محور الخدمات والبنى التحتية تضمن البرنامج العمل على بناء قاعدة حديثة للبنى التحتية لتوفير الحاجات الإنسانية الاساسية (الماء الصالح للشرب، الكهرباء، شبكات تصريف المياه القذرة والتخلص من النفايات والمخلفات)، وتطوير نظم الرعاية الصحية الاولية (مراكز صحية – مستشفيات عامة وخاصة) واعتماد سياسة دوائية فعالة وضمان صحي لائق لشرائح المجتمع كافة مع العمل على حماية البيئة من مسببات التلوث وتربية وتنشئة الاجيال على حب الوطن ومبادئ الديمقراطية وثقافة التسامح وتفعيل قانون الزامية التعليم ومجانيته ومكافحة الامية واحترام استقلالية الجامعات علميا واداريا وماليا، واستقلالية المؤسسات الإعلامية والثقافية ومكافحة كل أشكال التعصب والتطرف[33].

اما في أدبيات ومواثيق المؤتمر الوطني العاشر للحزب الشيوعي العراقي عام 2016 (برنامج الحزب الشيوعي العراقي) فقد أكد في مواقع كثيرة بشكل مباشر وغير مباشر على معايير الحكم الصالح، وهي كالآتي:

1. المشاركة:

أ. يقف الحزب الشيوعي العراقي دائما، ضد أشكال الحكم الاستبدادي، والتسلط السياسي، والتمييز القومي والديني والطائفي، والتمييز ضد المرأة، ومصادرة الحقوق والحريات العامة أو الخاصة [34].

ب. يدافع الحزب عن حقوق المرأة ومكتسباتها ويرفض التمييز ضدها، ويعمل على توسيع دورها وإسهامها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية[35].

ج. إيلاء قضية المرأة ومكانتها داخل العائلة وفي المجتمع اهتماماً مميزاً على الصعيدين الوطني والاجتماعي، لمناهضة العنف ضدها، وتمكينها من ممارسة حقوقها في جميع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية [36].

د. تأمين متطلبات ارتقاء المرأة الريفية اجتماعياً وثقافياً، بما يؤهلها للمشاركة في الحياة العامة [37].

ه. تشجيع الشباب على المشاركة في الحياة السياسية، وخفض سن الترشيح في الانتخابات التشريعية والمحلية الى 25 عاماً[38].

2. حكم القانون

أ. اعتماد اساليب التنافس السلمي والديمقراطية في حل المشكلات الاجتماعية والسياسية، وفقاً للدستور وبقوة القانون[39].

ب. السعي لتعديل الدستور بما يعزز مضامينه وجوانبه المدنية الديمقراطية[40].

ج. التطبيق الفعلي لقانون العمل رقم 37 لسنة 2015، واصدار تشريعات خاصة بالتنظيم النقابي والمهني لحماية حقوق العمال ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية ورفع مستوى معيشتهم [41].

د. متابعة تطبيق القوانين والضوابط الخاصة بالمدارس والجامعات الاهلية[42].

هـ. العمل على تشريع قوانين وضوابط الصحة والسلامة المهنية في المؤسسات والمواقع الإنتاجية [43].

3. الشفافية

إشاعة العلانية والشفافية في جميع حلقات إحالة العقود الخاصة بتوريد المواد الغذائية[44].

4. الاستجابة:

أ. إعادة بناء نظام الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية خصوصاً لكبار السن وربات البيوت والأرامل والأيتام والمعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، والارتقاء بالخدمات الصحية والتعليمية (مجانية التعليم والرعاية الصحية المجانية وتوسيع شبكة المستشفيات والمستوصفات الحكومية في المدنية والريف)، وحل مشكلة السكن من خلال تولي الدولة هذه المسؤوليات وتنظيمها بقوانين وبميزانية مالية لتأمن للمواطن العيش بكرامة [45].

ب. إيلاء اقصى الاهتمام لتطوير استخراج الغاز الحر، والاستفادة من الغاز المصاحب للنفط لغرض إنتاج الطاقة الكهربائية، واستخدامه كمدخل أساس في الصناعات البتروكيمياوية وغيرها من الصناعات التحويلية [46].

ج. دعم المنشآت الصناعية والمعامل العائدة للدولة وإعادة تأهيلها وإصلاحها إدارياً واقتصادياً، والنهوض بها كي تساهم

بشكل فعال في تنمية الاقتصاد الوطني[47].

د. اعادة النظر في قوانين الزراعة والإصلاح الزراعي، ووضع مصالح صغار الفلاحين والعمال الزراعيين في صدارة الاهتمام، ومكافحة المساعي الرامية الى إعادة العلاقات شبه الإقطاعية أو الى الخصخصة الشاملة في القطاع الزراعي[48].

هـ. بحث اسباب مشكلة هجرة الفلاحين وآثارها والعمل على معالجتها، وتحفيز الفلاحين على العودة إلى أراضيهم، وتعويض من تضرر منهم وتقديم المنح والقروض لهم [49].

و. حماية العمال والزراعيين عن طريق التشريع والتنظيم النقابيين، فضلاً عن منحهم الضمان الاجتماعي والصحي [50].

ز. وضع خطط تفصيلية خاصة بالشباب تستهدف مكافحة البطالة في أوساطهم وخلق الفرص والمشاريع الاستثمارية لاستيعابهم[51].

ح. اعتبار قطاع التربية والتعليم من الاولويات المهمة وتخصيص الموارد المالية والمادية والبشرية اللازمة له، والاهتمام بتوفير الابنية المدرسية وفق المواصفات العالمية، فضلاً عن دعم العملية الثقافية والاسهام في إدارتها وتأمين متطلباتها (مكتبات بكل انواعها، متاحف، مسارح، دور سينما وقاعات عرض) [52].

ط. دعم إنشاء وتطوير المشاريع الانتاجية والخدمية الصغيرة والمتوسطة، التي تستثمر مزيداً من الايدي العاملة ولا تحتاج الى كثير من رؤوس الاموال أو العملة الصعبة[53].

5. التوافق:

أ. توفير مستلزمات عودة المهجرين والمهاجرين وتعويض ضحايا العمليات الارهابية، وإعادة حقوقهم وممتلكاتهم [54].

ب. السعي لإلغاء ديون العراق الخارجية أثر الحروب التي خاضها النظام السابق، وإعادة هيكلة وتطبيق الاصلاحات الاقتصادية بالتعاون مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فضلاً عن دعم الجهود المبذولة لاستعادة ممتلكات العراق وآثاره وأمواله المهربة الى الخارج [55].

ج. معالجة الخلل في التنسيق بين وزارتي النفط والكهرباء واعتماد الآليات المناسبة لذلك [56].

د. الاستعانة بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية الخاصة بمجاري المياه الدولية، وعرض موضوع المياه على هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والانسانية، لغرض حل النزاعات المائية بين العراق ودول الجوار ولضمان حقوقنا المائية العادلة[57].

6. المساواة

أ. يعمل الحزب الشيوعي العراقي جاهداً من أجل إعادة بناء الدولة على أساس المواطنة واحترام حقوق الانسان [58].

ب. محاربة البطالة وضمان المساواة بين جميع المواطنين في الفرص والاجور[59].

ج. تصفية مظاهر التمييز والتعصب القومي والديني والمذهبي [60].

د. احترام الشعائر الدينية ودور

العبادة للأديان والطوائف كافة، وإلغاء جميع مظاهر التمييز والاضطهاد ضدهم وإصدار القوانين التي تكفل ذلك [61].

هـ. ضمان مساواة المرأة مع الرجل في الأجور، وتذليل المعوقات القانونية التي تعرقل مشاركة المرأة في العمل، وتفعيل التشريعات التي تمنع الاتجار بالنساء والاطفال، وإصدار قانون مناهضة العنف الاسري [62].

و. ضمان حقوق العاملين في القطاع الصحي وصيانتها، ودعم نقاباتهم وجمعياتهم[63].

ز. تفعيل دور المثقفين والمبدعين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية في اعتماد الخيارات الوطنية وبشتى المجالات، وبلورة رؤيتهم وانتاج افكارهم، للمساهمة في رسم المستقبل [64].

7. الفعالية:

أ. اعطاء المزيد من الاهتمام للسياسات والتشريعات والإجراءات الكفيلة بالحد من الهجرة الى الخارج، لاسيما من جانب الشباب وذوي المؤهلات العلمية وأصحاب الخبرة والموهبة والمهارة العلمية والتقنية ورعايتها وتشجيعها، والعمل على اجتذاب الكوادر التي غادرت العراق، للاستفادة من طاقاتهم العلمية والثقافية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية [65].

ب. وضع سياسة اقتصادية فعالة، والقيام بالإصلاحات الضرورية لتأمين ما يقتضيه ذلك من تنسيق وتكامل بين السياسة المالية والسياسة النقدية، وتطوير آليات وضع الموازنة العامة، وتخطيط وتنفيذ البرامج الاستثمارية [66].

ج. توظيف العوائد النفطية لأغراض الاستثمار والتنمية، بالدرجة الأساسية، وتأمين الرقابة والإشراف عليها من قبل المؤسسات التمثيلية للشعب، فضلا عن تنمية الموارد البشرية ورفع كفاءة العاملين عبر الارتقاء بالنظام التعليمي، ووضع برامج لإعادة التأهيل والتدريب، وتشجيع البحث العلمي والابتكار وتخصيص الموارد المالية اللازمة لذلك [67].

د. تشجيع القطاع الخاص ومبادراته، واعتماد سياسة مالية وضريبية تمييزية لصالح مشاريعه التي تساهم في تنمية قدرات البلاد الإنتاجية والارتقاء بالمستوى التنافسي لمنتجاته وخلق فرص عمل جديدة والاستفادة من خبرات شركات المقاولات العراقية ومراكز الدراسات والتصاميم في تنفيذ إعادة الإعمار والتشييد [68].

هـ. تشجيع المشاريع والبحوث الهادفة الى تطوير مصادر الطاقة البديلة بجانب النفط، كالمياه وأشعة الشمس والرياح وغيرها، وإنشاء مراكز بحث علمي لتأمين التخصص الدقيق للكوادر الهندسية [69].

و. إصلاح التعليم العالي انطلاقاً من مبدأ صيانة حرمة الجامعات والمعاهد واستقلالها، وبما يعيد السمعة العلمية والأكاديمية للجامعة العراقية كونها مؤسسة حضارية مفتوحة، لا يجوز تقييدها بانتماء عقائدي او أيديولوجي أو أي غطاء آخر. والاهتمام بتطوير التعليم العالي عامة، ومراكز البحوث والدراسات التخصصية[70].

ز. تبني الدولة سياسات ثقافية تهدف الى تشجيع الفكر والابداع وتأمين تفتحها وانتشارها، وبناء المؤسسات الثقافية لتحقيق ذلك [71].

8. المحاسبة:

أ. تعزيز صلاحية السلطة القضائية في مراقبة الثروات وتقصي مظاهر الثراء، ومتابعة التصرف بالمال العام وفي المكافحة الحازمة لكل مظاهر الفساد، من خلال تفعيل وتعزيز دور الادعاء العام وتشكيل محكمة مختصة بجرائم المال العام، ودعم الهيئات الرقابية المتخصصة واستقلاليتها، ومكافحة عمليات غسيل الاموال وانتقال الاموال غير المشروعة، وتفعيل الاجراءات القانونية بحق المخالفين [72].

ب. تنظيم الاسواق التجارية وضبط ومراقبة تدفق السلع من السوق المحلية وإليها وإعادة تأهيل الأسواق المركزية[73].

ج. وضع معايير واضحة لفحص مستوى الشركات التي يراد لها أن تساهم في عملية التشييد والإعمار، وتحديد قدراتها الفنية والمالية، وفرض الرقابة النوعية على تنفيذ واستلام المشاريع من قبل أجهزة رقابية متخصصة وملاحقة الشركات التي لا تفي بالتزاماتها قانونيا [74].

د. دعم منظمات المجتمع المدني في القيام بدورها في الرقابة على عمل مؤسسات الدولة، والكشف عن مظاهر الخلل والفساد في الإدارة العامة وترشيد عملها [75].

9. الرؤية الاستراتيجية:

أ. تبني استراتيجية تنمية مستدامة، واعتماد خطط تنموية متوسطة وقصيرة الاجل بالاشتراك مع حكومة الاقليم والحكومات المحلية، تهدف الى توسيع وتنويع وتحديث قاعدة الاقتصاد وتنمية القدرات البشرية والاستخدام العقلاني والكفوء لموارد البلاد، بما يحقق مستوى ونوعية حياة أفضل لجميع المواطنين [76].

ب. إعادة إعمار الريف وتطوير قواه المنتجة، والنهوض بالقطاع الزراعي وزيادة مساهمته في الاقتصاد الوطني، وتحقيق الأمن الغذائي [77].

ج. الاسراع في اصدار قوانين النفط والغاز، واعتبار قطاع استخراج النفط والغاز قطاعاً استراتيجياً، ينبغي ان يظل ملكية عامة، وإعادة تأهيل المنشآت النفطية وتوسيع شبكات انابيب النفط والغاز الداخلية، فضلاً عن الاهتمام بالصناعات الكيمياوية والبتروكيمياوية والانشائية ومشاريع الصناعات التعدينية كاستخراج الكبريت والفوسفات والصناعات التكريرية، والسعي لتحديث المصافي ومنشآت توزيع المنتجات النفطية والغازية وانشاء مصافي جديدة تلبي الحاجة الوطنية[78].

د. تأمين التمويل اللازم لتنفيذ الخطة الاستراتيجية المتكاملة لقطاع الطاقة والكهرباء لعشر سنوات قادمة[79].

هـ. الالتزام بتطبيق التعليم الاساسي بشكل شامل، وإعادة النظر في نظام ومناهج التعليم وطرائق التدريس، بما يؤمن مستلزمات التقدم والتطور التقني، وربط هذا التقدم بعملية التنمية الشاملة في البلاد، واعتماد إستراتيجية وطنية متوازنة في المنح والبعثات والزمالات، تقوم على اساس الكفاءة والمواطنة[80].

و. إعادة بناء العلاقات الاقتصادية مع البلدان العربية ودول الجوار على أساس المصالح المشتركة، والمنافع المتبادلة،

ودعم وتشجيع أشكال التعاون والتنسيق في مختلف المجالات، بما يساعد على خلق الممهدات للتكامل الاقتصادي بين هذه البلدان على المدى الطويل، وحماية مصالح العراق الدولية[81].

نستخلص مما تقدم، أن معايير الحكم الصالح ومشتقاتها المتصلة بالمساواة والمواطنة ومناهضة الاستبداد والتعصب والتطرف واعتماد التسامح والديمقراطية والتداول السلمي للسلطة أصبحت شواخص وعلامات فارقة في مناهج وبرامج الحزب الشيوعي العراقي، لتظل هذه المعايير منطلقا أساسا وما عداها مكملات لهذا المنطلق ولذلك الاساس.

الهوامش:

1. علاء هادي عبود، المعارضة السياسية في التجربة العراقية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد العلمين للدراسات العليا، النجف، العراق، 2015، ص 40 - 43.
2. صلاح الخرسان، صفحات من تاريخ العراق السياسي الحديث، ط1، مؤسسة البلاغ، بيروت،2001، ص 43.
3. المصدر نفسه، ص 53-51.
4. الحزب الشيوعي العراقي، البرنامج والنظام الداخلي: الصيغتان المقرتان في المؤتمر الوطني السابع (25 - 28 اب/ اغسطس/2001) منشورات طريق الشعب (10)، 2001، ص 18-7.
5. حسن لطيف الزبيدي، موسوعة الاحزاب العراقية، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت، 2007، ص 344.
6. جاسم يونس الحريري، الوحدة الوطنية، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 305، 7/ 2004، ص 75.
7. المصدر نفسه، ص 76.
8. الحزب الشيوعي العراقي، البرنامج والنظام الداخلي، مصدر سبق ذكره، 6.
9. المصدر نفسه، ص 21.
10. المصدر نفسه، ص 21.
11. المصدر نفسه، ص 21.
12. المصدر نفسه، ص 27.
13. المصدر نفسه، ص 14.
14. جريدة طريق الشعب – مبدأ المواطنة والعدالة الاجتماعية اولويات برنامجها، العدد 18 في 3 شباط 2011، ص 3.
15. جريدة طريق الشعب، كلمة سكرتير الحزب الشيوعي بمناسبة ميلاد الجريدة، العدد 55 في 3 نيسان 2001، ص 1.
16. وثائق المؤتمر الوطني الثامن للحزب الشيوعي العراقي 10 - 13 ايار 2007، اصدارات الحزب الشيوعي العراقي، دار الرواد المزدهرة، بغداد، ص 4، ص 8، ص 11.
17. وثائق المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي العراقي، المصدر نفسه، ص 7، ص51.
18. المصدر نفسه، ص 50.
19. الحزب الشيوعي العراقي، برنامج الحزب الشيوعي العراقي، وثائق المؤتمر الوطني التاسع 8 - 12 - 2012، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2012، ص 4.
20. عن المصدر نفسه، ص 7.
21. عن المصدر نفسه، ص 60.
22. عن المصدر نفسه، ص 62.
23. عن المصدر نفسه، ص 8.
24. عن المصدر نفسه، ص 9-8.
25. عن المصدر نفسه، ص 16.
26. عن المصدر نفسه، ص 15.

27. عن المصدر نفسه، ص 35.
28. عن المصدر نفسه، ص 37 - 38.
29. عن المصدر نفسه، ص 38.
30. عن المصدر نفسه، ص 59.
31. عن المصدر نفسه، ص 46.
32. ينظر للتفاصيل الحزب الشيوعي العراقي، التقرير السياسي، وثائق المؤتمر الوطني التاسع (8 - 13) ايار 2012)، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2012، ص 1.
33. شارك الحزب في جبهة عام 1954 وجبهة 1974 والمؤتمر العام لقوى المعارضة العراقية في بيروت 1991 ومؤتمر لندن التداولي عام 1991 ومؤتمر فينا 1992 ومؤتمر صلاح الدين 1992 وائتلاف 2002 مع حزب الدعوة. كما وشارك الحزب اثناء الانتخابات عام 2005 في ائتلاف (إتحاد الشعب) وضمت شيوعيين وديمقراطيين يساريين فضلا عن بعض العناصر المستقلة... للتفاصيل ينظر د. فاتن محمد رزاق الخفاجي، التسامح في فكر الاحزاب العراقية المعاصرة، دار الرواد، دمشق، 2005، ص 224 - 228.
34. عزيز سباهي، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ج4، ط3، دار الرواد، دمشق، 2005، ص 318.
35. (*) تشكل التحالف المدني الديمقراطي بوصفه تحالفا انتخابيا لخوض الانتخابات التشريعية الاتحادية العراقية عام 2014 وضم التيار الديمقراطي (الحزب الشيوعي العراقي – الحزب الوطني الديمقراطي الاول والثاني – حزب الأمة العراقي – شخصيات ديمقراطية مستقلة) وحزب الشعب برئاسة النائب فائق دعبول الشيخ علي. ينظر الفقرة 3 من المحور السياسي للبرنامج الانتخابي للتحالف المدني الديمقراطي، وثيقة، جريدة التيار الديمقراطي، بغداد، العدد 53، ص3، 2014.
36. جريدة التيار الديمقراطي، المصدر نفسه، ص3.
37. المصدر نفسه، ص3
38. المصدر نفسه، ص4.
39. المصدر نفسه، ص4.
40. ينظر الحزب الشيوعي العراقي، وثائق المؤتمر الوطني العاشر، برنامج الحزب الشيوعي العراقي، دار المزدهرة، بغداد، 2016، ص8.
41. المصدر نفسه، ص9.
42. المصدر نفسه، ص11.
43. المصدر نفسه، ص 9 - 10.
44. المصدر نفسه، ص 36.
45. المصدر نفسه، ص 36.
46. المصدر نفسه، ص 39.
47. المصدر نفسه، ص 9.
48. المصدر نفسه، ص 15.
49. المصدر نفسه، ص 30.
50. المصدر نفسه، ص42.
51. المصدر نفسه، ص 44.
52. المصدر نفسه، ص 32.
53. المصدر نفسه، ص 21 - 22.
54. المصدر نفسه، ص 25.
55. المصدر نفسه، ص 27.
56. المصدر نفسه، ص 28.
57. المصدر نفسه، ص 29.

58. المصدر نفسه، ص 30.
59. المصدر نفسه، ص 39.
60. المصدر نفسه، ص 40 و 47.
61. المصدر نفسه، ص 35.
62. المصدر نفسه، ص 14.
63. المصدر نفسه، ص 23-22.
64. المصدر نفسه، ص 26.
65. المصدر نفسه، ص 45-44.
66. المصدر نفسه، ص 9.
67. المصدر نفسه، ص 10.
68. المصدر نفسه، ص 14.
69. المصدر نفسه، ص 15 و ص57.
70. المصدر نفسه، ص 37.
71. المصدر نفسه، ص 44.
72. المصدر نفسه، ص 48.
73. المصدر نفسه، ص 15 و ص28.
74. المصدر نفسه، ص 17.
75. المصدر نفسه، ص 18.
76. المصدر نفسه، ص 19و ص34.
77. المصدر نفسه، ص 26.
78. المصدر نفسه، ص 41 - 42.
79. المصدر نفسه، ص 48.
80. المصدر نفسه، ص 16 و17 و19.
81. المصدر نفسه، ص 32.

العدالة الاجتماعية على مر التاريخ

سواد لعيبي

سواد لعيبي، تخرج عام 1964 من معهد المعلمين، قضى اكثر من 40 سنة في تدريس اللغة الانكليزية. له العديد من المقالات في الشأنين السياسي والاقتصادي، نشرت في الدوريات والمجلات العراقية.

العدالة الاجتماعية تعني حقوق الانسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهي حقوق أساسية إنسانية اكدتها الاتفاقات الدولية وشرعة حقوق الانسان، كما اكدتها الأمم المتحدة ومنظماتها الخاصة بالمرأة والطفل وحقوق الأقليات وبالإنسان عامة. لكن تعريف العدالة الاجتماعية اختلف باختلاف المرجعيات الفكرية والايديولوجية للباحثين والمفكرين، لكنها تبقى اخيراً استحقاقا انسانيا، يتمتع به الفرد بحقوقه الاجتماعية الاقتصادية والسياسية.

إنّ البحث عن العدالة الاجتماعية يجب ان يدور في اطار المجتمع، أي في ظروف الإنتاج وعلاقته التي تشكل بناءه الاقتصادي، والتي تكون القاعدة الحقيقية التي يقوم عليها بناؤه الأخلاقي والقانوني (الفوقي)، لذا فكل مجتمع يبني مفهوما خاصا به للعدالة يعكس ظروفه الاقتصادية – الاجتماعية. لهذا نجد نظريات العدالة الاجتماعية تختلف وتتباين وتتطور بتباين المجتمعات وتطورها، ونجد مفكرين وباحثين يُنظّرون لمفاهيم فلسفية تتواءم مع العلاقات الاجتماعية السائدة لذلك المجتمع او الحقبة التاريخية، فمجتمعات العبودية ترتكز قاعدتها الاقتصادية على ملكية الانسان للإنسان. فالإنسان جُرد من كافة الحقوق من قبل الملاكين، وبعد ان كثرت تجارة العبيد من افريقيا والهند إبان الكشوف الاسبانية والبرتغالية حيث ينقلون في سفن من شواطئ افريقيا الى أوروبا يسومونهم أسوأ أنواع العسف والظلم اثناء الاسر ليلاً في السفن، ولم يستنكر الاستعباد وقتها، وتعتبره ضرورة حيوية وحتمية لحمايتها وتستخدمه من اجل الحصول على الذهب والمال. فسقراط يرى ان تحقيق العدالة ليس سوى طاعة قوانين الدولة التي تحمي العبودية، وافلاطون كان ينكر ان العدالة هي حكم الأقوى في جمهوريته الفاضلة التي يرى فيها ان عمل العبيد هو الذي ينتج وسائل المعيشة التي تحتاج اليها طبقة المحاربين، بينما يرى ارسطو ان العدالة هي (خير الغير) ونادى

بالمساواة، الا ان ذلك اقتصر على الاحرار.

وفي المجتمع الاقطاعي ارتكزت العدالة على استغلال جماهير الفلاحين الاقنان، فالعدالة تعكس مصالح الملاكيين الاقطاعيين، وكان المجتمع يقوم على أساس الملكية الاقطاعية لوسائل الإنتاج وملكية الاقنان الذين يقدمون كل الخدمات للإقطاعي الذي يستطيع بيعهم (الاقنان) مع الأرض في علاقات قهر واستغلال. وهدفت فلسفات تلك العصور وخدمت الطابع الديني يوم كانت الكنيسة تدعم الاقطاع واضطهاده. وكما يقول احد القساوسة (انها إرادة الله ان ينقسم الناس الى سادة اقطاعيين واقنان. وعلى السادة ان يحبوا الله اما الاقنان فواجبهم حب واحترام اسيادهم)، كما ان الاقطاع وبدعم من الكنيسة وقف ضد العلم والتطور والاكتشافات وضد الصناعة وانتشارها وضد قيام المدن. وقد تعرض أصحاب الاكتشافات الى السجون والموت بقرار من الكنيسة أمثال كوبر نيكوس الذي اكتشف مركزية الشمس للكون عكس ما تريده الكنيسة وتدافع عنه وهو مركزية الأرض للكون لولادة عيسى المسيح عليها، وشكلت محاكم تفتيش تدين أولئك المكتشفين من أمثال جوردانو عام (1600)، والذي حكمت عليه بالموت حرقاً، وغيره من العلماء. كما لاحقت مارتن لوثر، القس الذي أراد اصلاح الكنيسة.

والعدالة في عهد البرجوازية تعبير صادق عن متناقضات النظام الرأسمالي القائم على الاستغلال وسيادة رأس المال الذي حل محل الملكية الاقطاعية. فقد جاء التراكم الأولي للرأسمالية عن طريق نهب أموال الكنيسة والاقطاع، ثم بعد ذلك التجأت لسلب ونهب البلدان الأخرى التي احتلتها واستنزفت ثرواتها من مناجم الذهب والفحم وغيرها وقسمت العالم الى قسمين (التقسيم الأول) عالم رأسمالي متطور منتج، وعالم مستهلك تابع يصدر مواد خام. وتشيع الرأسمالية انها تؤكد المساواة بين المواطنين امام القانون، لكنها تؤكد حرية الرأسماليين في استغلال العمال. أي انها تقوم على ملكية الأقلية لوسائل الإنتاج وجني الربح وبلا حدود.

لذا يقول أبو الليبرالية (ايديولوجية الرأسمالية) ادم سميث "دعه يعمل دعه يمر". وكلما تطورت الرأسمالية زاد استغلالها للبشرية، وفي الوقت نفسه زادت تناقضاتها.

ان مجيئ الرأسمالية على انقاض النظام الاقطاعي، ادركت ملامح زمن اجتماعي جديد للتطور، كان ابرز ملامحه هو إعادة اكتشاف الفرد وقدرته على التغير والسيطرة على الطبيعة، ولهذا ما ان ظهرت الأفكار الليبرالية كمنظومة ايديولوجية متكاملة حتى غزت مختلف دول أوروبا، وانتشرت الى بلدان أخرى وهذا الانتشار جاء منسجما مع احتياجات النظام الصناعي الجديد، بعد إزالة العوائق التي تحول دون نمو انتاجها الصناعي، وإحلال حرية المنافسة وإبعاد الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي، كما عبّر آدم سميث.

ثم امتدت تلك الأفكار لتشمل مجموعة كاملة من الحقوق الفردية كحق التعبير والفكر والعقيدة والتمثيل النيابي والمشاركة السياسية، لكن تلك الحقوق السياسية كالتعددية وحرية تكوين النقابات ومنظمات المجتمع المدني لم تحصل عليها الجماهير بيسر بل احتاج الأمر الى معارك ضارية وتضحيات كبيرة (دامية احياناً) عبر عشرات السنين، كي ترضخ الرأسمالية للمطاليب الديمقراطية

من جانب القادة الاجتماعية الشعبية حتى سمحت بتحقيق ذلك.

لكن اول ما ضحت به الرأسمالية في فترات الازمات هو الديمقراطية وحقوق العمال، كما حصل في النصف الأول من القرن العشرين.

ففي ازمة الكساد الكبير (1929 - 1933) التي عمّت كل دول الرأسمالية وتوابعها ارادت الرأسمالية حل تلك الازمة، فنشبت الحرب العالمية الثانية عام 1939 لان الرأسمالية تحل ازماتها اما بالحرب او بتصدير رأس المال، ثم تأتي ازمة الرأسمالية الكبيرة الثانية عام 1970 بعد فشل الكنزية في إعطاء حلول للركود الاقتصادي المصاحب لمعدلات عالية في البطالة والتضخم وتراجع معدلات الادخار ونمو شديد في العجز الداخلي والخارجي، ليصور إثر ذلك دعاة الليبرالية المتوحشة بزعامة (ليبرمان)، كبير مدرسة شيكاغو الذي طالب بأمان للمستثمرين وإعطائهم حرية مطلقة، تمكنهم من زيادة بواعثهم للإنتاج والاستثمار من خلال تقليل الضرائب على ارباحهم العالية، وان يباع القطاع العام لهم، وان تقلل الدولة من أنشطة التعليم والصحة والخدمات. وان تتخلى الدولة على اعانات البطالة والضمان الاجتماعي واهداف التوظيف الكامل وعن (دولة الرفاه الاجتماعي)، وعن كل ما قدمته الكنزية ونضالات الطبقة العاملة الاوربية والأمريكية، ومن اجل رفع الأجور وتحديد ساعات العمل وكل المكاسب.

بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد خروج أمريكا منتصرة فيها، وكأكبر قوة اقتصادية أرادت السيطرة على العالم واحتلال المركز الأول فيه، فأنشأت نظاما نقديا دوليا، ابتدأ باتفاقية (بريتون وودز 1944).

حيث أصدرت الدولار كعملة رئيسية عالمية مربوطة بمعدن الذهب، استمر ذلك لسنوات بعد سقوط النهج الليبرالي لآدم سميث، في الازمة الكبرى، واستمرت الولايات المتحدة بمد أذرع السيطرة الامبريالية وعولمتها، فأنشأت عام 1944 صندوق النقد الدولي، كمسؤول عن القروض الدولية، وفي تموز عام 1947 انشئ البنك الدولي. كان هدفه الأول تشجيع رؤوس الأموال الاستثمارية وإعادة ما خربته الحرب العالمية الثانية في غرب أوروبا.

ومن اجل ان يكتمل الثالوث الامبريالي تشكلت منظمة التجارة العالمية كخطوة أولى عام 1955 رغم انها بدأت عام 1948 تحت اسم (الغات GAT) وصارت هذه المنظمات الثلاثة (هيئة اركان النظام الرأسمالي المعولم).

قلنا بعد فشل نهج ادم سميث ومجيئ الكنزية التي اكدت الطلب من عام 1945 حتى عام 1970 حصلت الدول الامبريالية على نمو في اقتصادها وازدهار في صناعتها واستقرار في أسعار المواد وتقلص في نسبة البطالة وزيادة في مستوى الأجور للطبقة العاملة بعد نضالات طويلة وكبيرة، وعلى الصعيد العالمي حدثت زيادات في التصدير السلعي ورأس المال واستقرار صرف العملة حتى اشيع لدى مفكري البرجوازية بأن عصر الازمات قد ولى وان الرأسمالية هي نهاية المطاف للعالم كقطب وحيد، حتى بدأت بوادر الازمة وملامحها تظهر في بداية السبعينات لتدخل الامبريالية ومن ارتبط بنسقها الرأسمالي بأزمة جديدة خانقة وطويلة الأمد.

قلنا سابقاً ان فترة النهوض الاقتصادي وخلالها بدأت المنظمات المالية والنقدية بتقديم قروض للدول النامية المختلفة بعد توسع عضوية صندوق النقد الى (152 دولة) ومن جملة ما قدمت لها القروض (اندونيسيا وكوريا الجنوبية) إبان ازمة 1998 حيث بلغت عموم القروض (48 مليار دولار) للدول. وكانت تلك القروض وفقا لشروط تفرضها الهيئة العامة خاصة بعد خروج أمريكا من اتفاقية (بريتون وودز) وتعويم العملات في السبعينات، وتطور عمل المنظمة (صندوق النقد الدولي) فتحول نشاطها لتسليف أي دولة تريد ان (تنهض بنفسها) أي تقوم بتعديلات هيكلية كالخصخصة وفتح أسواقها امام البضائع الأجنبية دون حماية للمنتج الوطني من اجل تحطيم الصناعة المحلية الوطنية (كما يحدث الان في العراق)، وتخفيض مخصصات الدولة للتعليم والصحة والضمان الاجتماعي ودعم المواد الضرورية. وهذا واقع في بلادنا الان خاصة في موازنة 2019 وما تبعها. كما تدنت نسبة الزراعة والصناعة والبطاقة التموينية فيها، بينما تنادي الدولة بوضع خطط ما تسميه (مكافحة الفقر وتطوير الانسان ونقل التكنلوجيا الحديثة وحماية البيئة وغيرها).

كما طالبت الدول الرأسمالية ومن خلال اذرعها المالية والنقدية بفتح كل قطاعات الاقتصاد الوطني امام المستثمرين الأجانب وفرضت حق تحويل الأموال (العملة الصعبة) الى الخارج ومعاملة المستثمر الأجنبي كالمحلي وحقه في تشغيل العمالة الأجنبية وتحديد الأجور. كما فرضت على المحاكم ألا تصدر قوانين ضد مشاريعها واتفاقياتها مع الدولة مع العلم كان امد تلك الاتفاقيات 20 سنة واكثر، كما ظهر ذلك جلياً في جولات التراخيص النفطية التي اتضح امرها في تكليف العراق خسارة بلغت مليارات الدولارات.

إن مثل هذه القروض التي تقدمها المنظمات المالية والنقدية الامبريالية المعولمة تخل في مقومات واسس العدالة الاجتماعية المنشودة وحتى في السيادة الوطنية والتوافق والتوازن في العلاقات الدولية المعقودة مع البلد المعني. ان اول من يتضرر من جراء ذلك هو الفئات الفقيرة والمتوسطة، فتحرمها من حق التعليم وتضعف نشاط الدوائر الصحية والخدمية كالكهرباء والماء الصالح للشرب والصرف الصحي وذلك من خلال تقليص حصتها في موازنات الدولة، حيث تم تقليص حصة التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية والخدمات والبطاقة التموينية التي يعتاش عليها مليونان ونصف المليون فرد، اغلبهم من العمال وفقراء الفلاحين والمزارعين والفئات الفقيرة. كما ان هذه القروض تقلل فرص العمل لكثير من المواطنين وخاصة الخريجين بعد غلق واهمال مؤسسات الدولة ومصانعها، كما حدث في مصر وتونس والعراق. العراق الذي بلغ عدد مصانعه المغلقة (3500) معمل ومصنع مهمل او ينتج بنصف او ربع طاقته ما أدى الى زيادة في نسبة البطالة والفقر، ومنهم من دون خط الفقر، وفي الريف اكثر من المدينة، وعند الاناث اكثر من الذكور. هذا إضافة الى ان الدول الامبريالية تقف الى جانب الحكومات المستبدة الظالمة التي تُحجم الحريات والديمقراطية، كما في مصر وتونس والسودان والعراق ودول الخليج. وهذه الدول تقيم برلمانات شكلية يملؤها مريدو السلطة الحاكمة. لذلك فديمقراطية هذه

الدول مقتصرة على الانتخابات التي توصلهم للسلطة وحسب.

يقول مدير المخابرات الأمريكي الأسبق جيمس شيليغز عام 1998 (هل نرغب حقا في تقديم الديمقراطية كطريقة ملائمة لحكم المجتمعات الأخرى والإسلامية خاصة؟ وهل نرغب بتغيير المؤسسات السعودية مثلاً؟ الجواب قطعاً لا ونحن نعتبرها افضل من قوى الديمقراطية التي ظهرت مؤخراً).

كما ان الليبرالية الجديدة لا تؤمن بالتعددية السياسية، فبعد ان مرت بمرحلة الامبريالية المعولمة اكتفت بحزبين فقط رغم تقاربهما في كثير من الأفكار والتطلعات رغم كثرة التسميات (اشتراكي ديمقراطي، ليبرالي امريكي، عمالي بريطاني، محافظ)، لكنهم لا يختلفون اذا ما تعلق الامر بالاعتبارات الاستراتيجية للرأسمال الامبريالي المعولم، ومن خلال ما تقدمه من قروض للدول النامية وقدوم شركات من مختلف البلدان التي تخلق واقعا اجتماعيا جديدا وفرزا طبقيا يلائم مصالحها ويخدم توجهاتها، فتعمل على تمزيق النسيج الاجتماعي للبلد المعني، كما تخلق فئات طفيلية تعتاش على فُتات موائدها من الرشاوى والكومشنات، كما تخلق فئات كومبرادورية ترتبط معها ارتباط عضوياً تسهل عليها عملها من الداخل، وتوفر لها مواد أولية، وتروج مفاهيمها، وتحتضن مشروعها الليبرالي المتوحش مقابل مقاولات في شركاتها وهي فئات لا صلة لها بالإنتاج، كما انها تحيد البرجوازية الوطنية وتضعف الفئات المتوسطة وتشرذم الطبقة العاملة. والليبرالية في عملية التكييف التي تعتمدها تجاه البلدان النامية (المَدينة) ترتكز على خدمة رأس المال الدولي في زيادة متوسط معدل الربح ولها اهداف تتمثل في:

1. خلق جيش متزايد من البطالة لضمان خفض معدلات الأجور الحقيقية وتوفير عنصر العمل الرخيص امام شركاتها متعددة الجنسية.

2. اضعاف قوة الدولة وتدخلها في إدارة النظام الاقتصادي وابعادها عن اليات السوق ليسهل تعامل رؤوس الأموال الأجنبية من موقع قوي.

3. اجبار بلدان العالم الثالث على فتح ابواب التجارة الخارجية وبالذات الاستيراد كي تمكن البلدان الرأسمالية الصناعية من زيادة تصديرها الى أسواق تلك البلاد.

4. توفير رصيد كافي من العملات الأجنبية لتحويل أرباحها ودخول تلك الشركات.

5. تثبيت سعر صرف العملة المحلية (بعد تخفيضه) الى مستوى يقبل به الدائنون ومنظمات الدولة.

إن أنظمة بلدان العالم الثالث توهم نفسها بان هذه الشروط تمكنها من اجراء "إصلاحات اقتصادية" تعالج اختلالاتها الهيكلية، وانها ستنقل لها التكنلوجيا وتعالج مشكلة البطالة والاسعار. غير ان مثل ذلك لم يحصل والعراق خير مثال على ذلك وقبله المكسيك ودول أوروبا الشرقية، عدا كوريا الجنوبية التي وضعت شروطاً لزيادة معدلات نموها الاقتصادي وزيادة صادراتها المصنعة ونمَت قواها البشرية من اجل الإفلات من مصيدة الديون، فقد وضعت حواجز كمركية مرتفعة، وفرت لصناعتها الوليدة فرصة النماء، كما أشرفت على نشاط الشركات الأجنبية، فنقلت منها التكنلوجيا للأيدي العاملة الكورية كما دعمت صناعتها المحلية.

إنّ الشركات متعددة الجنسية تحاول

تغييب المؤسسات الشرعية لتلك البلدان في اتفاقاتها مع دول العالم الثالث ومنظمات المجتمع المدني من نقابات واتحادات وجمعيات وأحزاب ومنظمات حقوق الانسان، وهذا هو العنصر الضامن لتنفيذ عملية التنمية بكل ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لما تتسم به من شفافية ومقدرة على المحاسبة والمساءلة وبذلك يكون للشعب دور فعال، لكل ما يجري في البلد دون اقصاء او تهميش لفئة او طبقة او مذهب او دين او قومية. فالمواطنة والإخلاص والكفاءة هي المعيار الذي يجب ان يكون الفيصل لحل مشاكل البلدان المتخلفة، والحذر كل الحذر من منزلقات الليبرالية الجديدة ومكائدها في إشاعة نظريات فلسفية برغماتية او ذرائعية او تجريبية، تلغي كل ما توصل اليه العقل البشري من إنجازات علمية وفلسفية، او تحاول الغاء ذاكرة الشعوب، وما استخلصته من تجاربها او تخلق بلبلة فكرية، لتتمكن من بسط ايديولوجيتها مستخدمة الثورة العلمية في الاعلام والمعلومات والاتصالات في محاربة الأفكار التقدمية والتنويرية المعادية لنهجها المتسم بالوحشية، كما حدث لشعوب شرق اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية. كما استغلت سقوط التجربة الاشتراكية لترويج بطلان الماركسية التي اعتبرتها شيئا من الماضي، يؤيدها عملاؤها داخل بلدان ''العالم الثالث'' الذين ارتضوا سياسة العولمة في وصفة (التثبيت والتكييف الهيكلي).

ان العدالة الاجتماعية بجانبها الاقتصادي تشترط مشاركة المواطنين كلهم في العملية الإنتاجية والتنموية، اما في جانبها الاجتماعي فتعني تمكين الطبقات الفقيرة من تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وابعادهم عن الاقصاء والتهميش. كما تؤكد تكافؤ الفرص للجميع بكافة الحقوق والحاجات الأساسية وضرورة بناء علاقة وثيقة بين النظام الاقتصادي - الاجتماعي وبين العدالة الاجتماعية خاصة في مسألة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والتي تفرز طبقات داخل المجتمع، فتخلق تفاوتا طبقيا. كما لا بدّ من المشاركة الجماعية السياسية في مؤسسات الدولة التي تصنع القرارات العامة للبلد وضرورة العدالة بين جيل الحاضر والمستقبل في توزيع الموارد الطبيعية والصناعية، وفي تحمل الدين العام، واخيراً في إقامة العلاقات الدولية الخارجية، حيث يجب التأكيد على عدم الميل الى هذا الطرف او ذاك؛ فالعدالة الاجتماعية تقتضي التحرر من الاستغلال في الداخل والخارج والتحرر من كل التبعات واشكالها.

إنّ العدالة الاجتماعية هي عملية نسبية وليست كاملة مطلقة، بل تخضع لمفاضلات هي القدرات والمؤهلات وقابليات الافراد داخل المجتمع، وليس لاعتبارات عرقية أصولية طبقية وفرق الجنس.

كما ان العدالة الاقتصادية هي جزء من العدالة الاجتماعية، لان الأولى تتمحور حول الإنتاج في مدخلاته ومخرجاته ومشاركة افراد المجتمع في جانبي العملية الإنتاجية، واذا ما حدث خلل في الجانبين (المساهمة والتوزيع)، يمكن اجراء التصحيح الازم لخلق اقتصاد متوازن وعادل.

في بلادنا العراق، الدولة ريعية بامتياز حيث تمثل إيرادات النفط 65% من الناتج المحلي الإجمالي، وحوالي 93% من

موازناته السنوية، وحسب رأي حسين مهداوي الباحث الإيراني (بأن الدولة الريعية تتسم بأنها لا تحصل على مواردها من الضرائب كي تخضع الى محاسبة دافعي الضرائب، وتعتمد سياسة توزيعية تخرج السكان من الحيز السياسي، أي من أي مطالبة بالديمقراطية).

الدولة الريعية تَعتاش على عائدات بيع النفط الخام، انه هبة خارجية مستمرة فهي لم تضايق الشركات بزيادة الإنتاج، ولم تكن هناك صلة بين انتاج النفط وقطاعات الاقتصاد الوطني، لا من حيث العمالة والتوظيف او استهلاك النفي محلياً او تأثيره على الصناعة المحلية او توظيف الفائض منه، وتضعف الصناعات التحويلية المنشطة للقطاعات الأخرى والاعتماد على استيراد التكنولوجيات واليد العاملة، بدل التوجه لتصنيعها او توظيفها.

وعليه، فالدولة الريعية دولة متضخمة النفقات والميزانيات ومتضخمة اقتصادياً وقدرات مالية عالية ليست بحاجة للضرائب، فهي توزيع امتيازات ومشاريع اعمال واعمار ومناقصات ووكالات على (النخب) الموالية لها سياسياً او عشائرياً او الاثنين كما انها تشتري نخبا ثقافية، تحاول ان تبني لها مجتمعا مدنيا، يعيد انتاج ذاته، اضافة الى انها تولد تشكيلة من الدخول الريعية الثانوية من خلال برامج الانفاق العام والبناء والتشييد بما يولده من عمولات وعائد على المضاربات العقارية او تقوم باستثماره في الخارج، لخلق تحالف بين الدولة وصفوة من رجال الاعمال المحليين ودوائر رأس المال العالمي (المالي والمصرفي).

ان نشوء الديمقراطية (قديماً وحاضراً) كان الريع عائقا لنشوء الديمقراطية، كما في اسبانيا والبرتغال قديماً التي اعتمدت على ثروات الذهب المنهوب من أمريكا الجنوبية وافريقيا.

ويمكن وصف الدولة الريعية كالاتي:

1. قطاع حكومي كبير يقابله مستوى منخفض من تحصيل ضريبة الدخل.

2. ان دافع الضريبة في الدول الديمقراطية هو الذي يمول الجزء الأكبر من دخل الدولة، وهذا هو احد اركان المجتمع المدني، بينما المواطنون يعتاشون على الدولة الريعية، وهذا ما يشبه الرشوة السياسية، كما تتصف الدولة الريعية بضعف مصادرها الشرعية.

ومن اشكالاتها يلاحظ تراكم مختلف الولاءات للهويات الفرعية، الجهوية والطائفية والقبلية والدينية المرتبط بظهور نشأة الدولة المعاصرة ثم عجز الدولة عن إشاعة مفهوم الدولة الديمقراطية والقانونية واخفاقها في التنمية الاقتصادية والعدالة في توزيع وإعادة توزيع الثروة والسلطة، إضافة الى ضعف البناء المؤسسي للدولة كالتداول الديمقراطي للسلطة، كما أدى الى تأبيد الحكم العائلي والقبلي والديني، كما تتصف الدولة بالهشاشة لتضخم أجهزتها افقيا وعموديا، وضعف وقوفها على أرضية شرعية وقانونية.

من المعلوم ان اغلب الفئات والقطاعات الاقتصادية لا تساهم في إيرادات الدولة النفطية، الا بقدر متواضع يمكن الاستغناء عنة. وهنا تظهر العلاقة الطردية بين الاعتماد القوي للدولة في إيراداتها للنفط وضعف القاعدة الاقتصادية التي تجمع الافراد، للمطالبة بحقوقهم السياسية، لانهم لا يساهمون في صناعة الدخل فليس لهم الحق في القرار والمشاركة السياسية.

ان الحكومات المتعاقبة في العراق تختزل السياسة الاقتصادية الى مجرد موازنات سنوية متتالية لتوزيع إيرادات النفط، وتدويرها على شكل انفاق موسع على البنية التحتية والقطاع العمومي والخدمات من اجل تحقيق "نمو" لا ينعكس بالضرورة في صورة توزيع عادل للثروة. ورغم ذلك الحيف في التوزيع العادل للثروة، لا نجد تلاحما للناس من اجل تغيير سياسي ومطالبة بالعدالة في التوزيع، فالدولة تلجأ لسد بعض الافواه واسكات القائمين عليه، بإعطاء منافع وامتيازات لفئات لها ثقلها النسبي في التكوين السياسي الاجتماعي، وقد تلجأ الى إقامة هيئات تمثيلية للتنفيس عن الشعور بالإجحاف لدى بعض الفئات مقطوعة الجذور من الجماهير الواسعة المغدور حقها، او ان الدولة تغري البعض بالمناصب والمنافع وبذلك تضعف المطالبة لدى الافراد بحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية.

إن الدول العربية الريعية والعراق منها، وفي فترة الخمسينات من القرن الماضي وبعد الانقلابات العسكرية التي قام بها بعض من أبناء الفلاحين العسكريين، استولوا على السلطة، قد قطعوا الطريق امام اللحظة البرلمانية للدولة وهؤلاء العسكر الريفيون تمكنوا من تأميم النفط من زيادة قوّتهم والانفاق عليها هو احد عوامل إعاقة الديمقراطية.

إن تكوّن المدينة الاوربية اكتسح الريف بالسلعة والنقود عكس المدينة العربية التي اكتسحت الريف بالقوة والنهب، لذلك كان احتجاجها ذا طابع حرفي. ثم ان عدم تمكن البلدان العربية من بناء الرأسمالية الحديثة كما حدث في أوروبا حال دون ظهور الديمقراطية احد منتجات الرأسمالية، كما ان لهيمنة وتحالف العولمة مع الأنظمة حال دون قيام الديمقراطية، وأبّدَ السلطة بيد طغمة أمّنَت للدول الرأسمالية استمرار تزويدها بالنفط كمصدر رخيص للطاقة، وأعاق قيام حكومات ذات توجه مستقل في سياستها الاقتصادية. كما أعاق إقامة الحقوق الأساسية (كالتعددية وحرية التعبير والتداول السلمي للسلطة).

من ذلك كله يتبين ان البنية المتخلفة والاحادية الجانب والريعية لاقتصاد العراق التي كرست الفقر والتهميش والاقصاء وعدم المساواة بين المواطنين وزادت نسبة البطالة والفقر، ومنهم تحت خط الفقر وانتشار الجريمة المنظمة وبروز الفساد كمنظومة عمت كل مفاصل الدولة والمجتمع وانتشار العشوائيات والبيروقراطية في دوائر الدولة وضعف الخدمات الأساسية (التعليم والصحة والكهرباء والخدمات) وتحويل الاقتصاد العراقي، بالإضافة الى ريعيته الى اقتصاد خدمي - توزيعي ضعيف الإنتاج دون توفير جهاز انتاجي متطور بالإضافة الى ضعف النظام الضريبي. كل ذلك خلق نظاما يعاني من خلل في بنيته العامة أدى الى تفاقم التفاوتات الاجتماعية، وتعميق الفرز الطبقي الاجتماعي النابع من نوعية علاقات الملكية وفوارق في مستويات الدخل لصالح فئات راكمت الثروة، إضافة الى زيادة في مديونية العراق، وركضه السريع نحو القروض، بسبب او بدون سبب لمجرد ارتهان اقتصاده وسياسته بيد الرأسمال العالمي المعولم والمنظمات الدولية (البنك وصندوق النقد الدوليان) سيّئي الصيت اللذين يفرضان شروطا مذلة على الدول المدِينة، تصل للمساس بالسيادة الوطنية.

وعليه، لا بد من الانتقال من اقتصاد ريعي الى اقتصاد مُنتج يكون هو المدخل الأساس لحياة ديمقراطية، رغم انها عملية ليست سهلة حيث تواجه مصاعب داخلية وخارجية. قوى داخلية متمثلة بالبيروقراطية والطفيلية والكومبرادورية الناشطة المستفيدة من الاقتصاد الريعي، لما تجنيه من أرباح طائلة دون جهد او عمل، اما القوى الخارجية متمثلة بمؤسسات التمويل الرأسمالي الاقتصادية والمالية انفة الذكر.

ذلك الانتقال لن يتم الا عبر نظام عابر للطوائف وبناء دولة مدنية ديمقراطية اتحادية، تقوم على العدالة الاجتماعية، وانهاء الطريق امام نظام المحاصصة الطائفي الاثني وتفكيكه، ثم قطع الصلة بالمنظمات المالية والنقدية الدولية وتجنب شروطها المذلة التي تريد تخفيض الدعم للطاقة والزراعة والمنتجات الغذائية والبطاقة التموينية خاصة، وتخفيض أجور العاملين في قطاع الصحة والتعليم والخدمات واستهداف شبكة الأمان الاجتماعي، اذ لا بد من نهج يعزز العدالة بإقامة نمط جديد للتنمية يلبي احتياجات المواطن، تنمية مستدامة بأبعاد اقتصادية اجتماعية وبيئية ترافقها زيادة في أجور العاملين في النشاط الاقتصادي، تحقق العدالة الافقية والعمودية في هيكل الأجور وإقامة نظام ضريبي تدريجي يتماشى وقوة الدخل ويبني ضمانا اجتماعيا، ويقدم اعانات للبطالة وحماية اجتماعية رصينة تخدم الطبقات الفقيرة، وتلبي الحقوق الاقتصادية والاجتماعية لهم.

ان تحديد الابعاد الأساسية للعدالة الاجتماعية بكل عناصرها الاقتصادية الاجتماعية والطبقية والمؤسساتية وبعلاقات الدولة الخارجية بالإضافة الى النظر بعين الاعتبار للأجيال القادمة ومصيرها. كل ذلك يتم ـ واكيد ـ من خلال الفكاك من التخلف الاجتماعي ــ الاقتصادي والتبعية السياسية والاقتصادية، ومن الطابع الأحادي الريعي للاقتصاد، وتحقيق تنمية شاملة ومستقلة بإيجاد ترابط بين العدالة الاجتماعية وتلك التنمية، كي يفضي ذلك الى نهج تنموي ديمقراطي حقيقي، تريده الجماهير.

المصادر:

• د.صالح ياسر، الريوع النفطية وبناء الديمقراطية– الثنائية المستحيلة في اقتصاد ريعي (بغداد دار الرواد المزدهرة 2013).

• هورست افهيلد، اقتصاد يغدق فقراً. ترجمة د.عدنان عباس (الكويت: عالم المعرفة، 2007).

• د.رمزي زكي، الليبرالية المتوحشة: ملاحظات حول التوجهات الجديدة للرأسمالية المعاصرة، (القاهرة: دار المستقبل العربي،1993).

• توماس سنتش، الاقتصادي السياسيّ للتخلّف، الجزء الثاني. ترجمة فالح عبد الجبّار (بغداد، 1978).

• الموسوعة الاشتراكية.... مجموعة مؤلفين عرب.

• علي عبد العزيز الياسري، العولمة والدولة.

• دراسة لموازنة 2019.... د. صالح ياسر.

• د.صالح ياسر، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي – محاولة في فهم الجذور (بغداد: دار الرواد، 2011).

• الحزب الشيوعي العراقي، وثائق المؤتمر الوطني العاشر، بغداد 3-1 كانون الاول 2016 (بغداد، دار الرواد المزدهرة).

وليم ستانلي جيفونز وحضور التأمين في كتبه

مصباح كمال

كغيره من علماء الاقتصاد السياسي فإن حضور التأمين في كتابات وليم ستانلي جيفونز (1835- 1882) William Stanley Jevons لا يتعدى الإشارة إلى التأمين بهدف شرح موضوع آخر. وكما سيتبين من العرض التالي فإنه لا يقدم موقفًا تجاه مؤسسة التأمين سواء على المستوى النظري أو العملي. استطعنا أن نقتفي ذكر "التأمين" في مؤلفاته التالية:

نظرية الاقتصاد السياسي (1871) The Theory of Political Economy[1]

النقود وآلية الصرف (1875) Money and the Mechanism of Exchange[2]

نظرة موجزة لنظرية رياضية عامة للاقتصاد السياسي (1862) Brief Account of a General Mathematical Theory of Political Economy[3]

سنقتبس فيما يلي الفقرات التي ترد فيها مفردة التأمين متبوعًة بتعليقنا. لأن الورقة تُركّز على التأمين فإنها ليست معنية بشكل أساسي بتقديم الحجج الاقتصادية لجيفونز أو غيره من الاقتصاديين إلا بقدر تعلقها بالتأمين.

مدخل

حسب أريك رول Eric Roll [4] فإن قيمة جيفونز تقوم بشكل أساسي على مساهمته النظرية البحتة. فهو الذي جمع الأجزاء المتناثرة من تحليل المقولات المرتبطة بالمذهب النفعي السابقة في نظرية شاملة للقيمة والتبادل والتوزيع... كما أنه بيّن اعتقاده بأن قوانين الاقتصاد يمكن اختزالها إلى بضعة مبادئ مصاغة في مصطلحات رياضية، وأن هذه المبادئ يجب أن تُشتق من "الينابيع العظيمة للفعل البشري - مشاعر اللذة والألم" [5].

عرَّف جيفونز النظرية الاقتصادية، بأنها تقوم على حساب تفاضل اللذة والألم. ففي مقدمته لكتاب نظرية الاقتصاد السياسي (1871) كتب الاتي:

حاولت في هذا العمل التعامل مع الاقتصاد باعتباره حسابا للتفاضل بين اللذة والألم Calculus of Pleasure and Pain، وقد رسمت، بغض النظر تقريبا عن الآراء السابقة، الشكل الذي يجب أن يتخذه العلم [الاقتصادي] في النهاية، كما

يبدو لي. لطالما اعتقدت أنه نظرا لأنه [علم الاقتصاد] يتعامل مع الكميات، عليه يجب أن يكون علماً رياضياً في الموضوع إن لم يكن في اللغة. لقد سعيت للتوصل إلى مفاهيم كمية دقيقة، بشأن النفع والقيمة والعمل ورأس المال، وما إلى ذلك، وقد فوجئت كثيراً باكتشاف مدى وضوح بعض المفاهيم الأكثر صعوبة، خاصة مفهوم القيمة Value الأكثر حيرة القابل للتحليل والتعبير الرياضي [6].

لو كان جيفونز مهتماً بموضوع التأمين وتطبيقاته لكان قد استفاد من نظريته حول حساب التفاضل بين اللذة والألم وكذلك من استخدامه لمفهوم المنفعة utility لدراسة موقف الأفراد من الخطر، في تجلياته المختلفة، وبالتالي دراسة الطلب على الحماية التأمينية [7].

من وجهة نظره فإن ما ينظم سلوك الأفراد، في الاستهلاك، ودون تحليل لواقعهم الطبقي، ينطبق على الاقتصاد ككل.

يجب أن أشير هنا إلى أنه على الرغم من أن النظرية تفترض البحث في حالة العقل condition of a mind، وتؤسس الاقتصاد كله the whole of Econo-ics باعتماد هذا البحث، فمن الناحية العملية، سيتم التعامل مع مجموعة من الأفراد. إن الأشكال العامة لقوانين الاقتصاد هي نفسها في حالة الأفراد والأمم. وهي، في الواقع، قوانين تعمل في حالة تعدد الأفراد الذي ينتج عنه الإجمالي المتمثل بمعاملات الأمة [الدولة] [8].

من أجل التخلص من نظرية العمل في القيمةlabour theory of value ومركزية الإنتاج في الاقتصاد فإنه حوَّل موضوع النظرية الاقتصادية والاقتصاد ككل إلى دراسة "حالة العقل". بعبارة أخرى، سيتركز اهتمام النظرية عنده ليس "بالعلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية بين الناس كمنتجين بل العلاقات السيكولوجية بين الناس والسلع" [9]. وكما كتب جيفونز في نظرة موجزة لنظرية رياضية عامة للاقتصاد السياسي فإن "القيمة تعتمد دائماً على درجة المنفعة وليس للعمل أي علاقة بالموضوع، إلا من خلال المنفعة". وهكذا فإن ما يتحكم بالاقتصاد هو الحالة السيكولوجية للأفراد وتقييمهم الذاتي للسلع. وهو، أكثر من أي اقتصادي آخر، حوّل تركيز النظرية الاقتصادية من الإنتاج إلى الاستهلاك [10].

كان جيفونز من أوائل من استخدم مصطلح "الاقتصاد" ليحل محل "الاقتصاد السياسي"، وبذلك ساهم في صياغة بعض اطروحات المدرسة الكلاسيكية الحديثة neoclassical school وكذلك نظرية المنفعة الحدية marginal utility

في تقييمه النقدي للمذهب النفعي، كتب شومبيتر أن المذهب النفعي قد لا يتمتع، كجهاز تحليل، بقيمة أكثر من قيمته في النواحي الأخرى، ونظراً، من ناحية أخرى، لعدم تردد عدة اقتصاديين في الإعلان عن أهميته الأساسية بالنسبة للنظرية الاقتصادية - إلى حد أن جيفونز عرّف النظرية الاقتصادية بأنها حساب تفاضل اللذة والألم- فمن الضروري حالاً توضيح مدى تأثير هذا المذهب على العمل التحليلي.

ويؤكد على الآتي في ما يخص الفرضيات في المذهب النفعي:

أولاً، ليس للفرضيات النفعية أي قيمة قط في قضايا تفسير التاريخ أو القضايا التي تمس القوى المحركة للتاريخ الاقتصادي. ثانياً، الفرضيات النفعية أسوأ من كونها عديمة القيمة في مواجهة المشاكل التي تتضمن قضايا المخططات الفعلية للتحفيز كما هو الحال في مشكلة آثار الإرث الاقتصادية، مثلاً. ثالثاً، الفرضيات النفعية أساسية حقاً لذلك الجزء من النظرية الاقتصادية الذي يُشار إليه عادةً باقتصاد الرفاه- الذي هو وريث نظريات القرن الثامن عشر حول مفهوم felicita pu-blica (المصلحة العامة). فنحن نتبنى عادةً هذه الفرضيات عند مناقشة مشاكل من قبيل آثار "تحويلات الثروة من الأغنياء نسبياً إلى الفقراء نسبياً". وهذا يفسر بالضبط لماذا تعجز فرضيات اقتصاد الرفاه عن إقناع أي فرد ما لم يكن مقتنعاً بها سلفاً وبغض النظر عن أي حجة. فمع أن المنهج النفعي يصلح، طبعاً، لمعالجة جانب من هذه المشاكل - شريطة الاعتقاد أنه مقبول منهجياً - فإن ذلك الجانب لا يمثل الجانب الوحيد، كما هو واضح: فنحن لا نثبت إلاّ القليل حين نبرهن على أن تحويل دولار رجل غني إلى رجل فقير يزيد الرفاه بالمعنى النفعي. رابعاً، تعتبر الفرضيات النفعية في حقل النظرية الاقتصادية بالمعنى الأضيق لهذا المصطلح غير ضرورية، ولكنها غير ضارة. فبوسعنا ذكر ومناقشة خصائص التوازن الاقتصادي، مثلاً، دون إدخالها. ولكننا إذا أدخلناها، فإن النتائج لا تتأثر بشكل ملموس ولا تفسد بالتالي. وهذا يمكّن من إنقاذ الكثير من التحليل الاقتصادي الذي يبدو، لأول وهلة، أن الفرضيات النفعية قد أفسدته بصورة ميؤوس منها [11].

هذه الملاحظات الثاقبة تؤكد أن بناء النظرية والتحليل الاقتصادي لا يمكن أن يقوم على أساس الإحساس السيكولوجي للفرد، غير القابل للقياس بوحدات مطلقة.

الاحتمال وعدم التأكد

يعرض جيفونز في الفصل الثاني من كتاب نظرية الاقتصاد السياسي الاحتمالات وعدم التأكد في الحياة: موقف عدم اليقين uncertainty فيما يخص الحوادث المستقبلية، وتقدير احتمالات وقوع الحوادث وموقفه منها باعتماد مبدأ المنفعة، أي حسابات المفاضلة بين الحوادث المحتملة وغير المحتملة، كما يلي:

في اختيار مسار العمل الذي يعتمد على الأحداث غير المؤكدة، كما هو الحاصل لكل شيء في الحياة، يجب أن أضرب كمية الشعور quantity of feeling المرتبط بكل حدث مستقبلي بالكسر fraction الذي يدل على احتماله. إنّ مصيبة كبيرة، والتي من غير المحتمل حدوثها، قد لا تكون مهمة جدا كمصيبة بسيطة من المؤكد تقريبا حدوثها. إننا دون وعي تقريبا نجري حسابات من هذا النوع أكثر أو أقل دقة في جميع الشؤون العادية للحياة، وفي أنظمة التأمين على الحياة، والحريق، والبحري، أو غيرها من أشكال التأمين، إننا نقوم بهذه الحسابات

بدرجة عالية من الكمال. في جميع الصناعات الموجهة إلى الأغراض المستقبلية، يجب أن نأخذ في الاعتبار بشكل مماثل رغبتنا في معرفة ما هو المطلوب [12].

إنّ الاحتمال مقولة رياضية يستخدم لقياس إمكانية وقوع حادث ما، وهو ما يقوم به علم الإحصاء، للتوصل إلى رقم يعبّر عن قيمة هذه الإمكانية. في غياب القياس الرياضي فإن الاحتمال يصبح موضوعا للتخمين الذاتي لأن الفرد العادي لا يستطيع الاستغراق في دراسة حالات الاحتمالات الممكنة لوقوع حادث أو حوادث معينة. ذلك هو ما تقوم به شركات التأمين اعتمادا على تجاربها السابقة أو تلك المتوفرة من مصادر أخرى ليس أقلها مجموع تجارب جميع شركات التأمين والدراسات الإحصائية والرياضية.

افتراض جيفونز أن الأفراد يقومون بحساب الاحتمالات في جميع الشؤون العادية للحياة يستلزم قناعة الأفراد بضرورة التحوط للمستقبل وما يكتنفه من أحداث محتملة. وهو افتراض فيه تعميم ذلك لأن الأفراد ليسوا متساويين في واقعهم المادي، فهم ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ولذلك، وحتى بعد حساب الاحتمالات لما قد يلحق بهم من مصائب فإن الطبقات الفقيرة غير قادرة على شراء الحماية المطلوبة من شركات التأمين. إن افتراض أن الانسان، المُستهلك، يمارس اختياراته بعقلانية، كما يقدمه الاقتصاد الكلاسيكي والنيوكلاسيكي، قابل للمساءلة في ضوء السلوك الحقيقي للناس [13]. ففكرة الإنسان الاقتصادي homo economicus الذي يسعى لتحقيق أكبر نفع له لا ينهض به الواقع، إذ أن الإنسان غالباً ما يتصرف تحت تأثير عوامل اجتماعية ونفسية وليس العوامل الاقتصادية فقط.

يضاف إلى ذلك أن الاختيار القائم على حساب الاحتمالات ونتائجها واتخاذ القرار العقلاني للتعامل معها، لا دور لهما في واقع الحياة العملية إذ أن اللجوء إلى "أنظمة التأمين على الحياة، والحريق، والبحري، أو غيرها من أشكال التأمين" قد لا يكون قراراً متعلقًا بالمستهلك، الفرد أو الشركة، بقدر ما هو امتثال للقوانين والتعليمات الرسمية. فالمقترض لبناء أو شراء دار سكن مُلزم بشراء وثيقة تأمين على الحياة لضمان تسديد القرض في حال وفاته، وكذلك تأمين الدار في حال تعرضه لحريق. وقل مثل ذلك عن بيوع البضائع عبر الحدود التي تتطلب التأمين عليها من الأخطار البرية والبحرية، وكذلك ما تفرضه بعض الجمعيات المهنية، كتلك التي تنظم عمل الأطباء والمحامين ووسطاء التأمين وغيرهم من أصحاب المهن، بإلزام العضو شراء تأمين من المسؤولية لتمكينه من ممارسة المهنة.

المنفعة: حساب المفاضلة بين اللذة والألم

في الفصل الرابع من نظرية الاقتصاد السياسي يربط جيفونز تناقص نفع المال مع تزايد ثروة الفرد.

من البديهي تقريباً أن نفع المال يتناقص مع زيادة ثروة الشخص الإجمالية؛ إذا سلّمنا بهذا، فإن الاستنتاج الآني هو أن المقامرة، في المدى الطويل، طريقة مؤكدة لفقدان النفع؛ وأن كل شخص يجب أن يقسّم

المخاطر، عندما يكون ذلك ممكنا، أي تفضيل فرصتين متساويتين من 50 جنيهاً استرلينياً على فرصة واحدة مماثلة من 100 جنيه استرليني؛ وأن إثبات فائدة التأمين بأنواعه يقوم على نفس النظرية [14].

القول إنه "من البديهي تقريباً أن نفع المال يتناقص مع زيادة ثروة الشخص الإجمالية" مسألة قابلة للنقاش. فلو صحَّ هذا القول فإن أصحاب الثروات سيتوقفون عن مراكمة المزيد من الثروة، وأن "مشاعر اللذة" بلغة جيفونز أو الجشع لتحقيق المزيد سيصل إلى نهايته، وهو ما يكذبه الواقع. وبحسب ماركس فإن الرأسمالي مدفوع بقوة النظام إلى التراكم.

ليس واضحا، بالنسبة لي، ما الذي يعنيه جيفونز "أن كل شخص يجب أن يقسّم المخاطر، عندما يكون ذلك ممكنا، أي تفضيل فرصتين متساويتين من 50 جنيهاً استرلينياً على فرصة واحدة مماثلة من 100 جنيه استرليني؛ وأن إثبات فائدة التأمين بأنواعه يقوم على نفس النظرية". هل هو بلغة جيفونز المفاضلة في لحظة معينة بين معيار اللذة (الشعور بنفع الحماية التأمينية والاستعداد لدفع مبلغ مقابل ذلك) ومعيار الألم (الشعور بآثار الخسارة)؟ هل هي المفاضلة بين حدّين متساويين: فرصة الاحتفاظ بـ 50 جنيها (نفع حيازة المبلغ) وفرصة الافتراق عن هذا المبلغ وفرصة الافتراق عن هذا المبلغ لصالح شراء حماية التأمين (ألم "خسارة" المبلغ)؟ هل هي المفاضلة بين إنفاق مبلغ على شراء التأمين أو إنفاق نفس المبلغ على شيء آخر؟

المنفعة، وفق جيفونز في كتابه نظرية الاقتصاد السياسي، هي تلك الصفة الموجودة في أي شيء، سلعة ما مثلًا، التي تنتج المتعة أو تمنع الألم شريطة الأخذ بعين الاعتبار ميل أو إرادة الفرد المعني كمعيار وحيد وقت اتخاذ القرار لما هو مفيد أو غير مفيد. النفع، بعبارة أخرى، كما يؤكد أريك رول، ليس صفة كامنة في الشيء، فهو يعبر عن علاقة بين الفرد والشيء، الذات والموضوع [15].

وجرياً وراء الاقتصاديين الكلاسيكيين من طبقة آدم سميث وديفيد ريكاردو، يبين كارل ماركس في المجلد الأول من رأس المال:

إن منفعة utility شيء من الأشياء تجعله قيمة استعمالية use value بيد أن هذه المنفعة ليست معلقة في الهواء. إنها محددة بالخصائص المادية للسلعة، ولا وجود لها بمعزل عن جسد السلعة عينها. وعليه فإن جسد سلعة ما، كالحديد والقمح والماس، إلخ، يؤلف قيمة استعمالية، أي شيئاً مفيداً. وهذا الطابع الذي يتسم به جسد السلعة مستقل عن كثرة أو قلة العمل الذي ينفقه الإنسان للاستحواذ على صفاتها النافعة [16].

هناك إشكالية تتمثل بحقيقة أن منفعة التأمين utility of insurance ليس آنيا بل يتجلى وقت تسديد قيمة التعويض، أي أنها منفعة متأخرة في حين أن شراء المنفعة الآن، يترتب عليه تسديد قسط التأمين لقاء التمتع بالمنفعة في المستقبل.

إن منفعة التأمين قابلة للقياس ولكن

ضمن شروط وثيقة التأمين، والمنفعة هنا هي ما يقابل التعويض المالي الذي يحصل عليه المؤمن له في حالة وقوع خسارة أو ضرر متفق عليها في الوثيقة. وقد لا تكون المنفعة كاملة إذ أن المؤمن له، وفي معظم وثائق التأمين عدا تأمينات الحياة والحوادث الشخصية، يتحمل مبلغا مقطوعا أو نسبة محددة من قيمة الخسارة، وهو ما يعرف بالاستقطاع أو التحمل أو الخسارة المهدرة deductible/excess.

إن التأمين لا يتوخى تحقيق الربح للمؤمن له بل إعادته، مالياً، إلى وضعه الذي كان عليه قبل وقع الخسارة أو الضرر. ولكنه كنشاط اقتصادي في اقتصاد رأسمالي يستهدف الربح.

موقع التأمين في الإنتاج المادي

في الفصل الثامن من كتاب نظرية الاقتصاد السياسي الذي يضم الملاحظات الختامية يكتب جيفونز، فيما يخص موقع التأمين في الإنتاج المادي، إن:

كل عامل يتسلم في نهاية المطاف القيمة المستحقة من إنتاجه بعد أن يدفع جزءا مناسبا [من هذه القيمة] للرأسمالي كأجر للامتناع [من الانفاق على الاستهلاك والملذات] والمخاطرة. وفي نفس الوقت، يتلقى العمال بدرجات مختلفة من المهارة حصصا مختلفة جدا وفقا لما يساهمون به في نوع مشترك أو نادر من العمل في الناتج.

الرأي الذي أقبله بشأن معدل الأجور rate of wages ليس أكثر صعوبة في الفهم من النظرة الحالية. وهو أن أجور الرجل العامل تتطابق في نهاية المطاف مع ما ينتج، بعد خصم الريع والضرائب والفائدة على رأس المال. أعتقد أنه في المعادلة ادناه

الناتج = الربح + الأجور،

فإن كمية الناتج هي المتغير variable بشكل أساسي، وأن الربح هو الجزء الذي يجب تحديده أولا. إذا حللنا الربح إلى أجور الإشراف، والتأمين ضد المخاطر، والفائدة، فإن الجزء الأول هو في الواقع الأجور نفسها؛ والثاني يعادل النتيجة في الاستخدامات المختلفة [استخدام العمال في أنشطة إنتاجية مختلفة]. وأعتقد أن الفائدة [على رأس المال المقترض] تتقرر، كما هو مذكور في الفصل الأخير. سيلاحظ القارئ التكييف المهم أن الأجور تتحدد في نهاية المطاف – أي في المدى الطويل اعتمادا على متوسط average أي فرع من فروع الاستخدام [17].

تأتي هذه الفقرة في سياق نقد نظرية ريكاردو حول وجود معدل طبيعي اعتيادي لأجور العمال العاديين: الثمن الطبيعي للعمل، كأية سلعة أخرى، هو الذي يمكّن العمال من العيش في مستوى الكفاف. فالرأسمالي يخصص مبالغ من رأس المال لدفع أجور العمال؛ وعليه يمكن التوصل إلى معدل الأجور بقسمة ما هو مخصص للأجور على عدد العمال المستعدين للعمل لدى الرأسمالي. جيفونز لا يقبل بهذه النظرية. وهو هنا ينظر إلى أجور العمال بأنها حصيلة ما ينتجونه بعد استقطاع

"أجور الإشراف، والتأمين ضد المخاطر، والفائدة." ويبدو هذا القول غريبا لأنه لا يتطابق مع إنكار جيفونز أن يكون العمل مصدر القيمة، فمن رأيه أن العمل المبذول على إنتاج سلعة يختفي ويندثر [في عملية الإنتاج] [18].

"إن أجر العامل في نهاية المطاف يتطابق مع ما ينتجه بعد استقطاع الريع [العائد لصاحب الأرض] والضرائب وفوائد رأس المال" [19]. وهكذا فإن الأجور هي الحصة المتبقية من الناتج الكلي total product ولكنه هنا يهمل ذكر كلفة التأمين من المخاطر.

يصنّف جيفونز التأمين مع الريع، والفائدة، والربح، والضرائب ضمن تكاليف الإنتاج. وكان ماركس من أوائل من نظر إلى التأمين كأحد أشكال النفقات التشغيلية للمشروع الرأسمالي [20].

دور التأمين في تسهيل نقل النقد والأشياء الثمينة

يرد ذكر التأمين أيضا في الفصل الخامس من كتاب النقود وآلية الصرف Money and the Mechanism of Exchange:

إنّ إمكانية نقل النقود صفة مهمة ليس لمجرد أنها تُمكّن المالك من حمل مبالغ صغيرة في الجيب دون عناء، بل لإمكانية تحويل مبالغ كبيرة من مكان إلى آخر، أو من قارة إلى أخرى، بتكلفة قليلة. والنتيجة هي ضمان التوحيد التقريبي في قيمة النقود في جميع أنحاء العالم. إن مادة ثقيلة وكبيرة جداً بالنسبة إلى قيمتها، مثل الذرة أو الفحم، قد تكون نادرة جداً في مكان واحد ومتوفرة بإفراط في مكان آخر؛ ومع ذلك لا يمكن تعادل العرض والطلب دون تكاليف باهظة في النقل. وتبلغ تكلفة نقل الذهب أو الفضة من لندن إلى باريس، بما في ذلك التأمين، حوالي أربعة أعشار واحد في المائة؛ وبين الأجزاء الأكثر بعدا في العالم لا تتجاوز 2 إلى 3 في المائة [21].

الفصل الخامس يحمل عنوان "مزايا مادة النقود" وقد فصّلها جيفونز تحت العناوين الفرعية التالية: المنفعة والقيمة Utility and value، إمكانية النقل Portability، عدم التدمير Indestructibility، التجانس Homogeneity، قابلية التجزئة Divis-ibility، استقرار القيمة Stability of value، قابلية التمييز Cognizability. والاقتباس هنا ينصب على توضيح ميزة نقل النقود وسهولة حملها وشحنها من مكان إلى آخر.

إن التأمين الذي يشير إليه جيفونز هنا هو نمط من التأمين البحري على الأشياء الثمينة أثناء النقل، كسبائك الذهب والفضة وكذلك المجوهرات والأحجار الكريمة والأوراق المالية الثمينة والأعمال الفنية والنقود، الورقية والمعدنية، يُعرف باسم specie insurance. وقد تطور هذا التأمين ليغطي الأشياء ذات القيمة العالية أثناء وجودها في خزائن طالب التأمين أو طرف ثالث أو أثناء النقل البري أو البحري. في العادة يكون غطاء الوثيقة على أساس التأمين من الخسائر والأضرار

المادية الناشئة من "جميع" الأخطار. كما يمكن أن يكون غطاء الوثيقة من أخطار محددة كالحريق والفيضان والعواصف والسرقة.

دور وسيط التأمين

في الفصل العاشر من كتاب النقود وآلية الصرف يُفصّل جيفونز، بعد ذكره للتوفير الكبير في تمرير أوراق تمثل العملة الذهبية مثلا بدلا من العملة نفسها، التوفير الأكبر في استخدام ما يمكن أن نسميه نظام الشيكات والمقاصة Cheque and Clea-ing System، حيث لا يتم دفع الديون، بقدر ما تتم موازنتها مع بعضها البعض. ويمكن العثور على أصل هذه الطريقة في الممارسة العادية للقيود الدائنة book credit. فإذا كان لدى شركتين معاملات متكررة مع بعضهما البعض، الشراء والبيع بالتناوب، فسيكون من السخف إهدار المال لتسوية كل دين على الفور، عندما ينشأ دين مقابل في الاتجاه المعاكس في غضون أيام قليلة. وفقا لذلك، من الممارسات الشائعة للشركات التي لديها معاملات متبادلة، أن تسجل القيود المدينة والدائنة بينها مع الديون الناشئة عن كل معاملة، والاكتفاء بتسديد دفعة نقدية عندما يصبح الرصيد كبيراً بشكل غير مريح [22].

وفي نفس الفقرة يأتي على ذكر دور وسيط التأمين في ممارسة هذا النمط من تسوية الأرصدة إذ يقول إن:

سمسار التأمين يعمل كوسيط بين مالكي السفن والمكتتبين الذين يؤمنون مجتمعين تلك السفن بحصة معينة [يحددها كل مكتتب بنفسه]. وبفضل نظام التأمين بحصص، على الوسيط تسديد العديد من الدفعات الصغيرة إلى المكتتبين، وهي الأقساط على وثائق التأمين، ويتسلم في فترات زمنية مبلغ التعويض [من المكتتبين] عن خسارة أي سفينة مؤمنة. من الشائع تجنب الدفعات النقدية؛ إذ يقوم الوسيط بتسجيل الأقساط كقيود دائنة للمكتتبين وتسجيل الخسائر كقيود مدينة، ويدفع فقط أو يستلم الرصيد عندما يكون كبيرا [23].

يشير جيفونز هنا إلى دور الوسيط في إجراء التأمين لمالكي السفن لدى عدد من المكتتبين، ودوره في استلام أقساط التأمين من المؤمن لهم ومبالغ التعويض من المكتتبين، وتسويته للأرصدة الدائنة للمكتتبين والأرصدة المدينة للمؤمن لهم. وهذه هي الفقرة الوحيدة في كتاباته التي تضم مادة حقيقية عن جانب من النشاط التأميني.

ربما كان جيفونز متفرداً بين أقرانه بالإشارة إلى وسيط التأمين ودوره في العملية التأمينية في مجال التأمين البحري رغم أن جذور تاريخ وساطة التأمين في بريطانيا تعود إلى القرن السادس عشر [24].

إن نظام التأمين على أساس الحصص، وهو اكتتاب كل مكتتب بحصة، أي بنسبة مئوية، من الخطر هو الشائع في سوق لويدز، إذ يقوم وسيط التأمين بإعداد قسيمة slip تضم بيانات خاصة بالخطر المراد التأمين منه كاسم المؤمن له ومحل التأمين ومبلغ التأمين وشروط التأمين وغيرها.

ويعرض الوسيط القسيمة على مكتتب متخصص في فرع التأمين، ليكون المكتتب الأول/ المكتتب القائد leading unde-writer، الذي يثبت الحصة التي يرغب بالتأمين عليها ويمهرها بدمغة النقابة الاكتتابية التي يعمل لها وإمضائه. وبعدها يمرر الوسيط القسيمة لمكتتبين آخرين للاكتتاب بحصصهم حتى يكمل تغطية الخطر بنفس الشروط والأسعار التي حددها المكتتب القائد. وما يزال هذا النظام قائماً في لويدز وسوق لندن[25].

فيما يخص دور وسيط التأمين البحري في احتفاظه بالقسط واستلامه لمبلغ التعويض، كما يعرضه جيفونز في هذا الاقتباس، فإنه تجسّد فيما بعد في المادة 52 من قانون التأمين البحري الإنجليزي لسنة 1906 [26].

رأس المال والخطر

يعرض جيفونز في مبحثه نظرة موجزة لنظرية رياضية عامة للاقتصاد السياسي Brief Account of a General Mathematical Theory of Politi-cal Economy (1982)

نظرته لقوانين الاقتصاد على أنها قابلة للاختزال إلى عدد من المبادئ يمكن صياغتها رياضيا، ويمكن اشتقاقها من منابع الفعل البشري المتمثلة بمشاعر اللذة والألم. ففي الفقرة 3 يقول:

نتعامل دائما مع المشاعر على أنها قادرة على إمكانية أن تكون أكثر أو أقل، وأعتقد الآن أنها كميات قابلة للبحث العلمي.

إن تقديرنا للمقادير المقارنة للشعور يتمثل في أداء فعل الاختيار أو الإرادة. إن اختيارنا لمسار واحد من بين مسارين أو أكثر يُثبت، في تقديرنا، أن هذا المسار يَعِدُ بأكبر قدر من اللذة[27].

وفي الفقرة 27 التي يختم بها مبحثه يقول جيفونز:

بعد أن أوضحت على هذا النحو بعض السمات الرئيسية للنظرية، سأختتم [هذا المبحث] دون الدخول في التعقيدات الأعلى للموضوع، حيث يؤخذ بالحسبان آثار النقود، والائتمان، واتحاد العمال، والمخاطر أو عدم اليقين من المشاريع، والإفلاس.

وستكون النتيجة الأخيرة للنظرية هي تحديد معدلات الأجور، أو إنتاج العمل produce of labour بعد خصم الريع، والفائدة، والربح، والتأمين والضرائب، وهي عدد من الدفعات يصنعها العامل للفوائد المُستمتع بها are so many pa-ments which the labourer makes (for advantages enjoyed. (28

وسيقوم في كتابه نظرية الاقتصاد السياسي (1871) بإثبات الخطوط العامة التي عرضها في هذا المبحث وكذلك منهجه الرياضي ومذهب اللذة hedonism.

يمكن النظر إلى الخطر Risk في مجال التأمين على أنه الخسارة المحتملة القابلة للحساب اعتماداً على الأسس الإحصائية ونظرية الاحتمالات. كما يمكن النظر إلى عدم التأكد/ عدم اليقين uncertainty على أنه تعبير عن الحالة المعنوية للفرد تجاه وقوع/ عدم وقوع خسارة معينة، وهو موقف يرى البعض أنه لا يخضع دائماً للقياس

الكمي بسبب عدم القدرة على التنبؤ وعدم دقة المعلومات الضرورية لتحديد التنبؤ، في حين يرى آخرون إمكانية استخدام نظرية الاحتمالات لقياس درجة عدم التأكد.

إن ما يهم جيفونز هو النظر إلى الاقتصاد من موقف صاحب رأس المال في التعامل مع خطر تأسيس المشاريع أو عدم التأكد منها. الخطر هنا له جانبان:(1) اتخاذ قرار تأسيس المشروع من عدمه حيث تنشأ مشكلات الجدوى الاقتصادية والتنبؤ وتوفير مصادر التمويل إلخ، و(2) التنفيذ الفعلي له، وهو ما يحتاج إلى شراء عدد من وثائق التأمين.

وبالنسبة لشركة التأمين فإننا نعرف بأن المشكلة الدائمة التي تواجهها تتمثل بتعدد وتعقد المتغيرات حيث يصبح الربط بين ما تقوم به الشركة من نشاط ومخرجات هذا النشاط ضعيفا، وبالتأكيد عرضة للتقلبات العشوائية. ولذلك فإن شركة التأمين تلجأ إلى الدراسة الاكتوارية، والتخطيط لأعمالها وتنظيم شراء حماية إعادة التأمين، لاحتواء هذه المشكلة قدر الإمكان، ذلك لأن المستقبل، المجهول غير المعلوم، يتصف في ذات الوقت بشيء من الحتمية deterministic القابل للقياس مثلما هو غير قابل للمعرفة بدرجة عالية من اليقين.

بعد هذا العرض، نرى أن جيفونز لم يقدم أية مساهمة حقيقية في مجال التعامل النظري أو التطبيقي مع مؤسسة التأمين، واكتفى بمجرد الإشارة إلى التأمين دون أن يقدم شرحاً له أو للمبادئ والأركان التي تنتظم مؤسسة التأمين. وهذا رغم تزايد حضور التأمين في الحياة الاقتصادية في بريطانيا من خلال سوق لويدز وشركات التأمين. ومن المفارقات أنه في نفس السنة التي نشر فيها كتابه نظرية الاقتصاد السياسي صدر قانون لويدز لسنة 1871 الذي أرسى قواعد الرقابة الداخلية لعمل لويدز إضافة إلى أمور أخرى والتي كانت منسجمة مع الفلسفة الليبرالية في عدم إقحام الدولة في مسائل الرقابة على النشاط الاقتصادي.

الهوامش:

1- يمكن قراءة النص الكامل للكتاب باستخدام هذا الرابط:
https://www.econlib.org/library/YPDBooks/Jevons/jvnPE.html?chapter_num=1#book-reader

2- يمكن قراءة النص الكامل للكتاب باستخدام هذا الرابط:
https://oll-resources.s3.us-east-2.amazonaws.com/oll3/store/titles/318/Jevons_0191_EBk_v6.0.pdf

3- يمكن قراءة النص الكامل للكتاب باستخدام هذا الرابط:
https://www.marxists.org/reference/subject/economics/jevons/mathem.htm

4- أريك رول (1907-2005)، كان أستاذًا للاقتصاد في(University College of Hull (1935-1939. شغل منصب نائب رئيس هيئة تجهيزات الغذاء خلال الحرب العالمية الثانية، ومثل بريطانيا في مناقشات باريس حول مساعدات مارشال، وشغل فيما بعد مواقع حكومية أخرى، وكان مديراً لجريدة التايمز. أشهر كتاب له هو تاريخ الفكر الاقتصادي (1938) الذي نشر في عدة طبعات لاحقًا.

Eric Roll، A History of Economic Thought (London: Faber and Faber، 1973 [1st Ed 1938])، p 379، 380. -5

W. Stanley Jevons https://www.econlib.org/library/YPDBooks/Jevons/jvnPE.html -6

سيقوم بذلك فريدمان وسافج سنة 1948: -7

Milton Friedman، L. J. Savage، "The Utility Analysis of Choice Involving Risk،" The Journal of Political Economy، Volume 56، Issue 4 (Aug.، 1948)، 279-304.

W. Stanley Jevons، The Theory of Political Economy، (London: Macmillan، 1888) 3rd ed، 1st ed 1871، Chapter I، Introduction -8

https://www.econlib.org/library/YPDBooks/Jevons/jvnPE.html?chapter_num=5#book-reader

Michael Perelman، The Invisible Handcuffs of Capitalism (New York: Monthly Review Press، 2011)، p 69; this is a quote from Ronald L. Meek، "Marginalism and Marxism،" History of Political Economy، Vol. 4 (1972): 499-511. -9

Perelman، op cit، p 95. -10

جوزيف أ. شومبيتر، تاريخ التحليل الاقتصادي، المجلد الأول، ترجمة د. حسن عبد الله بدر (2015)، ص 131 من نسخة ما قبل الطبع التي وفّرها لي د. بدر في وقت سابق لأغراض البحث، فله جزيل شكري. -11

في تقديمه للترجمة يقول د. بدر إن "الترجمة هي نفسها كما وردت في طبعتها الأولى التي صدرت في عامَيْ 2005 و 2006 عن المجلس الأعلى للثقافة والفنون في القاهرة (المركز القومي للترجمة حالياً)".

https://www.econlib.org/library/YPDBooks/Jevons/jvnPE.html?chapter_num=6#book-reader -12

Howard C. Kunreuther، Mark V. Pauly، Stacy McMorrow، Insurance & Behavioral Economics (New York: Cambridge University Press، 2012) -13

Jevons، The Theory of Political Economy; Chapter 4 -14

(15) Eric Roll، A History of Economic Thought (London: Faber and Faber، 1973 [1st Ed 1938])، p 379. -15

كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، ترجمة د. فالح عبد الجبار (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 64. -16

https://en.wikipedia.org/wiki/Use_value#:~:text=The%20utility%20of%20a%20thing%20makes%20it%20a%20use%20value.&text=The%20use%20values%20of%20commodities،social%20form%20of%20that%20wealth

Jevons، The Theory of Political Economy; Chapter 8 -17

https://www.econlib.org/library/YPDBooks/Jevons/jvnPE.html?chapter_num=12#book-reader

Roll، op cit، p 382. -18

Roll، op cit، p 383. -19

مصباح كمال، التأمين في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، فصل "كارل ماركس والتأمين." كتاب معروض للنشر -20

Jevons، Money and the Mechanism of Exchange،Chapter V. Qualities of the Material of Money -21

22- Jevons، Money and the Mechanism of Exchange، Chapter XX. Book Credit and the Banking System

23- Jevons، op cit

24- Hugh Cockerell and Gordon Shaw، Insurance Broking and Agency: the Law and Practice (London: Witherby & Co، 1979)، p 4.

Frederick Martin، The History of Lloyd's and of Marine Insurance in Great Britain (London: Macmillan، 1976)، p 37.

25- (25) للتعريف المختصر بجماعة اللوبدز، ووظيفة وسيط التأمين، وكيفية إجراء التأمين في سوق لويدز، راجع: جمال الحكيم، التأمين البحري: دراسة علمية عملية قانونية (القاهرة: د. ن.، ط1 1955، ط2 1979)، ص 22-18. رغم قدم هذا الكتاب فإن الممارسات الأساسية التي ذكرها ما زالت قائمة.

26- أنظر ترجمة بهاء بهيج شكري للقانون في كتابه التأمين في التطبيق والقانون والقضاء (عمّان: دار الثقافة، 2007)، ص 842.

27- William Stanley Jevons، Brief Account of a General Mathematical Theory of Political Economy، 1866. https://www.marxists.org/reference/subject/economics/jevons/mathem.htm

28- Jevons، op cit.

نصوص قديمة

من تاريخ الحركة النقابية العمالية العراقية *

د . عبد الحميد بخش

احداث تاريخية هامة تشكل اضاءات ساطعة في تاريخنا الشيوعي في العراق، احتفلنا بذكرى قسم منها في شباط واذار. ونحتفل بقسم آخر هذه الايام أو سنحتفل بها في الاشهر القادمة. حفزتني الى استذكار لحظات ومنعطفات في ارثنا النضالي. انها لحظات ومنعطفات في تاريخ حزبنا الشيوعي. وهي بعض وليس كل الحلقات التي تربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل، بين تأسيس الحزب ونضاله وتضحياته وشهدائه، وبين شموخه هذه السنوات الطوال أمام الارهاب الدامي ومخاطر الموت ومآسي وجرائم الفاشية، وبين ما يرسمه للمستقبل وللمسيرة الصعبة المعقدة القادمة. وفي زخم الاحداث وتعقيدات ومهمات الزمن، يقف الانسان متجولا في ذاكرته بين ما تم وما ينبغي صنعه. وبين الاثنين صلة لا تنقطع وما لا يحصى من معالم التواصل الثوري. وفي قلب كل ذلك ينتصب حزب الطبقة العاملة العراقية شامخا وهاديا وملهماً. وواحد من ينابيع قدرته على التواصل في النضال وفي الصمود وتخطي المصاعب والمنزلقات، ارتباطه بالطبقة العاملة العراقية والإيمان بدورها وتعبيره الصادق عن مصالحها في اليوم القريب والغد البعيد، وتفانيه في سبيل تحقيق اهدافها.

ومن هذا التاريخ، تختار صفحة مجيدة من سِفره، ترتبط بإنشاء الحركة النقابية الطبقية العمالية العراقية ونشاطها.

البداية

البحارة والقريبون الى البحر يعرفون كيف يبدأ البحر بالهيجان، فمن موجات صغيرة منعشة، الى موجات كبيرة في عمق البحر بلا رذاذ ولا زبد، يسميها رجال البحر (الامواج الدفينة)، فأمواج عملاقة مزمجرة تعلو الى السماء. في عام 1942 بدأت موجات النهوض العمالي تتحرك منعشة الآمال. فقوى العمل والخلق والإبداع أخذت تتململ وتنفض عن نفسها، رويدا رويدا، تلال الاستكانة للعذابات والمظالم ومآسي الحرب والفاشية وذل العبودية، وكان هناك نداء يستحثها لليقظة بأن عالم العمل لم يعد يطيق سبات النيام. واخذ التململ يتحول الى دبيب ثم فحركة تعلو وتسرع مع وقع الانتصارات التي تحققها قوى الديمقراطية والاشتراكية في العالم ضد الحرب والفاشية، ومع كل

منجز صغير يحققه الحزب في ميدان الدعاية والتحريك والتعبئة والتنظيم. وتصاعد النهوض البروليتاري على قرع الشيوعيين لأجراس النضال. فاختطت اصوات صفارات المعامل بزئير القطارات والبواخر وهسيس النيران المشتعلة عند آبار النفط وهدير المكائن والحفارات والآلات بهتافات العمال المضربين والمتظاهرين لتشكل لحن وأنشودة المسيرة الثورية الجديدة في أرض العراق.

كانت اولى خطوات هذه المسيرة في معسكرات الجيش البريطاني، تقود من نصر الى آخر. جاء في تقرير اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي، كانون الاول عام 1942، "ان حزبنا بالرغم من حراجة الظروف ومقاومته لها سار قدما الى الامام متغلغلا في صفوف الطبقة العاملة العراقية ناشرا الوعي بين اكثرها فعالية وثورية محشّدا صفوفها مرشدا إياها مؤيدا لها في اعلان اضراباتها المتعددة في سبيل نيل أبسط مطالبها المشروعة تلك الاضرابات التي انتهت جميعها بالفوز المبين".

كل نصر في ميدان النضال البروليتاري يرجع الى التنظيم ويؤدي الى مزيد من توطيد وتوسيع التنظيم. ومع اتساع التنظيم يتسع ويتعاظم ويتعمق محتوى النضال. وبالتنظيم والنضال كانت تتحقق المنجزات.

من عايش الأربعينات، فالخمسينات، ثم منتصف الستينات، حيث شهدت الساحة النضالية صعودا في تنظيم ونضال العمال المهني والاقتصادي والسياسي، يتلمس هذه الوحدة والعلاقة بين التنظيم والنضال، ويشعر الآن ايضا بضرورتها وبواجب النهوض بها. وقد أوضح الرفيق فهد هذه الحقيقة العلمية المدعومة بالتجربة العملية عام 1944 قائلا: "ان الطبقة البروليتارية العراقية، ورغم حداثة عهدها وقلة اختباراتها في التنظيم والنضال وضعف النظرية الثورية، فإنها سائرة على هذا الطريق، طريق النضال من اجل التنظيم، ومن اجل ترقية أحوالها وتحسين ظروف عملها، وفي اكتشاف التجارب والنظرية الثورية". وبهذا الاتجاه، تحرك الشيوعيون كالنحل في كل مكان و(الميثاق الوطني في يمينهم وشعارات مؤتمر التنظيم في يسارهم)، يبنون في كل مشروع ومصنع ومشغل وحي عمالي ركيزة او خلية حزبية، يستحثون العمال الى التنظيم والنضال والوحدة والتضامن الطبقي من أجل مطالبهم الملحة ومن اجل التحرر والديمقراطية، بربط النضال الاقتصادي بالسياسي مستفيدين من عِبر الماضي اعوام 1929 – 1937 حين كانت "حركة الطبقة العاملة تلاقي انتكاسات وجزرا.... التي ترجع أسبابها، اضافة الى حداثة الطبقة العاملة، الى ان نضالها من اجل قضاياها الخاصة مرتبط في مرحلتنا هذه كل الارتباط بالحركة الوطنية التحررية وبالنضال من اجل الحقوق الديمقراطية

لكافة الشعب. ولعدم فهم الارتباط الوثيق بين حركة العمال والحركة التحررية الديمقراطية، لم يستطع العمال الصمود امام هجوم الرجعية على نقاباتهم، فاغلقت النقابات في سنتها الثانية أو الثالثة، وكان مصير الحزب الشيوعي عام 1937 مثل مصير النقابات، لذلك اقتصر نضالهم على حركات موضعية منعزلة ذاتية، لم تمكنهم من توسيع حقوقهم حتى ولا المحافظة على ما كانوا يربحونه في معاركهم مع اصحاب الاعمال (فهد- تقرير امام المؤتمر الحزبي – الكونفرنس- عام 1944). ان هذه الصلة والارتباط بين القضايا الخاصة للطبقة العاملة والمهمات الوطنية والديمقراطية للحركة الوطنية، جسّدها ويجسّدها الحزب في نهجه وسياسته وعمله التنظيمي ودوره في الحركتين، العمالية الجماهيرية والوطنية، كما يجسدها نضال العمال من اجل مطالبهم الاقتصادية والحقوق النقابية، ومن اجل تشريعات عمل تقدمية، ومن خلال النضال من اجل الحريات الديمقراطية والسياسية لكل الشعب. ووقوف العمال وطليعتهم السياسية ضد التعسف والإرهاب بصرف النظر عن الطبقة او الفئة الاجتماعية اللتين تمارسانها.

مهمات وواجبات

أي شكل من اشكال التنظيم النقابي للعمال كان ينبغي اقامته وتثبيته، ما هي ضروراته الموضوعية والامكانيات الذاتية لدى العمال وطليعتهم، التي كان ينبغي اعدادها وتعبئتها واستخدامها لوضع اسس بناء هذا التنظيم، ومن ثم استكمال تشييد قاعدته وهياكله وبقية مقوماته، وما هي طرق استقراره وتطوره؟ هذه القضايا التي طرحتها الحياة قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، وباتت تتطلب الإعداد لما تفرضه ظروف وحاجات النضال لما بعد الحرب من اجل التحرر الوطني والديمقراطية. وكان ينبغي بحثها وتخطيط العمل لحلها بما يتناسب مع الامكانيات الواقعية المتوفرة في الظرف التاريخي القائم آنئذ. وبدون ذلك لن يكون العمل هادفا ومثمرا، ولا يدلل على ان الحركة العمالية، ولا طليعتها، قد استفادتا من تجربتها الماضية بما ينفع مستقبلها.

حدّد باني حزبنا الرفيق فهد هذه القضايا في الوقت المناسب، وخطّط وهيّأ ما يلزم لتأخذ طريقها للحياة. ففي العديد من المقالات والدراسات التي نستند إليها ونتذكرها في موضوعنا الذي نقدمه للقراء، اعطى وضوحا نظريا للجوانب السياسية والعملية المتعلقة بموضوع بناء حركة نقابية جماهيرية معاصرة للعمال، واصدر الحزب بتوجيهه المباشر عددا من النشرات والتوجيهات الداخلية والرسائل الى المنظمات الحزبية والمسؤولين عن تنفيذ العمل لتحقيق ذلك، وأعد بجهوده الشخصية، وبالتعاون مع الرفاق الاخرين (زكي بسيم في بغداد، وسامي نادر في البصرة وغيرهما) كوكبة من الكوادر

العمالية لقيادة العمل الحزبي بين العمال، ولقيادة العمل النقابي الجديد. ويمكن عرض ظروف ووجهات عمل الحزب في هذا المجال بما يأتي:

أولا- على الحركة النقابية ان تضم جميع المشاريع الصناعية وان تضم الاكثرية الساحقة من العمال الماهرين وغير الماهرين وذلك لأنه:

أ. اذا اقتصرت الحركة النقابية على بضع صناعات ثانوية ذات طابع حرفي فستبقى ضئيلة الأثر في حياة الطبقة العاملة ونضالها ويصبح من السهل على اعداء الحركة تعطيل اعمالها او تعطيلها نهائيا في اول فرصة ملائمة لهم، كما حدث فعلا للنقابات في اوائل الثلاثينيات دون ان تستطيع الدفاع عن نفسها.

ب. ليست مشاكل العمال العراقيين منشؤها محلات عملهم بالذات، وان مجموعة كبيرة من مشاكلهم تتطلب السعي من اجل حلها خارج محلات عملهم، ومنها قضايا الاحتكار والغلاء ومساكن العمال وقضاياهم الصحية والاجتماعية والتثقيفية، قضية البطالة وإيجاد العمل للعاطلين، قضية تصنيع القطر، اصدار التشريعات لتحسين ظروف العمل... الخ. ومثل هذه المطالب لا يكفي لتحقيقها نضال قسم صغير من العمال، بل تتطلب جهود اكثرية الطبقة العاملة منتظِمة في نقابات كبيرة وثابتة.

ثانيا – يجب تعيين واجبات الحركة النقابية تعيينا دقيقا يتفق وصفتها، يتفق وظروف الطبقة العاملة والاوضاع القائمة. فكل تقدير زائد للحركة العمالية فوق طابعها النقابي او الإقلال من اهمية الحركة العمالية، يفصل بين الطبقة وطليعتها ويؤدي الى سيطرة العناصر الفاسدة على الحركة النقابية لإخضاعها او قتلها قبل ان تنمو وتقوى.

ثالثا- ان نضال الطبقة العاملة يتطلب ان يكون جميع العمال المشتغلين في الاعمال الحيوية لاقتصاد القطر ولحياة الشعب في نقابات، وان تسير هذه النقابات جميعها في اتجاه واحد، وإلا اختل توازن حركة الطبقة العاملة، وصعب عليها الوصول الى أهدافها.

رابعا- من الضروري ان تضم الحركة النقابية جميع المشاريع وجميع اصناف العمال، وان تصبح كلمة "النقابة" شعار العمال اليوم، وان يتغلغل الواعون بين جميع اقسام العمال، وفي جيوبهم قانون العمل ونظام احدى النقابات، فيشرحون لهم فوائد النقابة وضرورتها بالنسبة لحياة العمال في الظرف الراهن والمستقبل. وعليهم ان يقنعوهم بتأليف النقابات ويرشدوهم ويساعدوهم على وضع انظمة النقابات، ويبسطوا لهم كيفية تقديمها والمراجعة المستمرة للحصول على الاجازة ... الخ.

خامسا – ان المهمات الكبيرة التي تجابه العمال لا تتطلب جهود اكثرية الطبقة البروليتارية المنتظمة في نقابات كبيرة وحسب، بل اسناد جماعات وطنية، سياسية وغير سياسية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي.

سادسا – على العاملين في الحركة النقابية الراهنة بعد ان يتفهموا جيدا صفتها النقابية وطابعها التنظيمي والظروف المحيطة بها، ان يبذلوا جهودهم للوفاء بالشروط التي تتطلبها الحركة في مرحلتها الاولى، وهي تأسيس وتثبيت النقابات. وهذه الشروط التي نسعى لتأمينها هي:

أ. ان يضم التنظيم جميع المشاريع الصناعية، آلية وغير آلية، وان يضم الاكثرية الساحقة من العمال.

ب. تثبيت النقابات وتقويتها والدفاع عنها، والحيلولة دون التفريق بين العمال.

ج. منع تسرب نفوذ ارباب العمال والنفوذ المعادي بصورة عامة الى قيادة الحركة النقابية ومنع تسييرها في اتجاهات لا تخدم مصالح الطبقة العاملة في المرحلة المعنية.

وانشغلت منظمات الحزب ورفاقه وقياداته المركزية والمحلية بالعمل وفقا لهذه التوجهات ولإعطاء جهودهم بعدا واسعا، امتد ليشمل عمال مختلف الصناعات والمهن في المحافظات المختلفة. وهكذا تكونت هيئات مؤسسة (قيادية) في داخلها فراكسيونات حزبية لقيادة وتوجيه العمل وفق خط الحزب، لمختلف القيادات، ولكل منها قاعدتها وركائزها ومؤيدوها. وجرى تنظيم المستلزمات التي تستوعبها التشريعات العمالية لتنظيم الحياة النقابية وفقا لما تضمنه الدستور آنذاك من حقوق سياسية ونقابية. وهكذا تغلغلت المطالبة بالنقابات في صفوف الشعب وقواه الوطنية المطالبة بالديمقراطية.

ثم تطلب الأمر الانتقال الى نضال عمالي وشعبي جماهيري واسع يربط ما بين التوجه لتحقيق المطالب الاقتصادية وبين النضال لانتزاع وممارسة حق التنظيم النقابي، النضال الذي يكتسي طابعا سياسيا ديمقراطيا ويشكل مرتكزا للنهوض اللاحق للحركة الثورية. عند ذاك وجه الحزب العمال الى ما يأتي:

" على العمال اذن في الصناعات والمعامل كافة تحديد الحد الادنى لمطالبهم وتقديمها الى اصحاب العمل (واذا اقتضى الامر فالى الجهات الحكومية المسؤولة) وعليهم ان يحددوا الوقت لإجابة طلباتهم وان لا ينخدعوا بالوعود الكاذبة الفارغة، وعليهم ان يعلموا ان سلاحهم لإرغام اصحاب العمل - في حالة عدم اجابة طلباتهم - هو الاضراب المنظم الذي لا تقع مسؤوليته إلا على تعنت اصحاب الاعمال وجبروتهم. فليبدأ رفاقنا العمال في المعامل منذ الآن، لانتخاب لجان تهيئ العمال للإضراب، إذا اراد اصحاب العمل ذلك برفضهم مطالب العمال. وعلى العمال ان لا ينسوا ان يشفعوا مطاليبهم الآنية بمطلب تأليف نقابة لهم، إذ ان وجود نقابات للعمل يحل الكثير من مشاكلهم".

من التهيئة التنظيمية الى العمل المباشر

وأمام مماطلة السلطات للاستجابة لمطالب العمال، كان ينبغي ان لا يتوقف ولا يتراجع النضال، فقد اعدت عدته ومستلزماته والظروف مؤاتية لنجاحه وانتصاره. وان أي تأجيل له معناه تضييع الفرص الجاهزة بانتظار "الفرص" المجهولة. فاستغلال الفرصة التي لم يكن سنوحها قد حل عن الحزب وعمله وتعبئته للجماهير، سيخلق فرصا جديدة للانتقال الى خطوات أخرى في النضال والتنظيم والتعبئة الجماهيرية ترتبط بضرورات تحقيق منجزات وطنية وديمقراطية اكبر. ويوضح الحزب الحقيقة للجماهير العمالية، ويعطي الاشارة لرفاقه كي يشهروا سلاح النضال ويقودوا معركة الحقوق النقابية. "اقد مضى اكثر من شهرين منذ ان تقدم عمال بضع صناعات يطلبون من الحكومة السماح لهم بتأليف النقابات، والحكومة على عادتها، اخذت تتماهل وتسوف بغية تأخير القضية وبعث الملل والقنوط في نفوس العمال وحملهم "متطوعين" على ترك طلباتهم....".

"اننا نطلب الى رفاقنا العمال الذين قدموا طلبات بتأليف نقابات ان:

1. يميزوا طلباتهم بعريضة يرفعونها الى رئيس الوزراء مصحوبة بمضابط تأييد من مئات وألوف العمال المستعدين لتوقيعها.

2. يؤلفوا وفودا كبيرة من المؤسسين ومن عمال صناعاتهم لمقابلة المراجع المسؤولة – وربما من الأوفق ان تحمل هذه الوفود عرائض التمييز الى رئيس الوزراء.

3. يحدد عمال بغداد، يوم الاضراب، ويسمونه يوم النقابة في حال عدم اجابة طلباتهم ....، خلال مدة معلومة (لا تزيد على خمسة عشر يوما)".

"امامكم طريقان – ايها العمال – طريق الانتهازيين القائل بترك المطالبة بتأليف النقابات، أي ترك امضى سلاح في نضال الطبقة العاملة العراقية من اجل خبزها وحقوقها، وطريق النضال من اجل النقابات بتشكيل الوفود وتجنيد جماهير العمال لتأييد مؤسسي النقابات والنضال معهم، وبالأخير الإضراب لإرغام السلطات على اجابة الطلب".

"هذا هو طريقنا، طريق النضال الذي لابد منه، فالى الأمام ايها الرفاق لتحقيقه".

هكذا نشأت وتطورت الحركة النقابية العمالية العراقية، مسلحة بنظرية ثورية مطبقة وفق الخصائص الوطنية، كي تكون حركة جماهيرية تستقطب حولها الحركة الوطنية والجماهير الشعبية، حركة الطليعة السياسية للبروليتاريا وللعمال في تنظيماتهم النقابية الطبقية، تخوض النضال الاقتصادي والسياسي. وأعلن الرفيق فهد "أود ان اذكر جميع المواطنين العراقيين بوجوب مساعدة الطبقة العاملة العراقية في حركتها النقابية الراهنة باعتبارها اولا الجبهة الاولى والوحيدة الآن في النضال الوطني الديمقراطي، لأنها فتحت الباب للنضال والتنظيم النقابي الذي لابد ان

تتبعه اشكال اخرى من التنظيم السياسي والديمقراطي. وثانيا لأنها تهدف الى رفع مستوى الطبقة العاملة التي هي اكبر طبقة وطنية بين الجماعات العراقية. فإلى مساعدة الحركة ندعو كل مخلص من ابناء شعبنا الكريم".

وكانت معركة التنظيم للعمال والطلبة والمثقفين والفلاحين، ولرجال السياسة الوطنيين ممثلي البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة، وثيقة الصلة بما يحققه العمال بالنضال الجماهيري. "فمن يريد نيل حق... عليه مؤازرة الجماهير والنضال من اجل تلك الحقوق. فالأحزاب والنقابات التي تأتي عن طريق العطاء، تؤخذ بسهولة، لأنها لم تشيّد اسسها على صخرة النضال الجماهيري القادرة على تحمل الجفاف والرطوبة والصمود أمام العواصف".

"لا بد للجماهير من ان تناضل كي تحصل على مطالبها الأخرى، ولكي تهيئ نفسها منظمة، لمجابهة عالم ما بعد الحرب: أي لتحقيق مطالبينا الوطنية والديمقراطية، لاستكمال الاستقلال والسيادة الوطنية والتخلص من التبعية الاستعمارية ومعاهداتها والسير في طريق الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والازدهار".

بلغت معركة النضال المطلبي والتنظيم الجماهيري حدا تستطيع فيه الطبقة العاملة، ومن ورائها الحركة الجماهيرية الديمقراطية، ان تكشف عن عضلاتها وتستعد ان تلوي ايدي الرجعية واسيادها. فقد تحول حزبنا من حزب للدعاية والتنظيم والإعداد الى حزب جماهيري لقيادة النضال الطبقي للعمال والنضال الوطني الديمقراطي للشعب، لا بالادعاءات، بل بالفعل المباشر وبالقوة الجماهيرية المنظمة الواعية. عندئذ، في آب 1944، آن أوان المجابهة الجماهيرية: "على المناضلين في الحقل الوطني والسياسي والاقتصادي، خصوصا الذين يريدون تأليف احزاب ديمقراطية جماهيرية ان يتوجهوا الى الشعب مباشرة وعلى المناضلين في الحقل النقابي ان لا يكتفوا بتقديم العريضة والانتظار. عليهم ان يشرعوا حالا في النضال من اجل تنفيذ مناهجهم".

كان الحزب خلال ذلك يعطي اهمية كبيرة للكفاح الفكري. فـ"النضال الفكري يسبق عادة النضال السياسي والاقتصادي ويرافقهما في جميع مراحلهما". وبواسطته يلقي الحزب الضوء على المطالب وأشكال التنظيم، واساليب الكفاح اللازمة وعلى الاتجاهات الفكرية الخاطئة والقاصرة.

واذا كانت مسألة النهوض بتنظيم ونضال الجماهير وبدورها هي المسألة الملحة القائمة آنذاك بحكم ضرورة اعداد و"تدريب الشعب على جميع اشكال الكفاح السياسي وتهيئته لخوض معارك حاسمة مع العدو"، فان كل المفاهيم الضارة والمعرقلة والمثبطة يجب تعريتها والتصدي لها بحزم. فـ"النظرية الذاتية التي يقول بها بعض القادة الوطنيين،

نظرية ترك الجماهير تتعلم بدون العناصر الوطنية الواعية المنظمة يؤدي الأخذ بها الى تجريد شعبنا من سلاحه وتركه اعزل، لا يستطيع استرجاع ما فقده واسترجاع حريته وسيادته الوطنية وخيرات بلاده. فالجماهير الشعبية لا تتدرب على النضال السياسي بدون توجيه من الواعين المنتظمين، بدون كسب الخبز من ممارسة النضال الفعلي. فالإنسان لا يستطيع السباحة دون النزول الى الماء... ان العناصر الوطنية الواعية المنظمة مسؤولة امام التاريخ، مسؤولة امام الجماهير الشعبية عن افهام الجماهير اساليب النضال، مسؤولة عن السير امام الجماهير".

وتحركت الجماهير تطالب بحقوقها وتمارسها، فأدركت الطبقة الحاكمة (وأسيادها ايضا) ان ليس امامها في ذلك الظرف التاريخي الملموس والوضع الداخلي والعربي والعالمي الذي لم يكن في صالحها، وهي تجابه ارتفاع مستوى النضال المنظم للطبقة العاملة، من سبيل إلا ان تتنازل، ولو الى حين، فأجيزت 16 نقابة عمالية (كما اجيزت بعض الاحزاب السياسية) من بين 24 طلبا بتشكيل نقابات عمالية. وكانت من بينها نقابة عمال السكك التي اجيزت في 2/9/1944. ورغم انه اجيزت قبلها او معها بعض النقابات الصغيرة، فان هذا التاريخ - برأينا - يصبح اعتباره التاريخ الفعلي لتأسيس حركة نقابية طبقية معاصرة للبروليتاريا العراقية.

ومن المفيد أن نذكر عرضا ان المؤتمر الأول التأسيسي، لنقابة عمال السكك قد عقد في السابع من تشرين الثاني 1944، وهو تاريخ الاحتفال بالذكرى السابعة والعشرين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى. وفي ذلك بالطبع مغزى سياسي وأممي. وهكذا بدأت اعياد نضالية ثورية لجماهير البروليتاريا العراقية شملت العراق.

أعياد وصراع وإصرار

كيف نصف تلك الاعياد الخالدة؟ المناشير الحزبية تتوالى والاضرابات العمالية تنتشر، في السكك ونفط كركوك، والميناء، والنسيج والسجاير... مؤتمرات نقابية تتحول الى مهرجانات عمالية... وفود عمالية من كل انحاء العراق تشارك فيها او تزور بغداد والعرائض بيدها تحمل الألوف من التواقيع الى الوزارات والأحزاب والنقابات والصحف بشأن مطالب العمال وحقوقهم النقابية... اجتماعات سياسية في سبيل الديمقراطية وضد الرجعية والصهيونية والاستعمار، وضد مشاريع تقسيم فلسطين ومقترحات اللجنة الامريكية في هذا الشأن، وضد معاهدة 1930 الاسترقاقية. مظاهرات سياسية، واضرابات عامة في 10 مايس و 27 حزيران 1946 واحداث دامية ترافقها، اعمال للتضامن مع الشعب المصري ضد معاهدة صدقي – بيفن 1946، اعتقالات سياسية ومحاكمات سياسية، المحامون

الشيوعيون والديمقراطيون يتنقلون بين كركوك وبغداد والبصرة، يدافعون حقوقيا وسياسيا عن العمال النقابيين والمتظاهرين، محولين المحاكمات الى منابر علنية للإدانة السياسية للحكومات ولنهج قمع الحريات النقابية والسياسية المرسوم من قبل الدوائر الامبريالية الانكليزية... نقاشات سياسية على صفحات جرائد الاحزاب السياسية بشأن مختلف القضايا الملتهبة... نهوض ابداعي تقدمي، والأدباء يلهبون الحماس للنضال ويغنون للعمال ... السيّاب، يغني لعمال الميناء، وقادتهم النقابيين الذين يجابهون المحاكمات بعناد طبقي وينشد اشعاره في اجتماع جماهيري (سلّ الميناء لو سمع الخطابا...) مشيدا بنضال العمال ونقاباتهم، منددا بالمستعمرين الذين يديرون الميناء. ويحرض الفلاحين في "حسناء القصر" ضد الاقطاع. ومحاورات في النقابات والمشاريع الصناعية عن التضامن البروليتاري ومواقف الاحزاب والنقابات وضد توجهات الانتهازية في قيادة بعض النقابات المهنية الصغيرة. عروض اخبارية في مقرات النقابات عن الانتصارات في المعارك ضد الفاشية وانتصارات العمال والفلاحين في بلدان الديمقراطية الشعبية، وعن حرب الانصار في اليونان والصين... وفي قلب ذلك كله كان حزب فهد وأعضاؤه ومنظماته والطبقة العاملة ومنظماتها وقياداتها النقابية.

وظل هذا المد يتصاعد... فقد مارست وتعلمت الجماهير (السباحة) في بحر المعارك الطبقية والوطنية، ومنها معارك دامية (في 10 مايس و28 حزيران 1946 في بغداد، وفي 12 تموز 1946 في كاورباغي- كركوك)، خاضتها الطبقة العاملة والجماهير الكادحة بقيادة حزبها الطليعي. وكان لوثبة كانون الثاني 1948، ان تحدث قبل ذلك التاريخ لو لم يفلح العدو في انزال ضربة قاسية في قلب الطبقة العاملة بانتزاع قيادتها من بين صفوفها وزجها في السجون بعد فشله في محاولة ارسالها الى المشانق في بداية عام 1947، وانتزاع قادة النقابات وحزب التحرر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية والحركة الطلابية الديمقراطية وإلقائهم في السجون والمنافي، وإبعاد العشرات والمئات من نشطاء الحركة النقابية العمالية عن العمل.

ولم تنته أعياد البروليتاريا. ففي 25/ أيّار/1947، انعقد مؤتمر نقابة عمال الموانئ في المعقل، وهذا المؤتمر الذي وصفه الرفيق فهد وهو في السجن انه مؤتمر وعي الطبقة العاملة. وانفجرت اضرابات عمالية في قطاعات أخرى في بغداد. وما أن أتت لحظة الحسم في 27 كانون الثاني 1948، حتى ترك عمال السكك في الشالجية سقائف عملهم ليقرروا مع الجماهير الشعبية التي انتفضت بقيادة الشيوعيين مصير معركة الجسر ومصير حكومة صالح جبر – نوري سعيد، ومصير معاهدة بورتسموث والمجلس النيابي المزيف

الذي اعدوه للتصديق عليها.

وتتصاعد نضالات البروليتاريا لتبلغ ذروتها في نيسان وأيّار 1948، شاملة عمال البلاد، وفي المشاريع الكبيرة على الاخص، سجلت فيها طبقتنا العاملة أروع صفحات النضال الوطني الديمقراطي، وتوجت بمسيرة عمال نفط (كي ثري). قال احد اقطاب الزمرة الحاكمة العميلة آنئذ عن هذه النضالات بأنه لم ترعبه الوثبة بقدر ما أرعبه نيسان، أي شهر الاضرابات العمالية الشاملة ونهوض الحركة العمالية. وتهيأت الرجعية وأسيادها لإجهاض تطور العملية الثورية، خاصة بعد ان تلمست تردد البرجوازية الوطنية ودعوة احزابها للجماهير بالخلود الى السكينة، وبعد ان أخفقت القوى الوطنية بتحقيق جبهة وطنية موحدة، فشنت الرجعية الحاكمة هجومها في 15 /5 /1948 بتحطيم مسيرة عمال كي ثري، واعتقال بطلها وقائدها الشيوعي شنور عودة وزملائه، تحت ستار الحرب الفلسطينية في حين كانت موغلة في التآمر على الشعب الفلسطيني وحقوقه والهجوم على حركة التحرر الوطني والحركة العمالية العربية وطلائعها السياسية. واستمر تصاعد الهجوم على الحزب والحركة حتى بلغ ذروته بإعدام قادة الحزب الشيوعي فهد وحازم وصارم.

وتتكرر الاحداث من جديد، وجرح الرابع عشر والخامس عشر من شباط 1949، لم يندمل بعد. فتقاوم البروليتاريا العراقية وتصر على بقائها في مركز الساحة النضالية: اضراب عمال الحفارات ثم مستخدمي اللاسلكي في ميناء الفاو في تشرين ثاني 1949، اضرابات عمال البصرة في بداية عام 1950، واضراب عمال شركة كري مكنزي في البصرة في ايلول 1950، اضرابات عمال الحبانية والشعيبة والسكاير والنسيج، نهوض الحركة النقابية وانشاء المكتب الدائم لنقابات العمال العراقية عام 1951 والاضراب العمالي العام لاسناد نضال شعب مصر في بورسعيد والقناة في سبيل الجلاء، وإضراب عمال الموانئ البطولي الدامي 23 - 25 اب 1952 واستشهاد ثلاثة من العمال النقابيين النشطاء وإضراب البصرة العام اسنادا للمضربين ومظاهرات جماهير البصرة والنجف عند تشييع شهداء الميناء. وهكذا ساعدت الطبقة العاملة الحركة الوطنية على استعادة الثقة بنفسها، وعادت الاحزاب والصحف الوطنية لتمارس نشاطها في ظروف نهوض عمالي وطلابي ديمقراطي وبداية تصاعد النضالات الفلاحية في شمال العراقي وجنوبه... لقد نهضت الحركة الوطنية، بعد ان أخذ الحزب الشيوعي يشغل مكانه ومركزه المؤثر في النضال الوطني والديمقراطي، لتقارع المستعمرين وعملاءهم، وقوفاً الى جانب شعب إيران وتأميمه لثرواته النفطية، وضد اتفاقيات النفط الجديدة في 1952، وصولا الى انتفاضة تشرين الثاني 1952 في سبيل

الديمقراطية وضد ربط العراق بمشاريع الحرب والعدوان الاستعمارية التي حسمت في 23 /11 /1952، بنزول عمال بغداد الى الشارع، فأسقطت الحكومة وأوقفت عملية ضم العراق الى مشروع عدواني استعماري جديد.

ويتكرر الهجوم الرجعي الاستعماري: احكام عرفية، اعتقالات واسعة للقوى العمالية الواعية، للشيوعيين والديمقراطيين والوطنيين. ومرة اخرى تظل الطبقة العاملة رمزا للمقاومة الوطنية، فينفجر اضراب عمال نفط البصرة في 25 /12 /1953 وانتفاضة البصرة البروليتارية واضرابها العام، وموجة جديدة من الاضرابات التضامنية والمطلبية رغم الاحكام العرفية، وصولا الى اعلان الاتفاق الوطني الانتخابي عام 1954. ثم اجهاز جديد على الحركة العمالية والوطنية، وتصفية جميع مظاهر الحريات السياسية بغلق الاحزاب والصحف الوطنية وضم العراق الى حلف بغداد، والمراسيم المقيتة المعادية للشيوعية.

وينهض حزب الطبقة العاملة موحدا من جديد، ويعقد كونفرنسه الثاني محددا في وثائق هذا الكونفرنس آفاق التطور السياسي للوطن ومهمات الحزب في ميدان الفكر والسياسة والتنظيم. وأفلحت جهوده وجهود القوى الوطنية الاخرى في اقامة جبهة الاتحاد الوطني عام 1957.

وتأتي ثورة تموز 1958، كخلاصة وعبرة للحركة الوطنية في هذه المسيرة الحافلة بالمعارك الوطنية والطبقية. وتنهض الطبقة العاملة منذ يوم الثورة، لتشكل احدى القوى الاساسية لانتصارها، وتعيد بقيادة الشيوعيين بناء تنظيمها النقابي العلني مجددا ليصبح أعظم حركة نقابية طبقية منظمة موحدة وجماهيرية معاصرة في العراق والمشرق العربي.

وجاء الاول من أيار ليغدو في العراق مهرجانا عماليا وشعبيا، لم تكن تشهد مثله كل بلدان العالم غير الاشتراكي. كان من أكبر الأعياد الوطنية. نزل حوالي مليون مواطن ومواطنة يشاركون طبقتنا العاملة وحزبها وقيادتها بعيد التضامن العالمي الأممي.

ومن جديد، تبدأ الحملة الارهابية على قلاع البروليتاريا، الحزب والنقابات العمالية واتحادها. هذا ما فعلته سلطة تموز البرجوازية الوطنية. انها وبذلك مهدت لسقوطها ولكارثة الثامن من شباط.

وتعود الطبقة العاملة من جديد والجروح العميقة لم تندمل بعد، وصعّدت نضالاتها منذ عام 1964، لا من اجل مطالب اقتصادية واجتماعية وحسب، بل وكذلك دفاعا عن الطبيعة الطبقية والديمقراطية لتنظيمها النقابي، الذي شوهته سلطات دكتاتورية رجعية متخلفة تتبرقع بواجهة قومية وتقدمية، وضد تيارات برجوازية صغيرة تنادي بالاشتراكية ألبستها لبوس القومية. واستمرت موجة النهوض العمالي الجديد: اضراب عمال مصلحة شهداء

الجيش، عمال النسيج والسكاير والكبريت والأحذية والمشروبات غير الكحولية. وكان لهذه النضالات اثرها على القيادات البرجوازية الصغيرة القومية وافكارها ومفاهيمها، خالقة بذلك فرزا جديدا في داخلها، وانتهت هذه الموجة النضالية بالمعارك الانتخابية النقابية التي عززت الحركة النقابية الديمقراطية فيها نتائج ومواقع هامة، اجهز عليها النظام الحالي بعد تموز 1968، الذي جعل الارهاب السياسي الدموي والديماغوغية الوسيلة الاساسية لبقائه. وكان لانقسام الحركة العمالية والوطنية الذي لعبت فيه بعض التيارات القومية المعادية للإمبريالية والرجعية، والانشقاق المتياسر في حزب طليعة الطبقة العاملة تأثيره الكبير في ضعف القدرة البروليتارية والشعبية على الانتصار، وبالتالي ليشكل هذا الانقسام احد العوامل الهامة في تمهيد التربة والأجواء لمرور انقلاب 17 تموز، وقفز البعض الى قمة السلطة والاستحواذ عليها والانفراد بها.

خلقت الطبقة العاملة العراقية في الاربعينات وما بعدها، أروع القادة الثوريين الشيوعيين للحركة النقابية العمالية، قادة تربوا في خضم الصراعات الطبقية والممارسة النقابية الديمقراطية وعلى ايدي مؤسس الحزب ورفاقه الميامين وورثته الاماجد. وما احوج الحركة العمالية الى امثالهم من الشبيبة العمالية التي تصارع الفاشية رغم ثقل كابوسها وضغطها. انها بحاجة الى قادة تصلبهم المعارك الطبقية من أوساط البروليتاريا، ويلتصقون بها، ممن ينبغي ان يشبوا لينضجوا سياسيا وفكريا وقياديا من خلال التربية الحزبية والنضال الطبقي واستيعاب التاريخ المجيد لحزبهم وطبقتهم والدور المناط بهما في المرحلة الراهنة.

التاريخ يطرح المهمة من جديد

وبعد ان قسا بحكمه، يضع التاريخ امام الطبعة العاملة وطليعتها، وامام كل حريص على سير وطننا في طريق السلم والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، تلك المهمات، ولكن بمحتوى جديد، وفي ظروف اشد صعوبة وتعقيدا. وقد جاءت وثائق الحزب لتضع التسلسل المنطقي للمهمات الاساسية المترابطة الاتية:

• توطيد تنظيم الحزب كمهمة رئيسية ملحة.

• تنظيم وتعبئة ورفع مستوى وعي الطبقة العاملة والفلاحين والجنود وبقية الجماهير ومستوى استعدادها النضالي، والتفافها حول الطبقة العاملة.

• توطيد تنظيم ووحدة الحركة الوطنية والديمقراطية، للنهوض بها الى مستوى المهمات الملحة، لتأمين مستلزمات انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية.

وفي اطار ذلك تبرز مهمة توطيد وتوسيع قاعدة ونفوذ الحركة النقابية السرية للطبقة العاملة بين جماهير العمال، وتأهيلها لتلعب دورها في النضال في سبيل فرص البديل الديمقراطي واقامة

دولة القانون والعدالة وحقوق الانسان والديمقراطية، ولكي تكون البديل الذي يكنس التنظيم النقابي الحالي الذي يشكل احدى ركائز الدكتاتورية الفاشية.

ان الاصرار والإرادة ووعي المسؤولية والاستجابة لضروراتها، والروح الحزبية العالية في العمل الدؤوب الذي لا يعرف الكلل او الوهن، تلك الصفات التي تحلى بها رواد حزبنا من قادة وكوادر واعضاء، منذ الاربعينات وخلال العقود الماضية ما زالت سلاحنا الماضي. وينابيع الالهام والإبداع الثوري لاختيار طرق ووسائل العمل والنضال، يفجرها فكر حزبنا وسياسته ونشاطه وتجربته، ماضيه وحاضره المفعم بالبطولة والتفاني في سبيل العقيدة والإيمان بطبقتنا العاملة وشعبنا. وهي في الوقت ذاته ذخيرتنا ورائدنا في النضال من اجل تحقق المهمات المباشرة، بما فيها مهمات العمل الجماهيري، ومن اجل المستقبل الذي تجسد فيه طموحنا الشيوعي النبيل.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 212، آب 1989، ص 9 – 21.**

نصوص مترجمة

ماذا تعني الاشتراكية في القرن الحادي والعشرين؟ *

بقلم: نانسي فريزر
ترجمة: رشيد غويلب

نانسي فريزر (Nancy Fraser) من مواليد 1947 في بالتيمور، ماريلاند في الولايات المتحدة، فيلسوفة واستاذة علوم سياسية، وواحدة من أشهر النسويات الأمريكيات. كما تعدّ من أهم فلاسفة الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت النقدية. من أهمّ مشاغلها نجد موضوع اختصاصها الأوّل وهو الفلسفة السياسيّة، ومن الإشكاليّات التي بحثت فيها نذكر العدالة والحقّ، والنظريّة النسويّة والفضاء العمومي. تعمل فريزر حاليا أستاذة للعلوم السياسية والاجتماعية في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية في نيويورك. وتصدر مع أندرو أراتو مجلة Constellations وهي مجلة دولية للنظرية النقدية والنظرية الديمقراطية. من منظور تحليل بولاني التاريخي لـ"التحول العظيم"، تتناول الأزمة الحالية وكيف يتم التغلب عليها.

من جديد يجري الحديث عن "الاشتراكية" في اغلب الأحيان وفي كل مكان. ولعقود كانت هذه الكلمة مستهجنة، ورمزا لفشل رهيب، ومن مخلفات زمن مضى. واليوم ينتهي كل هذا! ويحمل اليوم سياسيون مثل بيرني ساندرز وإسكندرية أوكاسيو كورتيز، بكل فخر لقب "اشتراكي" ويتمتعون بتأييد واسع. ولا تستطيع منظمات مثل "الاشتراكيون الديمقراطيون في أمريكا" استيعاب زخم الأعضاء الجدد. لكن ماذا نقصد بالضبط بـ"الاشتراكية"؟ حتى لو كنا سعداء بالحماس الجديد، فإن هذا الحماس لا يترجم تلقائياً إلى مناقشة جادة للمحتوى. إذن ما الذي تعنيه "الاشتراكية" بالضبط في عصرنا الحالي، وما الذي يجب أن تمثله؟

سأطرح بعض الأفكار بشأن هذه الأسئلة، والتي لا تمثل بعد إجابات كاملة. ومثلما أتبنى تحليلا واسعا للرأسمالية، أقترح أيضاً فهماً شاملاً للاشتراكية ينهي الرؤى الاقتصادية الشائعة السابقة. وبما أنني لا أرى الاقتصاد الرأسمالي معزولا، بل في سياق علاقته المتناقضة والمدمرة مع ظروفه "غير الاقتصادية"، فمن الواضح لي أن الاشتراكية يجب أن تفعل أكثر من مجرد التغيير في ميدان الإنتاج. ويجب أن تحدث الاشتراكية ايضا تغييراً جوهرياً في القطاعات والظروف التي تجعل الإنتاج الرأسمالي ممكنا. أتحدث عن ميدان الانجاب، وسلطة الدولة، والطبيعة غير البشرية، وأشكال الثروة التي تقع خارج النطاق الرسمي لرأس المال ومع ذلك يتضمنها. وبعبارة أخرى: أنا مع الرأي القائل بأن الاشتراكية المعاصرة يجب ألا تلغي فقط الاستغلال الرأسمالي للعمل المأجور. ويجب أن تتجاوز استغلال أعمال الرعاية المجانية، وكذلك استغلال الممتلكات العامة، وأن تنهي مصادرة الثروة، الذي يقوم على مصادرة الأفراد والموارد الطبيعية على أسس عنصرية.

والنتيجة ستكون مفهوما موسعا بوضوح للاشتراكية. لكن التوسع لا يعني مجرد إضافة شيء ما. ولا يتعلق الأمر بإضافة بعض الجوانب والأبعاد الجديدة للمفاهيم التقليدية، وتركها في الأساس كما هي. وأكثر من هذا، تتمثل المهمة في مراجعة وجهات نظرنا حول كل من الرأسمالية والاشتراكية ودمج التحليلات الهيكلية للجوانب التي يُنظر إليها عادةً على أنها ثانوية: خاصة الجندر/ الجنس، والعرق/ الإثنية/ الجنسية/ الإمبراطورية، والبيئة والديمقراطية. عندما نفعل هذا، تظهر فجأة العديد من الموضوعات الكلاسيكية للفكر الاشتراكي في ضوء مختلف: الحكم والتحرر، الطبقة والأزمة، الملكية، الأسواق والاقتصاد المخطط، العمل المجتمعي الضروري، وقت الفراغ وفائض القيمة الاجتماعي.

بالطبع، لن أتمكن في هذه المحاضرة من تناول كل هذه الأسئلة بشكل شامل، بل سأعلق على ثلاثة من هذه الموضوعات: الحدود المؤسسية وفائض القيمة الاجتماعي والأسواق. وفي تناولي لهذه الأمثلة، سأوضح ان المشكلة ستتخذ

شكلا مختلفا عندما لا نرى الرأسمالية على أنها مجرد نظام اقتصادي، وان الاشتراكية لم تعد مجرد نظام اقتصادي بديل. وسينتج عن هذا التناول مفهوم للاشتراكية، يختلف بشكل واضح عن الشيوعية وفق النمط السوفييتي من ناحية، وعن التصورات الديمقراطية الاجتماعية من ناحية أخرى.

وسأبدأ بالرأسمالية، فبالنسبة لي بالتأكيد هي نقطة البداية لأي نقاش حول الاشتراكية. وفي النهاية فالاشتراكية هي أكثر من "مجرد ما ينبغي" أو حلم طوباوي. وإذا كنا ننشغل الآن بالاشتراكية، فذلك لأنها تحتوي على إمكانيات حقيقية ومشروطة تاريخيا، إمكانيات الحرية والرفاهية والسعادة للناس التي جعلتها الرأسمالية في متناول اليد، ولكنها لا تستطيع تحقيقها. وبالتالي، فإن التوجه نحو الاشتراكية هو استجابة لأوجه القصور والظلم في النظام الرأسمالي: المشاكل التي تخلقها يوما بعد آخر، ولا تستطيع حلها، وأشكال التسلط الهيكلي المبنية في النظام والتي لا يستطيع تجاوزها. وبصياغة عامة، تدعي الاشتراكية أنها قادرة على ازالة انتهاكات الرأسمالية. ومن هنا تكون البداية. عندما نحدد الديناميكيات الجوهرية والهياكل المؤسسية للرأسمالية، فإننا سنعرف أيضاً ما الذي يجب تغييره بالضبط. وعلى هذا الأساس فقط سنكون قادرين على تحديد الخطوط العريضة الإيجابية للبديل الاشتراكي. إذن: ما هي الرأسمالية بالضبط؟ وما الخطأ فيها؟

ما هي الرأسمالية؟ رؤية موسعة

غالباً ما يُنظر إلى الرأسمالية على أنها نظام اقتصادي يتميز بالسمات الاتية: الملكية الخاصة والتبادل عبر الأسواق، والعمل المأجور وإنتاج السلع، ونظام الائتمان والتمويل، والأرباح، والفوائد، واردات الأراضي. كل هذا يجد تعبيره في النقود ويتشابك بطريقة تجعل النمو الاقتصادي أمرا حتميا وضروريا للنظام. ومن وجهة النظر هذه، فإن الرأسمالية مطابقة لمجمل الأنشطة والعلاقات والأشياء التي يتم تحويلها إلى نقود والتي تعمل على تجسيد أو إنتاج قيمة اقتصادية. دعونا نسمي هذا النظرة، بالنظرة الضيقة أو المحدودة للرأسمالية. إنها تتوافق مع فهم معظم رجال الأعمال والاقتصاديين العاديين، ولكنها تتوافق أيضاً مع الفهم السليم لغالبية المجتمع. هذه النظرة الضيقة للرأسمالية منتشرة على نطاق واسع لدرجة أنها تشكل تفكير بعض منتقديها.

ما سأشير إليه أدناه بتوصيف "الماركسية التقليدية" هو مثال على ذلك. ينظر ممثلوها إلى الرأسمالية على أنها نظام للاستغلال الطبقي، في مركزه تقف العلاقة بين الرأسماليين والعاملين بأجر في مواقع الإنتاج. ووفقا لوجهة النظر هذه، فإن العامل الحاسم هو العلاقة بين أولئك الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، وأولئك الذين لا يملكون شيئاً سوى قوة عملهم، وبالتالي يتعين عليهم بيع هذه "السلعة الخاصة" إلى الرأسماليين من أجل البقاء. هذه العلاقة هي نتيجة صفقة سوق يتم فيها تبادل العمالة مقابل الأجر. انها ليست تبادلا متكافئا، بل وعلى العكس من ذلك:

لا يدفع رأس المال إلا مقابل ساعات العمل الضرورية اجتماعيا (أي ساعات العمل الضرورية لإنتاج مبلغ من القيمة يغطي تكاليف معيشة العمال). اما ساعات عمل العمال المتبقية، فهي التي تنتج "فائض القيمة". أي ان هذه العلاقة قائمة على "الاستغلال". وفقا للماركسية التقليدية، فإن الاستغلال هو جوهر الرأسمالية. إنه السر وراء انتاج فائض القيمة، القوة الدافعة وراء تصاعد الإنتاجية والابتكار التكنولوجي. لكنها أيضاً مصدر الفقر واللامساواة الطبقية، ومحرك اللاعقلانية الهائلة، وهي وراء البطالة الجماعية التي لا تحدث عشوائيا، والأزمات الاقتصادية الدورية.

لا شك في أن المفهوم الماركسي التقليدي للرأسمالية أفضل التفسيرات السائدة. ومع ذلك فإن هذا الفهم غير مكتمل. يجري التركيز فقط على "الموقع الخفي" للإنتاج ويهمل النظر إلى الظروف التي يقوم عليها. وهذه يمكن العثور عليها في مواقع أخرى "غير اقتصادية" وحتى أكثر خفاء. في الماركسية التقليدية، يمكن للمرء أن يقول، انه يتم التقاط عنوان قصة المجتمع الرأسمالي، لكن الاهتمام بخلفية القصة قليل او لا يذكر. لذلك، فإن تحليلها ليس بالضرورة خاطئاً، ولكنه غير كامل. ولإكمال الصورة واكتساب فهم أوسع للرأسمالية، نحتاج إلى التفكير فيما وراء المفاهيم السائدة، ولكن أيضا أبعد من المناهج الماركسية التقليدية. والهدف هو الكشف عن العلاقات والظروف الكامنة وراء الإنتاج الرأسمالي خارج الميدان الاقتصادي وإدراجها في التحليل. أنا أعد الأربعة الاتية من بين الشروط الأساسية الحاسمة التي بدونها، لن يصبح النشاط الاقتصادي الرأسمالي ممكنا:

الشرط الأول هو وجود خزين كبير من العمل غير المأجور المخصص لـ"إعادة الإنتاج الاجتماعي". ويشمل ذلك الأعمال المنزلية، وولادة الأطفال وتربيتهم، فضلاً عن رعاية وخدمة الكبار (العاملين بأجر، وكبار السن والمرضى، والعاطلين عن العمل)، أي جميع الأعمال التي تهدف إلى إنتاج الحياة البشرية والحفاظ عليها. وبدون "صنع الناس" هذا لن يكون هناك "ربح"، بدون هذا العمل الإنجابي لن يكون هناك "عمال"، لا "عمل"، لا عمل ضروري أو فائض، لا استغلال، لا فائض قيمة، لا تراكم رأس مال، لا ربح. لكن رأس المال لا يمنح هذه الأنشطة أي قيمة، ولا يقلق بشأن تجديد الموارد المطلوبة لها، ويتجنب بقدر الإمكان، دفع أجورها.

الشرط الثاني "غير الاقتصادي" للرأسمالية هو مصادرة الثروة الهائلة للشعوب المقهورة، خاصة الجماعات العرقية. وتشمل هذه الثروة أشكالاً مختلفة من العمل التابع، غير الحر، المجاني أو مقابل أجر زهيد، وتشمل أيضاً الأراضي المصادرة، خزين المعادن والطاقة المنهوبة، والأجسام والأعضاء البشرية وكذلك الأطفال وقدرات الإنجاب. كل هذا يصب في الإنتاج الرأسمالي، لكن على رأس المال أن يدفع القليل أو لا يدفع شيئا مقابل ذلك. لقد اعتبر ماركس بالفعل عملية المصادرة هذه ضرورية لزيادة رأس المال في بداية تاريخ الرأسمالية. ولكن على عكس ما افترضه ماركس، فإنها

لم تتوقف مع "نضوج" النظام. وعلى العكس من ذلك: بالإضافة إلى استغلال العمل المأجور ومتشابك معه، لا يزال تراكم رأس المال اليوم يعتمد على مصادر المدخلات منخفضة التكلفة التي لا تنضب. بدون مصادرة الأشخاص والمجموعات السكانية المقهورة بشكل خاص، لن يكون استغلال "العمال الأحرار" مربحاً. لكن رأس المال ينفي اعتماده على هذا النوع من الثروة، ويرفض الدفع مقابل استخدامه لها وضمان تجديدها.

الشرط الثالث "غير الاقتصادي" للنشاط الاقتصادي الرأسمالي هو "الهدايا المجانية" المتنوعة/ أو المساهمات التي تكاد لا تصدر فواتير ذات طبيعة غير بشرية. توفر هذه الركيزة المادية التي لا غنى عنها للإنتاج الرأسمالي: أي المواد الخام التي يحولها العمل البشري، والطاقة التي تحرك الآلات، والطعام الذي يغذي أجسادنا بالطاقة ويبقيها على قيد الحياة: أي الأرض الصالحة للزراعة، الهواء، نحتاج إلى التنفس ومياه الشرب والقدرة على تخزين ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي للأرض. بدون هذه الموارد والظروف الطبيعية أو البيئية لن يكون هناك إنتاج اقتصادي أو إعادة إنتاج اجتماعي، ولا أصول يمكن مصادرتها، ولا عمل حر قابل للاستغلال، ولا رأس مال ولا رأسماليين. ومع ذلك، فإن رأس المال يتعامل مع الطبيعة كما لو أنها ليست أكثر من مصدر لا ينضب للهدايا المجانية أو الموارد الرخيصة التي يمكن الوصول إليها في أي وقت، ولكنه ليس مسؤولا عن الحفاظ عليها.

وأخيرا، الشرط الرابع "غير الاقتصادي" للاقتصاد الرأسمالي هو جميع المنافع العامة والبنية التحتية التي توفرها الدول والمؤسسات العامة الأخرى. وهذا يشمل الأنظمة القانونية التي تحمي الملكية الخاصة وتضمن العلاقات التعاقدية والسوق الحرة؛ الأجهزة القمعية التي تضمن النظام وتقمع الانتفاضات والمعارضة وتسهل المصادرة داخل وخارج حدود الدولة؛ نظام نقدي يخزن القيمة ويسمح بالمعاملات عبر الوقت والمسافة؛ البنى التحتية للنقل والاتصالات والعديد من الآليات للتعامل مع أزمات النظام. بدون هذه السلع والخدمات العامة، لن يكون هناك نظام اجتماعي فاعل، ولا ثقة، ولا تبادل، وبالتالي لن يكون هناك تراكم مستمر لرأس المال. ومع ذلك، غالباً ما يكون رأس المال معادياً للتدخل الحكومي، ويميل إلى التهرب من دفع الضرائب الضرورية لتمويل المنافع والخدمات العامة.

كل شرط من الشروط الأربعة المذكورة هو شرط أساسي لا غنى عنه للاقتصاديات الرأسمالية. وكل واحد منها يشمل علاقات وأنشطة اجتماعية متنوعة وكذلك أشكال الثروة الاجتماعية، والتي تشكل معاً الشرط اللازم لتراكم رأس المال. وتتطلب المؤسسات الرسمية للرأسمالية - العمل المأجور، ومجال الإنتاج، والسوق الحرة، ونظام الائتمان والمالي الموسع - دعما هائلا من الأسر والمجتمعات والطبيعة والدول الإقليمية والمنظمات السياسية ومنظمات المجتمع المدني.

وأخيراً وليس آخراً، تعتمد الاقتصاديات

الرأسمالية على مجموعة متنوعة من أشكال العمل غير المأجور والعمل بأجر منخفض، بما في ذلك العمل القسري، الذي يمارس على نطاق هائل. وبهذا المعنى، تعتبر كل هذه الجوانب جزءا لا يتجزأ من المجتمع الرأسمالي وعناصر مكوّنة له.

وبعبارة أخرى، الرأسمالية هي أكثر من مجرد نظام اقتصادي. إنها نظام اجتماعي مؤسسي معقد يخصص تضاريس معينة للأنشطة والعلاقات الاقتصادية، ويفصل هذا عن القطاعات الأخرى "غير الاقتصادية". على الرغم من أن الأول يعتمد على الثاني، إلا أن هذا الترابط يُرفض باستمرار. إن جزءاً من المجتمع الرأسمالي هو شكل معين من "الاقتصاد" يختلف عن (لكنه يعتمد على) "الدولة" أو النظام السياسي. انه قطاع "إنتاج اقتصادي" يختلف عن (لكنه يعتمد على) قطاع "إعادة الإنتاج الاجتماعي"؛ مجموعة من شروط الاستغلال التي تختلف عن (لكنها تعتمد على) عمليات مصادرة خلفية؛ ومجال محدد اجتماعيا وتاريخيا للنشاط البشري يختلف عن (ولكنه يعتمد على) الركيزة المادية المفترضة غير التاريخية للطبيعة غير البشرية.

هنا نترك وراءنا المفهوم الضيق للرأسمالية كشكل اقتصاد. وإذا تم فهم الرأسمالية على أنها نظام اجتماعي مؤسسي، فإننا نصل إلى رؤية أوسع، والتي بدورها لها تأثيرات كبيرة على مشروع إعادة التفكير في الاشتراكية. بدءا، يغير هذا التغيير في الرؤيا، بل يوسع بالفعل فهمنا لما هو خطأ في الرأسمالية. بعد ذلك، سنجد أنه سيصبح من الأسهل فهم ما يجب القيام به لتحولها والتغلب عليها.

ما الخطأ في الرأسمالية؟ رؤية موسعة

وفقا للمقاربات الماركسية التقليدية، تتميز الرأسمالية بثلاثة نواقص أو عيوب رئيسية: الظلم واللاعقلانية وانعدام الحرية. دعونا نلقي نظرة على هذه النقاط على التوالي.

في المفهوم الضيق للرأسمالية، إن الظلم الأكبر هو استغلال رأس المال لطبقة العمال الأحرار والمحرومين من ممتلكاتهم. إنهم يعملون لساعات طويلة بدون أجر وينتجون ثروة هائلة ليس لهم نصيب فيها. إن طبقة الرأسماليين هي التي تستفيد من عملهم، والتي تستحوذ على فائض عملهم وفائض القيمة الذي ينتجونه، وتعيد استثمار الأخير لأغراضها الخاصة، أي من أجل تراكم المزيد من رأس المال. والنتيجة هي نمو قاسٍ لا يتزعزع لرأس المال كقوة معادية تُخضع العمال الذين ينتجون رأس المال لسلطتها. وفقا لوجهة النظر الماركسية التقليدية، فإن استغلال العمل المأجور في الإنتاج هو الظلم المركزي في الرأسمالية. ان مسرح الجريمة هو الاقتصاد الرأسمالي، ولا سيما مجال الإنتاج.

يقودنا هذا إلى النقطة الثانية: وفقًا للمفهوم الضيق للرأسمالية، تكمن لاعقلانيتها في ميلها المتأصل إلى إحداث أزمات اقتصادية. ان النظام الاقتصادي القائم على التراكم اللامحدود لفائض القيمة الذي يتم انتاجه في شكل ربح هو نظام غير مستقر بطبيعته. يؤدي السعي لتحقيق أقصى قدر من الأرباح من خلال زيادة الإنتاجية بمساعدة التقدم التقني مراراً وتكراراً إلى انخفاض معدل الربح

ويؤدي بانتظام إلى أزمات فيض الإنتاج والتراكم المفرط. إن محاولات السيطرة على هذه المشكلات، بواسطة التمويل، تؤجل فقط "ساعة الحساب" وتزيد من حدة العواقب، كلما طال تأخر الكارثة. وبشكل عام، يمكن ملاحظة أن تطور الرأسمالية يتميز بأزمات اقتصادية دورية: من خلال دورات الازدهار والكساد، وانهيارات سوق الأوراق المالية، والذعر في السوق المالية، وسلاسل الإفلاس، والدمار الشامل للقيمة ومراحل البطالة الجماعية.

النقطة الثالثة لنقد تحليلات الرأسمالية الحالية، والتي يجب أن يتم سردها هنا، هي ان الرأسمالية أيضاً غير ديمقراطية بطبيعتها. ومن المسلم به أنها كثيراً ما تعد بعمليات ديمقراطية على المستوى السياسي. لكن هذا الوعد بالديمقراطية يتم تقويضه بشكل منهجي بسبب عدم المساواة الاجتماعية والسلطة الطبقية. وفي الرأسمالية، على سبيل المثال، لا يكون موقع العمل عادة مكاناً تمارس فيه الإدارة الذاتية الديمقراطية. وعلى العكس: هنا يقرر رأس المال والعاملون يطيعون.

من وجهة نظر نقاد الرأسمالية التقليديين، ليس مصادفة أن ترسخ الرأسمالية هذه الشرور الثلاثة: أولاً، تعيش الرأسمالية من الاستغلال المنهجي وقمع العمال المأجورين. ثانياً، الأزمات الاقتصادية المتكررة متأصلة هيكلياً فيها. وثالثاً، إنها غير ديمقراطية للغاية في أساسها. وعلى أية حال، فإن الديناميكيات المتأصلة في الاقتصاد الرأسمالي مسؤولة عن المشكلة المعنية. ويُنظر إليها على أنها جزء من الحمض النووي للنظام الرأسمالي، وتُنسب فقط إلى شكل التنظيم الاقتصادي.

وهنا أيضا، يمكن القول مرة أخرى: التحليل ليس خاطئاً، ولكنه غير مكتمل إلى حد ما، ففي حين تتم تسمية الشرور الاقتصادية الأساسية للرأسمالية بشكل صحيح، يتم استبعاد الظلم واتجاهات الأزمات وأشكال العبودية، التي لا تنشأ مباشرة في المجال الاقتصادي، ولكنها تشكل أسسا للمجتمعات الرأسمالية. وسنحصل على رؤية واضحة لها عندما نوسع مفهومنا عن الرأسمالية.

يشير المفهوم الموسع للرأسمالية إلى سلسلة كاملة من المظالم المنهجية الإضافية. وأسبابها ليست بالضرورة في الهياكل الاقتصادية نفسها، بل تعود إلى التوتر في العلاقة بين الاقتصاد الرأسمالي وظروفه غير الاقتصادية. ومن الأمثلة على ذلك فصل مجال الإنتاج الاقتصادي، الذي عادةً ما يتقاضى فيه العمال أجرا، عن مجال إعادة الإنتاج الاجتماعي، الذي يكون عادة مجانيا، ويكون أجره تعاطفا، أو يُكافأ بـ"الحب". ان "تقسيم العمل" الكلاسيكي بين الجنسين هو أساس عدم التماثل الجندري الأساسي في قلب المجتمعات الرأسمالية. إنه يؤسس التبعية الاجتماعية للمرأة، والأنظمة الثنائية بين الجنسين، والتمايز الذي ما زال سائدا.

هكذا تتعامل المجتمعات الرأسمالية مع الانقسام الهيكلي بين "العمال الأحرار"، الذين يمكنهم مقايضة قوة عملهم مقابل أجر يغطي تكلفة إعادة إنتاجهم، وجميع "الآخرين" التابعين، أي الأشخاص الذين يستطيع الرأسمال مصادرة عملهم وثرواتهم بسهولة، لأنهم غير قادرين

على فرض الحق في السلامة الصناعية، والأجر المناسب.. الخ. وتوفر هذه المجموعة لرأس المال طاقة، ومواد خام مجانية، وتدفع بالأرباح نحو الأعلى. هذا التسلسل الهرمي للوضع، التمييز بين المستغل "المجرد" وأولئك الذين تمت مصادرتهم بشكل مباشر، هو أمر أساسي بالنسبة للمجتمع الرأسمالي. يتطابق التقسيم الفرعي تقريباً ولكن بشكل واضح مع التسلسل الهرمي العالمي للعرق والأصل القومي ولون البشرة ويدعم مجموعة كاملة من المظالم الهيكلية، من الاضطهاد العنصري إلى الإمبريالية القديمة والجديدة ونزع ملكية الشعوب الأصلية، وصولا إلى الإبادة الجماعية.

تميّز المجتمعات الرأسمالية أيضاً بشكل واضح جداً بين البشر والطبيعة غير البشرية، والتي لم تعد تنسبها إلى نفس الوضع الأنطولوجي. ويتم حصر الطبيعة غير البشرية في وظيفتها كمخزن للمواد الخام وتتعرض لعمليات استخراج وحشي بالإضافة إلى الاستغلال غير عادي. هذا ليس تجاهلا مطلقا للطبيعة (والكائنات الحيوانية) فقط، بل هو ظلم كبير للأجيال الشابة والمستقبلية من الناس الذين نترك لهم كوكباً غير صالح للسكن بشكل متزايد.

وفي النهاية، تصر الرأسمالية على التمييز الهيكلي بين "الاقتصادي" و"السياسي". من ناحية، لدينا قوة رأس المال الخاص لتنظيم الإنتاج باستخدام سوط الجوع "فقط". ومن ناحية أخرى، لدينا سلطة الدولة التي تدعي احتكار العنف وإنفاذ القانون. لكن مع هذا الفصل، يتم تضييق نطاق السياسة، وكما سأبين، تختفي سلسلة من الأسئلة الجوهرية من أجندة الرأي العام. سأعود إلى هذه النقطة لاحقا. ولأن بعض المسؤوليات والسلطات تنتقل إلى رأس المال، فإن المجتمعات الرأسمالية اليوم ليست سوى صورة فقيرة ومتداعية للديمقراطية. عيب آخر غير مقبول للرأسمالية هو أن غالبية السكان، الذين يتم التعامل معهم في أماكن أخرى كمواطنين مسؤولين، يخضعون ببساطة للحكم التعسفي لرأس المال.

لذلك فإن رؤية أوسع للمجتمع الرأسمالي تلفت انتباهنا إلى قائمة كاملة من مشاكل الظلم المهملة للغاية، التي لا تختلف عن الاستغلال الطبقي، وهي ليست عشوائية بل هيكلية في طبيعتها. ان بديلا اشتراكيا للمجتمع الرأسمالي يجب ان يعالج ويحل هذه المشاكل. لذلك، لا يكفي تغيير الشكل التنظيمي للاقتصاد فقط؛ فثمة حاجة أيضاً لعلاقة جديدة بين مجالي الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي، وبالتالي إلى أنظمة الجندر والاجناس. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يعني وضع حد لعقلية الاستيلاء عند رأس المال، و"الهدايا المجانية" من الطبيعة، ومصادرة السكان الأصليين والجماعات العرقية الأخرى وثرواتها. وفي نهاية المطاف، من المهم توسيع نطاق الادارة الذاتية الديمقراطية بشكل كبير، مقارنة بالوضع البائس الحالي. باختصار، يمكن في هذه المرحلة القول: إذا كان على الاشتراكية أن تعالج كل مظالم الرأسمالية، فلا يكفي تغيير النظام الاقتصادي الرأسمالي. مطلوب تغيير في النظام الاجتماعي الرأسمالي بأكمله.

وهناك استنتاجات أخرى يمكن استخلاصها من مفهوم موسع للرأسمالية. تؤثر أيضاً على ما نفهمه باعتباره احدى أزمات الرأسمالية. على سبيل المثال، يتم التركيز على بعض نزعات التدمير الذاتي المتأصلة في النظام، التي تتجاوز حدود النطاق الاقتصادي. أولاً، يمكن تحديد نزعة هيكلية تعرض التكاثر الاجتماعي للخطر بشكل متكرر. وفي الوقت الذي يسعى فيه رأس المال إلى تجنب الدفع مقابل أعمال التمريض والرعاية، فإن المسؤولين بشكل أساسي عن هذه المهام في مجتمعاتنا يتعرضون بشكل متزايد لضغوط هائلة، اي العوائل والأحياء والجماعات، وقبل كل شيء النساء. ويؤدي شكل التمويل الحالي للمجتمع الرأسمالي إلى تفاقم مثل هذه الأزمة، لأنه من ناحية يضغط من أجل تفكيك المكتسبات والخدمات الاجتماعية العامة، ومن ناحية أخرى يطالب الأسر والنساء، العمل لساعات أكثر فأكثر.

ومع فهم موسع للرأسمالية، لم يعد بالإمكان التغاضي عن الميل المتأصل في النظام إلى تفاقم الأزمة البيئية. يبذل رأس المال كل ما في وسعه حتى لا يضطر إلى دفع ثمن الموارد الطبيعية التي يستخدمها بالشكل المناسب. ويدفع رأسمال ملوحة التربة وتلوث المحيطات إلى مستوى غير مسبوق، وهو يعمق بشكل دائم تسرب الكربون وقدرات تخزين ثاني أكسيد الكربون في الأرض. ومع لجوئه الدائم إلى استنزاف المواد الخام الطبيعية ورفضه توفير الظروف لتجديدها أو استبدالها، فإنه يزعزع استقرار التفاعل الأيضي بين مكونات الطبيعة البشرية وغير البشرية. ولست بحاجة إلى توضيح مدى راهنية الأزمة البيئية الحالية.

إن ميل الرأسمالية إلى تعزيز الأزمات البيئية وتلك الخاصة بإعادة الإنتاج الاجتماعي لا ينفصل عن اعتمادها الأساسي على مصادرة ثروات الجماعات التي تعاني من اضطهاد عنصري. يسرق الرأسمال أراضيهم ومعادنهم ويستفيد منهم عبر مختلف أشكال اعمال السخرة. ويتم استخدام الأماكن التي يعيشون فيها بشكل متزايد كمدافن للنفايات السامة. وينظمهم بشكل متزايد في شكل سلاسل التوريد العالمية، ويقومون بأعمال الرعاية لقاء أجر منخفض في المراكز الرأسمالية. والنتيجة هي تشابك الأزمات الاقتصادية والبيئية والاجتماعية مع الإمبريالية والتضاد العنصري العرقي. لقد وضعت الليبرالية الجديدة معايير جديدة في هذا الصدد أيضا.

وفي النهاية، تكشف الرؤية الموسعة للرأسمالية عن حساسيتها المتأصلة في مواجهة الأزمات السياسية. في هذه الحالة أيضاً، يحاول رأس المال الاستفادة من السلع والموارد العامة دون الحاجة إلى دفع ثمنها. من خلال القيام بكل ما في وسعه لتجنب دفع الضرائب وإضعاف القدرة التنظيمية للحكومة، ويقوض رأس المال الخزينة العامة التي يعتمد وجوده عليها. وفي سياق تمويل الرأسمالية، وصلت هذه العملية إلى مستوى جديد تماماً. غالباً ما تكون الشركات العملاقة العاملة دولياً متفوقة على سلطات الدولة المقيدة إقليمياً والمؤسسات العامة من نواحٍ عديدة. ونرى كيف أن رأس المال المالي

العالمي يضبط ايقاع الدول، ويتجاهل نتائج الانتخابات السياسية (انظر مثال اليونان) (فرض شروط المؤسسات المالية لإسقاط حكومة اليسار- المترجم) ويمنع الحكومات من تبني المصالح المشروعة لشعوبها. وهذا يغرق السياسة في أزمة عميقة تتعلق بمفهومي الشرعية والهيمنة، حيث يبتعد الناس في جميع أنحاء العالم عن النظام الحزبي القائم والفطرة السليمة بشكل جماعي.

ويمكننا التأكيد على أن المفهوم الموسع للرأسمالية يزيد من عمق رؤية اتجاهات أزماتها المتنوعة، والتي لا يمكن حصرها في "الاقتصاد". استناداً إلى كارل بولاني (اقتصادي نمساوي - مجري - المترجم)، وجيمس أوكونور (سياسي امريكي)، أفهمها بدلاً من ذلك على أنها تناقضات "عابرة للمجالات" تنشأ وتحدث في المواقع التي تربط الاقتصاد الرأسمالي بالقطاعات غير الاقتصادية التي يقوم عليها، أو تفصل بينهما. بعبارة أخرى: تميل الرأسمالية إلى تقويض أو تدمير أو إضعاف (على أية حال زعزعة استقرار) شروطها الخاصة. إنها تقطع الغصن الذي تقف عليه. مرة أخرى، ينبغي ألا ننسى هذا عندما نتحدث عن الخطأ في المجتمع الرأسمالي وما يجب أن تتغلب عليه الاشتراكية.

أخيراً وليس آخراً، يجب الإشارة الى عجز الديمقراطية الهائل في ظل الرأسمالية. ان المشكلة ليست "فقط" في أن عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسلطة الطبقية يحبطان إمكانية الحقوق المتساوية لجميع الأصوات سياسيا. لا تزال المشكلة "فقط" هي أن المدراء لا يزالون أصحاب الكلمة الفصل في قاعات المصانع. على الأقل بنفس القدر من الأهمية، إن لم يكن أكثر أهمية، أن القضايا التي لها عواقب بعيدة المدى لا تخضع لنقاش وصنع القرار الديمقراطي. كيف نريد تنظيم إنتاج السلع والقيم التي نحتاجها، كيف ننجح في تلبية الاحتياجات البشرية المختلفة؟ ما هو شكل الطاقة التي يجب توفيرها وما نوع العلاقات الاجتماعية المطلوبة؟ كيف نريد ربط قطاعات الإنتاج، بالإنتاج الاجتماعي للبشر وللطبيعة غير البشرية؟ وربما الأهم من ذلك كله: كيف نستخدم فائض القيمة الاجتماعية التي ننتجها بشكل جماعي؟ في المجتمعات الرأسمالية ليس لدينا أي رأي في هذه الأمور. عادة ما يقررها المستثمرون الذين يحرصون على الحد الأقصى من التراكم من وراء ظهورنا.

إن رؤية أوسع للمجتمع الرأسمالي توسع أيضاً رؤيتنا لعيوب النظام. وإذا كانت الاشتراكية جادة في التغلب على هذه الشرور، فإنها تواجه مهمة شاقة. وبصفتنا اشتراكيين، لا يتعين علينا فقط ايجاد نظام اجتماعي جديد يمكنه إنهاء السلطة الطبقية، بل نحتاج أيضا إلى التغلب على التفاوتات المرتبطة بالجندر والهرمية الجنسية والقمع العنصري/ الإثني/ الإمبراطوري وأشكال مختلفة من الحكم السياسي. والتحدي الآخر هو إلغاء المؤسسات التي تخضع لاتجاهات الأزمة المختلفة - ليس فقط الأزمات الاقتصادية والمالية، ولكن أيضا الأزمات البيئية، وأزمات إعادة الإنتاج الاجتماعي وأزمات السياسة. وليس هناك شك في أن اشتراكية القرن الحادي والعشرين يجب أن تضمن

توسيع وتعميق الديمقراطية. إنها ليست مجرد مسألة إضفاء الطابع الديمقراطي على عمليات صنع القرار ضمن الإطار السياسي المحدد. ما نحتاجه هو دمقرطة العمليات التي يتم فيها تحديد ما ينتمي إلى عالم السياسة وما لا ينتمي إلى عالمها.

ما هي الاشتراكية؟ رؤية موسعة

إن مشروع إعادة اكتشاف الاشتراكية للقرن الحادي والعشرين ليس لعبة أطفال، بل تحدٍ لا ينبغي الاستهانة به. إنه بالتأكيد أكبر من أن يتعامل معه شخص واحد أو مجموعة، حتى لو كانوا منظرين متميزين. إنّ هذا المشروع لن ينجح إلا من خلال الجهود المشتركة للنشطاء السياسيين والمنظرين. وللقيام بذلك، يتعين علينا الجمع بين النتائج التي توصلنا إليها عبر النضالات الاجتماعية والأفكار البرامجية والتنظيم السياسي. ومع ذلك أود أن أوجز، فيما يلي، ثلاثة اعتبارات تؤثر على قضايا: حدود المؤسسات وفائض القيمة المجتمعية ودور الأسواق.

عند السؤال عن كيفية فصل "المجالات" المفترضة (مثل مجالي الاقتصاد والسياسة) عن بعضها البعض، فإنني أعتبرها ضرورية على الأقل، مثل التفكير في طرق تنظيمها الداخلية. بدلاً من التركيز حصرياً أو بشكل أحادي الجانب على تنظيم "الاقتصاد"، يتعين على الاشتراكيين التفكير في العلاقة بين "الاقتصاد" وظروفه الخلفية: في مجال إعادة الإنتاج الاجتماعي، وعلى أشكال الثروة الطبيعية غير الرأسمالية وعلى السلطة العامة. ومن أجل التغلب على جميع الأشكال المؤسسية الرأسمالية غير العقلانية، انعدام الحرية والظلم الرأسمالي، علينا كاشتراكيين أن نكتشف كيف يمكننا إعادة تشكيل العلاقة بين الإنتاج وإعادة الإنتاج، والمجتمع والطبيعة، وبين الاجتماعي والسياسي.

لا أريد القول إن الاشتراكية يمكنها ببساطة تجاهل جميع الاختلافات بين هذه المجالات. وينبغي أن تكون مساعي الاتحاد السوفياتي هنا لإلغاء التمييز بين السياسي والاقتصادي بمثابة تحذير عام. وعلى الرغم من ذلك لا يمكننا تجنب وضع التقسيمات المؤسساتية لمجتمعنا الرأسمالي اساسا في سؤال، لتنظيمها من جديد. أحد الاحتمالات، على سبيل المثال، هو إعادة تعريف هذه الأمور بطريقة ما، كأن تصبح الأمور المحسوبة الآن بشكل واضح على الاقتصاد قضايا سياسية أو اجتماعية. يمكننا أيضاً محاولة تخفيف بعض الحدود المؤسسية بشكل أكبر من أجل ضمان أن المجالات المختلفة تتوافق مع بعضها البعض بشكل أفضل، أي أنها تتصرف بأقل عدائية مع بعضها البعض. وما ينبغي على المجتمع الاشتراكي، في جميع الأحوال تجاوزه، هو ميل الرأسمالية إلى "ألعابها الصفرية" يتم فيها تغذية الإنتاج بما انتزع من قبل من الطبيعة أو إعادة الإنتاج الاجتماعي.

والأكثر أهمية هو تحديد الأولويات بشكل مختلف داخل هذه المجالات. بينما في المجتمعات الرأسمالية تخضع متطلبات إعادة الإنتاج الاجتماعي والبيئي لمتطلبات إنتاج السلع الموجهة نحو تراكم رأس المال، يجب على الاشتراكية أن تقلب المعادلة:

يجب أن تأتي احتياجات الناس، وحماية الطبيعة وحق تقرير المصير الديمقراطي في مجتمعاتنا في المقام الأول، وليس الكفاءة والنمو الاقتصادي. وهذا يعني أنه يجب علينا أن نضع في المقدمة وبوضوح الأشياء التي يدفعها رأس المال إلى الخلفية وينكرها.

وفي نهاية المطاف، يجب على الاشتراكية الملائمة للقرن الحادي والعشرين إضفاء الطابع الديمقراطي على السيرورات ذاتها التي تحدد تعريف وإعادة تشكيل الحدود المؤسسية. ومن الآن فصاعداً، من المهم جعل المهمة "ما وراء السياسة" (ما يخص العالم والطبيعة) لإعادة تنظيم المجالات الاجتماعية المختلفة وعلاقتها ببعضها البعض موضوعا للمناقشات الجماعية: ينبغي على الرأي الديمقراطي، أن يقرر بنفسه الأمور التي يجب التعامل معها، وفي أي ترتيب وفي أي الفضاءات السياسية والاجتماعية يجب معالجتها. وحتى لو كانت الوحدات الإقليمية التي تطورت بمرور الوقت، مثل "الدول القومية" لا تزال تحتفظ بمبرر معين، لا يجب بالضرورة إلغاؤها بالكامل، فإن الأمر يتعلق بإعادة هيكلتها من خلال وحدات سياسية محددة وظيفياً. يجب أن تعمل هذه الوحدات السياسية على مستويات مختلفة، وقبل كل شيء يجب أن تلتزم بمبدأ أكبر مشاركة ممكنة. ومن حيث المبدأ، يجب أن تقوم إعادة التنظيم الاشتراكي للعلاقات الاجتماعية على مبدأ عدم الهيمنة. ومن المهم أن نقول وداعا لأشكال الاستغلال والحكم القديمة التي تسود النظام الاجتماعي الرأسمالي بأكمله، وأن نتسلح ضد كل علاقات الهيمنة التي ربما تستمر مواجهتها في المستقبل.

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تسترشد عملية إعادة التنظيم الاجتماعي بقدر الإمكان بمبدأ "ما تستهلكه، يجب أن تستبدله". وفي المجتمع الاشتراكي لا ينبغي أن يكون هناك مكان "للانتفاع المجاني"، أي لاستخدام الموارد دون مقابل، وكذلك "للتراكم البدائي". في ظل الاشتراكية، يجب التأكد من أن ظروف الإنتاج منظمة بشكل مستدام، وهو أمر تتجاهله الرأسمالية بشكل إجرامي. وبعبارة أخرى: المجتمع الاشتراكي سيكون ملزماً بتجديد أو إصلاح أو استبدال جميع الموارد التي يستخدمها ويستهلكها في الإنتاج والإنتاج الاجتماعي. وهذا ينطبق على أعمال الرعاية والعمل الإنتاجي بالمعنى الضيق، وكذلك العمل الذي ينتج قيم الاستخدام والسلع. وينبغي على المجتمع الاشتراكي أن يعوض الثروة التي يجنيها "من الخارج"، ومن المناطق "الأطراف" ومن المجموعات السكانية وكذلك من الطبيعة. كما يجب أن يهتم بالحفاظ على جميع العمليات السياسية والمنافع العامة التي نحتاجها من أجل تلبية الاحتياجات المختلفة وصيانتها. بعبارة أخرى: لا لمزيد من استغلال تلك المناطق المنبوذة والمحرومة والمدفوعة حالياً إلى الخلف في المجتمع الرأسمالي. وهذا أيضاً شرط أساسي مهم لمواجهة الظلم بين الأجيال المرتبط بالمجتمعات الرأسمالية. إذا نظرنا فقط إلى كل هذا يمكن أن تتغلب اشتراكية القرن الحادي والعشرين على اللاعقلانية الرأسمالية ومؤسساتها المعرضة للأزمات.

يقودني هذا إلى نقطتي الثانية، والتي تستحوذ على الاهتمام الاشتراكي الكلاسيكي، أي فائض القيمة الاجتماعية. إن فائض القيمة هو أساس كل الثروة ينتجها المجتمع، عندما ينتج المجتمع أكثر مما يحتاجه مباشرة، للوصول الى المستوى والشكل الراهن للإنتاج الاجتماعي. ومن المعروف ان فائض القيمة في المجتمعات الرأسمالية يعد ملكية خاصة للطبقة الرأسمالية. وكقاعدة عامة، يتم استخدام فائض القيمة لإنتاج المزيد من فائض القيمة. وهذه العملية تعيد نفسها مراراً وتكراراً، فهي لا تعرف حدوداً، لكنها، كما نعلم، تنطوي على عدد من المشاكل: وهي قبل كل شيء، غير عادلة ومدمرة للذات.

ولهذا يجب على المجتمع الاشتراكي أن يبحث عن طرق تمكنه من التحكم في الفائض الاجتماعي وإعادة توزيعه بطريقة ديمقراطية. وهذا يتطلب اتخاذ قرار جماعي يسمح لنا أن نقرر ما الهدف الذي يجب أن تستخدم من أجله الفوائض والموارد الحالية وما مقدار فائض القيمة الذي يجب أن ينتجه المجتمع، ومدى ضرورة انتاج فائض القيمة مستقبلا. بعبارة أخرى، لدى الاشتراكية مهمة كسر حتمية النمو في النظام الرأسمالي. هذا لا يعني حتى الآن أنه يتعين علينا أن نؤسس لـ "تراجع النمو" كضرورة جديدة مضادة. وسنكسب الكثير إذا نجحنا في تحويل مسألة النمو (إذا كان لا بد من النمو، فما مقدار النمو، وما هو نوعه، وفي أي مجالات ولأي غرض؟) إلى سؤال سياسي. يجب أن تسعى الاشتراكية للقرن الحادي والعشرين إلى تحويل جميع الموضوعات التي يتم تناولها هنا إلى مادة نقاش ديمقراطي: ماذا وكيف وكم نريد إنتاجه في المستقبل؟ وأي جزء من ساعات العمل المتحققة نريد استخدامه لإنتاج فائض القيمة؟ وأبعد من ذلك: ما الذي نحتاجه فعلاً لإعادة إنتاج مجتمعاتنا والحفاظ عليها في المستوى الحالي؟

إن تنظيم فائض القيمة الاجتماعي بشكل مختلف سيكون له أيضاً فوائد مرتبطة بالوقت: ما الذي لا يمكننا فعله في المستقبل طوال الوقت المتبقي لنا عندما ينجز العمل الضروري اجتماعياً، العمل الضروري لتلبية احتياجاتنا الإنسانية الأساسية؟ في كل التصورات الاشتراكية الكلاسيكية عن الحرية، بما في ذلك تصورات ماركس، فإن وقت الفراغ المتاح هو منظور مركزي. ومع ذلك، أشك في أنه سيكون لدينا قدر كبير، في المراحل الأولى من الاشتراكية، من وقت الراحة والفراغ لأننا سنواجه العديد من الفواتير المفتوحة الموروثة من الرأسمالية. على الرغم من أن الرأسمالية تفتخر بإنتاجيتها العالية، وحتى ماركس أدرك هذا كعامل حاسم لزيادة فائض القيمة، فان شكوكي باقية. المشكلة أن ماركس لم يأخذ في الحسبان سوى فائض القيمة الذي يصادره رأس المال، والناتج عن وقت العمل المأجور، الذي ينتج فيه العاملون القيمة التي تغطي تكاليف معيشتهم. ولم يول ماركس اهتماماً كبيراً "بالهدايا" و"المساومات" المختلفة التي يبتلعها رأس المال دون أن يرف له جفن، ناهيك عن مشكلة رفض رأس المال

الدائم دفع تكاليف إعادة إنتاج العمال الاجتماعي. ماذا لو تم تضمين كل هذه التكاليف في تقييمنا الشامل للرأسمالية؟ ماذا لو كان على رأس المال أن يدفع مقابل جميع أعمال الرعاية غير مدفوعة الأجر، وجميع تدابير الإصلاح البيئي والتجديد، والمنافع العامة، إذا كان عليه أن يعيد الثروة المصادرة لضحايا العنصرية؟ ماذا سيتبقى من فائض القيمة الذي سيصادره رأس المال في النهاية؟ هذا بالطبع سؤال بلاغي. لا أعرف من أين أبدأ للحصول على إجابة مرضية له. ليس لدي شك في جانب واحد: ان الفاتورة المفتوحة، والموروثة من الرأسمالية، بعد قرون من الاستغلال المجاني، والتي تهدد المجتمع الاشتراكي، ستكون طرية للغاية.

إن جزءاً من هذه الفواتير المفتوحة هو كل الاحتياجات البشرية غير المشبعة في هذا العالم: هناك نقص في كل مكان، في الرعاية الصحية الجيدة، والسكن الكافي ميسور التكلفة، المساواة في الحصول على طعام صحي (ولذيذ)، والتعليم، والتنقل، وغيره الكثير. كل هذا لا ينبغي أن يُفهم على أنه استثمار غير ضروري في قوة العمل البشري، بل باعتباره ضرورة قصوى. وينطبق الشيء نفسه على المهمة العاجلة وغير القابلة للتأجيل المتمثلة في تحرير الاقتصاد العالمي من اعتماده الأساسي على الوقود الأحفوري. وأساسا، تأخذ مسألة ما هو ضروري اجتماعيا وما هو غير ضروري أو غير اساسي منحى مختلفاً تماماً عندما يتم توسيع الرؤية في تحليل الرأسمالية.

الأمر نفسه ينطبق على مسألة دور الأسواق في المجتمع الاشتراكي. يمكن اختزال الإجابة الناتجة عن العرض الذي قدمته ببساطة في الاتي: لا توجد أسواق في الأعلى ، ولا توجد أسواق في الأسفل، ولكن ربما في ”المساحات“. وأود أن أوضح ما أعنيه.

عندما أتحدث عن الأعلى، فإنني مهتمة بتخصيص فائض القيمة الاجتماعي. ولنفترض ان هناك فائض قيمة اجتماعيا يجب توزيعه، فيجب أن يُنظر إلى ذلك على أنه شيء جماعي، كشيء انتجه المجتمع ككل. ولا يحق لأي فرد، شركة، ودولة امتلاكه أو التصرف به بمفردها. نحتاج الى عمليات صنع القرار والتخطيط الجماعية من أجل تحقيق (إعادة) توزيع عادل لفائض القيمة المنتج بشكل جماعي. ويجب أن تكون هذه العملية ديمقراطية وشفافة قدر الإمكان. وقد لا تلعب هنا آليات السوق دوراً. وهذا يعني: في الأعلى ليست هناك حاجة للأسواق أو للملكية الخاصة.

وينطبق الشيء نفسه على ”الأسفل“، وأعني بها مستوى الاحتياجات الأساسية: المسكن، الملبس، الغذاء، التعليم، الصحة، توفير الطاقة، النقل الاتصال، والأنشطة الترفيهية. وليس لدي أوهام بأنه من الممكن تحديد ما نعنيه بالاحتياجات الأساسية بشكل نهائي، وما هو المطلوب بالضبط لإشباعها. وهذا ينبغي أن يكون أيضا مادة لصراع ديمقراطي ونقاش وصنع قرار. ولكن بغض النظر عن ماهية وكيفية القرار: الوصول إلى البنى التحتية والخدمات

الحيوية، ينبغي أن ينظمه القانون وألا يكون مرتبطا بالقدرة على دفع التكاليف. هذا يعني أن قيم الاستخدام التي ننتجها من أجل تلبية هذه الاحتياجات يجب ألا تُعامل على أنها سلع، ولكن كمنافع عامة. وبالمناسبة ولهذا السبب، أنا لست من انصار الدخل الأساسي (غير المشروط). ينص الأخير على دفع مبلغ شهري معين للناس حتى يتمكنوا من شراء أشياء لتغطية احتياجاتهم الأساسية. وبهذا يتخذ إشباع الحاجات الأساسية شكل سلعة. في مجتمع اشتراكي، ينبغي أن يكون الهدف هو النظر إلى الاحتياجات الأساسية على أنها خيرات عامة. هذا يعني: لا وجود لأسواق في النهاية السفلى.

أي لا وجود للأسواق في الأسفل والأعلى. ولكن ماذا عما بينهما؟ ليس لدي موقف واضح ونهائي من هذه القضية. أتصور ما بين الاثنين كنوع من المختبر الذي يمكننا فيه تجربة خيارات وأساليب مختلفة، كمساحة يمكن أن تجد مكانا فيها ''اشتراكية السوق'' مع التعاونيات والمشاعات والجمعيات والمشاريع ذاتية الإدارة. وأظن أنه في السياق الذي قدمته، ستصبح العديد من الاعتراضات اليسارية الكلاسيكية على الوجود وهدف الأسواق غير ضرورية أو على الأقل ستضعف. لان هذه المساحات الوسطية لن تعتمد أو تحدد بواسطة آليات تخدم تراكم رأس المال أو المصادرة الخاصة لفائض القيمة الاجتماعي. بمجرد حدوث تنشئة اجتماعية وإلغاء التسليع في الأعلى والأسفل، أعتقد أنه سيكون من الممكن تحقيق تحول في وظيفة ودور الأسواق في المساحات الوسطية. حتى وان كنت لا أتمكن الآن من قول كيف ينفذ ذلك بالضبط، فبالنسبة لي يبدو هذا النهج أكثر قبولا.

من الواضح بالنسبة لي أن مفهوم الاشتراكية الذي أشرت إليه هنا متواضع إلى حد ما، ولا يزال بدائياً. وما حاولته في هذه المساهمة هو صياغة إجابات أولية غامضة لمجموعة فرعية صغيرة جدا من الأسئلة الضرورية. وآمل أن يكون لهذه المساهمة بعض القيمة. وآمل بشكل خاص أن أكون قد أثبتت بشكل مقنع أن مثل هذا المشروع يستحق متابعة في القرن الحادي والعشرين أيضاً. وينبغي أن تكون ''الاشتراكية'' أكثر من مجرد شعار. لأن الرأسمالية الحالية على وشك تدمير كوكبنا وآفاقنا في حياة حرة وديمقراطية وجيدة، يجب أن تصبح ''الاشتراكية'' بديلاً حقيقياً للنظام. سأكون سعيدة أيضاً إذا بينت بوضوح لماذا لم يعد فهم المدرسة القديمة للاشتراكية مفيداً اليوم. وانه فقط من خلال تحليل موسع للرأسمالية يمكن تطوير فهم مناسب وحديث للاشتراكية يمكن له أن يحقق، بشكل عادل، جميع احتياجات وآمال القرن الحادي والعشرين.

*** نشر البحث باللغة الألمانية في كانون الأول 2020 في موقع مجلة روزا لوكسمبورغ الصادرة عن مؤسسة روزا لوكسمبورغ الألمانية.**

حـــــــــــوارات

حوار مع المفكر والعالم السوسيولوجي
د. فالح عبد الجبار

حاوره/ طالب عبد الامير

في التاسع من أبريل/ نيسان، مرّ ما يقرب من العقدين على إسقاط النظام الاستبدادي الشمولي في العراق، ومازالت الدولة، التي هدمت معاول القوات الامريكية مرتكزاتها الاساسية في التاسع من نيسان العام 2003 من اجل اعادة بنائها من جديد لا تبحث عن هويتها المدنية، تلك التي اكتسبها العراق، بعد الحرب العالمية الأولى، نتيجة تأثيرات العامل الصناعي، الذي دشن مرحلة جديدة للتحضر والمدنية، بعد المرحلة الزراعية. ولم تجد الدولة، طيلة السنوات المنصرمة التي شهدت فيها صراعات واصطفافات جديدة، فكاكا من تشظي الولاءات والانتماءات والتعكز على الهويات الفرعية، الطائفية والاثنية ومن ثم العشائرية التي تغلغلت في مسارات الدولة ومفاصلها وترسخت في المجتمع العراقي، بعد أن نجح العراق في التخلص من تأثيراتها سابقاً لفترة من الزمن.

عادت المؤسسة القبلية في العراق، الى الواجهة، أولاً، على يد سلطة البعث التي وصلت الى الحكم في العراق عام 1968، إذ حاول نظام صدام حسين تحويل المؤسسات العشائرية والقبلية الى حجر أساس في الدولة الشمولية. كما أشار المفكر وعالم السوسيولجيا الراحل د. فالح عبد الجبار، في ندوة له عُقدت في العاصمة السويدية ستوكهولم العام 2000، اي قبل اسقاط النظام بثلاث سنوات، وأكثر من عقدين من ذلك التاريخ.

في تلك الندوة التي اعتز بإدارتها، حاورته حول موضوعتها الاساسية "عودة العشيرة الى المجتمع العراقي"، تطرق د. فالح عبد الجبار الى جملة من القضايا المتعلقة بالقبيلة وسطوع نجمها وأفوله ومن ثم احيائه من جديد.

طالب عبد الامير
نيسان 2021

طالب عبد الأمير: ما هي برأيكم الأسباب والعوامل التي ساهمت في انتعاش العشيرة من جديد؟

د. فالح عبد الجبار: في مقدمة تلك الأسباب، ضعف الدولة من خلال جهاز الحكم، وارتفاع نسبة الجريمة الذي ترافق مع تراجع الدولة عن توفير الخدمات الاجتماعية، وتأمين الأمن والأمان والضمان لأفراد المجتمع. اضافة الى ضعف الوضع الإقتصادي الذي عانت منه البلاد. وهذه عوامل اساسية ساعدت على عودة النزعة العشائرية الى المجتمع. بعد أن انحسر دور المؤسسة القبلية التي نهضت في السابق نتيجة المد القبلي وهجرة القبائل وتوافدها الى المنطقة من جهة، والتصحر الذي اكتسح مناطق عديدة، من جهة أخرى. إضافة الى انهيار السلطة المركزية القديمة في العهود السابقة.

سابقاً، كان المد القبلي في المناطق التي شكلت فيما بعد العراق، قد بدأ منذ القرن الثالث عشر واستمر حتى القرن العشرين. ونتيجة لتلك الهجرة شكل البدو، خلال القرن الثامن عشر، نسبة 91 بالمائة من السكان. لكنه وبعد بناء الدول الحديثة وتوطين البدو التي شملت في العام 1910 نسبة خمسين بالمائة منهم، وظل نصف العدد بدوا رُحَّل، ارتفعت نسبة سكان المدن، في تلك الفترة الى 24 بالمائة. بيد أن فترة انتقال العراق من البداوة الى الاستقرار الزراعي، ومن ثم الى التمدن، امتدت لفترة زمنية قصيرة، وهي حديثة العهد قياساً الى أوروبا، التي تجاوزت فيها عملية التمدن أكثر من الف عام. لذلك عاشت الكثير من القبائل كجيوب في المدن، وقد احتفظت بقيمها وببعض عاداتها وسلوكياتها.

دولة القبيلة

إن شكل القبيلة القديم، ككيان اجتماعي واقتصادي وعسكري مستقل انتهى. وما بعد 14 تموز 1958. لم يبق منها سوى ما نطلق عليه مصطلح "القبلية الثقافية"، بعد ان كانت القبيلة تشكل دولة

مصغرة، متنقلة، لها كافة مقومات الدولة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية. كما كان للقبيلة أنماط خاصة من الزعامة، لا تخضع لشروط الإختيار أو الازاحة. وفي القبيلة سادت ثقافة شفاهية. وكان هناك تصور بأن الكيان القبلي مرتبط بجَدٍّ واحد، بمعنى أن أفراد القبيلة يرتبطون في ما بينهم بصلة الدم او العصبية. والعصبية هنا تعني التضامن، وحتى أحيانا تفسر كاندماج. كما أن لهذا الكيان قانونه، الذي يسمى بالعرف. العرف العشائري يُحاسب، على اساسه، كلَ فرد منتمي الى القبيلة، إذا ما ارتكب جرما ما بالإقصاء. وهذا الحُكم، يعني، في تلك الفترة، التي سبقت التمدن ترك الفرد المعاقب بلا حماية ودمه مهدور. كما أن لهذه المنظومة إنتاجها الرعوي بالابل والجمال وتكاثرهما والمتاجرة بهما. وكانت القبائل تقوم بغزوات وتفرض الخاوات اذا كانت قوية، فتحصل على دخل اضافي لها. وأحيانا الى جانب الانتاج الرعوي تحاول دولة القبيلة استغلال بعض الواحات. كما أن للقبيلة جيشا، ولكن ليس جيشا نظاميا، كما للدولة، ويتشكل من بعض من افرادها. فجيش القبيلة هو جميع افرادها من الذكور الراشدين الأصحاء. ومن لم يشترك في هذا الجيش يعاقب نفسه، ليس مادياً كفقدان وظيفته او ماشابه، بل أن تلصق به وصمة العار.

هذا النمط من التنظيم القبلي، على المستوى العام كان سائداً طيلة العهد الزراعي، بمعنى مرحلة ماقبل الصناعة. كما أن خاصية بروز القبيلة أنها نشأت حيثما كانت هناك درجة دنيا من التطور. وهذا الأمر جرى في كل المجتمعات في العالم دون استثناء.

طالب: كيف تفسرون، عزيزنا د.فالح، بروز دور الكيان القبلي وتأثيراته في المجتمعات، ومسار تطوره الذي يفضي في الآخر الى تفككه؟ يسترشد د. فالح عبدالجبار بابن خلدون، صاحب "نظرية العمران" الشهيرة. وهنا يقول:

د. فالح: كان إعتقاد ابن خلدون منصباً على وجود مسار ثابت للصراع المستمر، في خط يصل الماضي بالحاضر والمستقبل. بين القبيلة، القبائل والمدينة. أو بين البداوة والحضارة، حسبما يسميها ابن خلدون. كانت القبيلة تفوق المدينة بقوتها العسكرية المسلحة. إذ وبينما كان جميع افراد القبيلة الراشدين يحملون السلاح، كان جزء من القاطنين في المدينة يقومون بمهمات عسكرية، وذلك وفق تقسيم العمل المتشعب المجالات في الحضارة أو المدينة الذي يعد من أهم شروط وجودها.

الشيء الآخر هو أن إنتاج البدوي نفسه للأبل التي يمتلكها يعتبر وسيلة للحرب، وهي ذات حركية عالية. كما ينظر إبن خلدون الى البدو، وبخلاف أهل المدن، على انهم أحرار، لأن ليس ثمة سلطان يحكمهم، بينما اهل المدن ليسوا كذلك، فهم يخافون بسبب وجود حاكم متسلط. كما أن المدن تقيم أسواراً لتحميها، لذلك ليس ثمة ضرورة لتدريب أفرادها على السلاح. فالقبيلة بهذا المعنى كيان مكتفي بذاته.

وكنتيجة لقدراتها العسكرية المتفوقة على الحاضرة أو المدينة، تشن القبيلة هجمات على المدينة بغية الاستيلاء على المُلك. وما ان يتم ذلك حتى تبدأ المدينة بإظهار قوتها التي لا تمتلكها القبيلة وهي الثراء والملك. فيبدأ الصراع على الثروة الذي يؤدي الى تمزق القبيلة، بعد أن تنساق الى ترف العيش وتأخذ حسب نظرية ابن خلدون بالتفكك حتى انتهائها بعد ثلاثة اجيال، حينئذ تنتهي الاستقراطية العسكرية البدوية وتتحضر، وتغادرها العصبية، فتصبح مدنية، وتبدأ دورة جديدة، اعتقد ابن خلدون بأنها مستمرة باتجاه تصاعدي. هذا ما كان يعتقده ابن خلدون. ويرى فيه فالح عبد الجبار توصيفا ذا دلالة، تنطبق على المنطقة العربية وتركيا وايران. وهذه المسألة تجري في سياقها الطبيعي وسيرها باتجاه تطور مستقيم.

طالب: تذكر بأن ابن خلدون استثنى في نظريته العراق، في تلك الفترة التي سبقت سقوط بغداد على يد هولاكو، فهل من تفسير لذلك؟

د.فالح: استثنى ابن خلدون في نظريته العراق، وذلك لأن العراق بلد تستقر فيه جماعات من "علوج" وفلاحين. وهو بلد أمصار ودهماء، بمعنى أهل مدن، كما توجد فيها الكتائب العسكرية للفرس والرومان التي جاءت بعد الغزو الإسلامي. بهذا التوصيف والاستثناء فإن العراق كان بلداً متحضراً. وهذه الفكرة تبناها العلاّمة علي الوردي، معتبراً إياها واحدة من منابع نظريته.

طالب: فما الذي جرى في العراق إذن حتى دخلت إليه البداوةً؟

د.فالح: أولاً، السبب الرئيس هو سقوط الدولة المركزية، التي كانت تشكل قطباً

مضاداً للبدو، وهي قطب توازن. بعدها قام الغزاة المغول، وهم شعب رعوي، بدوي بتدمير أنظمة الري المعقدة المعمول بها آنذاك، وذلك لجهلهم بها. اذ قاموا بتدمير ثلاثة ارباع هذه المنظومات. واستحضر هنا قول كارل ماركس، بأن أولئك كانوا يدمرون أي شيء لا يفهمونه، لأنهم كانوا يخافون منه، ويثير في رؤوسهم الوساوس.

إن تدمير منظومات الري أدى الى تصحّر هائل في العراق. وهذا هو العامل الثاني لدخول البداوة او القبلية إليه. أما العامل الثالث فهو المد القبائلي عن طريق الهجرات من بوادي فارس وبوادي شرق الأناضول من الشمال. وهذه العوامل مجتمعة حولت العراق الى أرض خلدونية. بمعنى ينطبق عليها قانون ابن خلدون. كان ذلك منذ القرن الثالث عشر واستمر حتى القرن العشرين.

طالب: بعد التوصيف العام للقبيلة وتنظيمها العسكري وقانونها وثقافتها وما الى ذلك، هل بالامكان الحديث عن منظومة العلاقات الداخلية لمؤسسة القبيلة، تركيبتها الداخلية ومن ثم طبيعة العلاقة التي تربط ما بين القبائل وعن آلية هذه العلاقة؟

د.فالح: القبيلة كبناء اجتماعي، سياسي، اقتصادي وعسكري، يتكون من كيان القبيلة وهو الإطار الأوسع. ثم تأتي بعدها العشيرة. فمجموعة من العشائر تكون القبيلة. وبدورها تتكون العشيرة من بطون وافخاذ. والأفخاذ بدورها تتكون من حَمولات. والحَمولة تتألف من بيوتات.

العشيرة كما القبيلة ليس لها مكان جغرافي محدد، ولا يمكن أن يكون لها مكان واحد، وإنما تنتشر على مساحة واسعة. وفي ذلك العصر الذي لم تُعرف فيه التكنولوجيا والمواصلات بعد.. فلا قطارات ولا لاسلكي ولا غيره من وسائل التواصل، كانت الوحدة ما بين القبائل، وما بين العشائر وحدة وهمية. وحدة تنشأ عند وجود خطر يهدد المؤسسة. فهي وحدة ذات وظائف عسكرية. وليس فقط عند الخطر، بل وايضاً، عندما تكون هناك زعامات من إحدى العشائر القوية. فمستويات القبيلة والعشيرة هي مستويات ناظمة للتنظيم العسكري والسياسي مع القبائل والعشائر الاخرى في التحالفات والحروب وغير ذلك. أما الأفخاذ، فهي فعلاً الجماعة الاساسية التي يسمونها في علم الاجتماع القرابة. فافراد الفخذ يعيشون متقاربين، وان التزاوج بين افراد البيوتات عال جدا. فهذه المجموعة فعلا ذات نسب واحد. على مستوى الافخاذ والحمائل ينظم الاقتصاد، الرعي والماء وغيرهما. فهي وحدات لديها غرض داخلي، وهي نسيج الحياة نفسها، بخلاف القبيلة التي يكون لها غرض خارجي. وكذا الحال بالنسبة للبيوتات. فهي وحدات سكن ووحدات مخيمات ووحدات انتاج ايضاً في نفس الوقت.

طالب: ولكن ما هو شكل العلاقات ما بين القبائل؟

د.فالح: كما معروف تختلف القبائل

من حيث عدد الأفراد، فهناك قبائل كبيرة وأخرى صغيرة. وهناك قبائل تعيش ظروفاً مختلفة، وعلى هذا الأساس يكون شكل هذه العلاقة مراتبية، وبين سيد ومسود. القبائل الارفع مستوى والاقوى هي التي تملك الابل، ويسمونهم أهل الأبل. واذا كانت هناك قبيلة عددها كبير، فهي تفرض سطوتها العسكرية على القبائل الاخرى. المجموعة الأدنى في هذه المراتبية التي تلي اصحاب الإبل، القبائل التي تضطرها ظروف خاصة الى رعاية الأغنام ويطلق عليهم اسم الشاوية. ثم بعد الشاوية، في أسفل السُلَّم يأتي الحرّاثة، الذين تضطرهم الظروف الى مزاولة هذا النوع من الزراعة.

بطبيعته، الفرد البدوي لا يحب أن يكون راعيا أو مزارعاً. لكن ظروف الحياة والعيش تفرض نفسها عليه فيضطر الى هذه المهنة. فتنشأ بين القبائل مجموعة من القيم نابعة من هذه التخصصات. فتصبح المراتبية القيمية تفاضلية. تفضيل مجموعة على اخرى.

بعد توطنها واستقرارها قامت القبائل، بامتهان الزراعة، لأن ليس بمقدورهم العيش فقط، من تربية الأبل والخيول وما الى ذلك. لكن التمايز في المراتبية بقي مسايراً لفترة طويلة. فالذين يزرعون الحنطة يرون انفسهم افضل من الذين يزرعون الشعير، وزارعو الرز ينظرون الى انفسهم بأنهم افضل من زارعي الخضرة. واورد هنا مثالاً، على ما تقدم، بأنه مازال هناك في الجنوب العراقي ممن يزدرون زارع الخضرة، ويلقبونه بالخضيري. وبعض العائلات تمتنع عن تزويجه بواحدة من بناتهم. اذ يعتبرونه في اسفل السلَّم الاجتماعي. وكذلك من يسمونهم بالمعدان، وهي واحدة من الكلمات الإزدرائية، للأسف، التي تصنف مجموعة من الناس في قاع المجتمع.

وبعد أن اعطى صورة تفصيلية للعلاقات بين القبائل والمدن، والعلاقات ما بين القبائل نفسها، حدّد المفكر السوسيولوجي فالح عبد الجبار السمة التي ترافق هذه العلاقات، وهي الاحتراب الدائم، أو ما يسمى بعالم حرب الجميع ضد الجميع. وعلى مدى التاريخ كانت هناك قبيلة بدوية شديدة التنظيم، شديدة البأس استطاعت أن تقود وتستولي على المُلك، حسب الظرة الخلدونية. وإستمر هذا النموذج حتى مجيء العثمانيين، وهم آخر موجة بدوية بشكلها الكلاسيكي. لكنها وبخلاف سيادة القبلية التي عادة ما يكون عمرها ثلاثة أجيال، فالقبيلة العثمانية استمرت أربعة قرون حتى آلت الى الفناء.

طالب: فما هو السر في ذلك؟

د.فالح: السبب يكمن في أن الدولة العثمانية دشنت ظهورها في عصر البارود، الذي شكل رمزا للعصر الحديث. إذ استطاعت أوروبا بإستخدام البارود (السلاح الناري) تحطيم قلاع الاقطاع، وتحقق الانتصار للمدن البرجوازية. وفي المنطقة العربية استطاعت الدولة، بفضل البارود، أن تصد القبيلة وتحد من قوتها في اقتحام المدن. كما أن البندقية سريعة الطلقات استطاعت أن تضع حدا

لهجمات البدو الذين باتوا غير قادرين على البقاء في المدن التي يهاجمونها. بل أصبحوا يضربون ويهربون. وبهذا لم يعد بمقدورهم تأسيس دولة قبلية، حسب النظرية الخلدونية. السبب الآخر يكمن في مد خطوط التلغراف، الذي استخدم في نقل المعلومة لمراقبة تحركات القوات في الاماكن المختلفة. اضافة الى ذلك استخدام السفن البخارية التي ظهرت لاحقا واستخدام البغال لحمل الامتعة والمعدات في الحروب التي كانت تقوم بها الدولة العثمانية ضد القبائل. ساهمت كل هذه العوامل في تحجيم قوة القبيلة. هذا التوازن استمر طيلة فترة حكم الدولة العثمانية، ومن ثم سار العمل بشكل تدريجي الى أن تم انتصار المدينة على القبيلة.

إلا أن الانعطافة التاريخية في هذا المسار حدثت في بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر، حيث تم القضاء على دولة المماليك. كانت المماليك تمثل دولة القبيلة. وتعتبر نداً لقبائل أخرى تعترف بوجودها وبحقوقها.. الخ. وكانت دولة المماليك تشجع على تشكيل القبائل لاتحادات تمثلها، وذلك لتسهيل دورها في التعامل مع جهة واحدة تمثل القبائل الأخرى. ففي الجنوب شجعوا على انشاء اتحاد قبائل المنتفك. وفي الشمال شمّر وغيرها. ثم انقلب الوضع بعد سقوط دولة المماليك. لكن في ذات الوقت باتت الدولة العثمانية تدرك ضعفها ازاء الغرب، من خلال حروب خاسرة معها. كما انها اخذت تشعر بأهمية اعادة تنظيم الدولة على اسس حديثة، وذلك بانشاء وزارات، وجيش دائم الذي كانت الانكشارية تشكيلته الاولية. ثم ادخال التكنولوجيا وتوطين القبائل. كما وضعوا حدا للفوضى في طرق التجارة والملاحة وغيرها، اذ استخدمت الدولة العثمانية سياسة تفكيك وتجزئة الاتحادات القبلية وتوطين افرادها. إحدى عمليات التوطين الناجحة تلك التي قام بها مدحت باشا لقبائل الدليم. وقبلها لقبائل المنتفج، حيث أنشأ الشيخ ثويني مدينة سوق الشيوخ. كان الشيخ ثويني قد أنشأ بالفعل سوقاً متنقلاً للشيوخ. كان يبعث بشخص (طارش) الى رؤساء القبائل للالتقاء بهم سنوياً في مكان ما، حتى أقنع العثمانيون الشيخ ثويني بتأسيس نقطة ثابتة للملتقى. وهذا ما جرى وتم تأسيس حاضرة سوق الشيوخ، جنوب العراق كسوق ثابتة لرؤساء المشايخ. وما أن اسست المدينة حتى بني لها سور، ثم وما أن بُني السور جرى التوطن فيها. وقد كانت في السابق منطقة اتحادات قبائل. لكل اتحاد كانت له بوابته. وبعد استقرارها ودخول عناصر حديثة فيها تغير طابعها الاجتماعي.

طالب: ماذا فعل العثمانيون لتفكيك القبائل غير توطينها؟

د.فالح: إن الفترة التي امتدت من بداية العثمانيين وحتى الاصلاح الزراعي في العام 1958، وهي ما يقرب من تسعة قرون، جرت خلالها عمليات هائلة وعديدة، عفوية او مخطط لها. كلها تتعلق بتقوية القبيلة، من جانب وتفكيكها من جانب آخر.

الخطوة الاولى التي قام بها الولاة العثمانيون، ومنذ زمن مدحت باشا، بمنح مشايخ العشائر صلاحيات جمع الغلة وواردات الارض. كان هذا الدور يقوم به احد التجار في المدن. كان يأخذ معه مجموعة مسلحة ليجمع هذه الايرادات من الفلاحين، ويعطي منها نسبة خزينة الدولة.

موافقة رؤساء العشائر للعب هذا الدور له دلالة سياسية، وليس اقتصادية. فقد تحول شيخ العشيرة من قائد لمجموعة، مستقل عن الدولة ومناوئ لها، الى أن يعمل في خدمتها والاعتراف بها. أخذ يجمع المال لها. ويقتطع جزءا منها لنفسه بمعرفة الحكومة وموافقتها.

الخطوة الثانية، تمليك الاراضي للقبائل، وقد بدأ هذا في عهد العثمانيين وليس في العهد الملكي، كما هو مطروح. وهذه واحدة من الاخطاء في قراءة التاريخ. فأصبح هناك نوعان من التمليك. النوع الأول هو أن هناك مشايخ تملكت في الاراضي التي تسكنها قبائلها. والنمط الثاني تملك مشايخ في أراضي تسكنها قبائل غير قبائلهم. وفي هذا السياق اعود الى السلَّم التراتبي للفئات المصنفة حسب عملها، حيث تحتل قبائل مالكي الابل اعلى السلم. فيتحول هؤلاء بعد الحصول على ملكية الارض، ليكونوا الفئة الاستقراطية الجديدة في المدن. في كردستان، أصبح مشايخ القبائل الذين حصلوا على تمليك الاراضي في غير اراضيهم اصبحوا هم الاسياد في المنطقة وهم غرباء عنها. وهذا النموذج تكرر على نحوٍ محدود في بعض المناطق العربية. الا ان الصفة الغالبة في المناطق العربية هي امتلاك القبائل للاراضي التي ينتمون اليها. وحيثما كان المالك غريبا عن العشائر المولودة على الارض التي امتلكها، يعود في هذه الاماكن الصراع بين اصحاب الابل والمراتب الأقل شأنا منهم، ويصبح تضاداً إجتماعياً بين مالكي اراضي وفلاحين معدمين. هذا التضاد يكون اخف بين المالك والفلاحين في المناطق التي من ذات المنطقة العشائرية، نتيجة صلة القرابة.

بعد أن انحسر دور القبائل التي كانت تشبه في تنظيمها دولة مصغرة على كافة الأصعدة، بقيت هناك الحمولات والبيوتات التي انتقل الكثير من افرادها الى المدن، وماتبقى لهم من فترة وجودهم في النسيج القبلي هو ما اسميه "القبلية الثقافية" وهي مجموعة من القيم والالتزامات التي ظلت تشترك فيها المجموعات العشائرية لمقاومة النظرة السلبية المتبادلة بين المهاجرين الى المدينة والقاطنين فيها. وهي نظرة ازدراء وكره بين أبناء المدن والمهاجرين اليها من الأرياف الذين يعتبرون المدينة بيئة تجارية معادية لهم. لكن هناك البعض ممن اندمجوا في المجتمع الجديد وانتظموا في الحركات السياسية اليسارية في الخمسينات، وفي النقابات والحركات الاجتماعية الحديثة. فأصبح هناك ما أسماه السوسيولوجي فالح عبد الجبار الازدواجية الثقافية لدى هؤلاء، بين التقاليد والممارسات العشائرية، وبين الافكار والسلوكيات المعاصرة.

طالب: هذه الازدواجية أسماها العالم علي الوردي بالتناشز الاجتماعي!

د.فالح: نعم، فحسب رؤيته أن ما بين التقاليد العشائرية والافكار المدينية الحديثة ليس سوى تصادم وصراع. وهذا أخذه د. علي الوردي من ماكيفر. هناك إتجاه لدى بعض السوسيولوجيين في هذا الجانب. وهذا ما اختلف عليه. أنا لا انكر وجود صراع وتصادم بين الطرفين، ولكن ليس دائميا وليس مطلقا. بل هناك أيضاً انتقال وتظافر بين المنظومتين الفكريتين، بمعنى أن القيم البدوية كالمروءة والشهامة والايفاء بالوعود وغيرها يمكن ان تتحول الى الالتزام بالقانون ومساعدة الاخرين والتكافل الاجتماعي على الصعيد الوطني، على نطاق الامة وليس على مستوى القبيلة.

طالب: لنتوقف قليلا عند الخطاب العشائري. فمن المعروف ان هذا الخطاب لم يكن منحصراً في الدولة الشمولية التي مهدت لانتعاش دور العشيرة، بل ولدى الكثير من الأحزاب المعارضة لها، لماذا؟

د.فالح: القبلية الثقافية ظاهرة اجتماعية. كانت تحارب بمقدار تعطيلها لبناء الدولة الحديثة، الأمة الحديثة من جميع الاحزاب. ولكن عندما حطمت الدولة الشمولية، دولة البعث منظمات المجتمع المدني نشأ فراغ. فبدأت مجموعات عشائرية وقبلية تقوم بدور ايجابي. كان الحصار قد دمر البلد. اليوم مثلا لو تعرض احد للسرقة فأنه لا يشتكي ذلك الى الحكومة بل يلجأ الى العشيرة. ولو اعتدت مجموعة على احد فهذا سوف يلجأ الى شيخ العشيرة لحمايته، فتشكلت مصدات حماية ذاتية من قاع المجتمع. الاحزاب ترصد هذه الظاهرة وترى جانبها الايجابي فقط. دون أن تنظر الى جانبها السلبي. في كل الاحوال هذه ظاهرة انتقالية خاصة بظرفها. دون ان يعني هذا ان القيم القبلية ستزول، بل أن وظائفها تتغير. وهي كانت موجودة في الخمسينات والستينات ولكن على نطاق ضيق.

طالب: لم نستطع ان ننهي الحوار مع المفكر فالح عبد الجبار دون التطرق الى دور العولمة، فسألناه عن مدى امكانية تأثيراتها، على المجتمعات العربية؟

د.فالح: دخل الانترنت الى الخليج ولبنان فقط، وكثير من الدول العربية تمنع استخدام الانترنت او القنوات الفضائية. وهي تخضع للرقابة. وبشكل عام من المبكر الحديث عن دخول العولمة الى هذه البلدان فهي الآن خارج تيارها. لكنني اشدد على أن نظم الاتصال تلعب دوراً كبيراً في تطور البلدان، فسكك الحديد سهلت نشوء الامم، الدول المركزية، مثلما الراديو سهل من نشاط الحركات الجماهيرية، وكلما تطورت نظم الاتصال، توسع نطاق تدفق المعلومة وتعدد مراكزها التي تكون بالضد من منطق الاحادية والدولة الشمولية، ضد منطق الحزب الواحد، على الصعيد السياسي.

*** عقدت الندوة في ستوكهولم 19 ايار 2000 بدعوة من نادي 14 تموز الديمقراطي العراقي**

أدب
و
فن

في عيد العمال العالمي
عمال بلا عمل !

حسب الله يحيى

إذا كان عمال العالم جميعاً يشتركون في العيد الاممي للعمال، فإن هذا يعني ان هناك شغيلة تعمل، ومصانع تنتج..
إلا أن ما نجده في العراق راهناً استثنائي من بين جميع بلدان العالم ..!
فهناك وفرة من الايدي العاملة الى جانب غياب تام للصناعة في العراق.
لا مصانع تتحرك آلاتها وتضاء فضاءاتها، وتشع حركة عمالها، ويتمتع العراقيون بمنتجها الوطني.
هناك مساحة محدودة ومتواضعة لعمال البناء والخدمات، وبقدر اقل هناك شغيلة الثقافة والمطابع التي باتت تتلاشى في انتاجها الورقي، لتتوجه الدولة الى الطباعة خارج العراق، او ليتجه المسار نحو المطبوع الالكتروني.
لا عيد وطني ولا اممي لعمال العراق..
لا عيد لعمال لا يحصلون فيه على قوتهم اليومي، ولا معيشة تأمن لهم غائلة الفقر والجوع والمرض والجهل..
البطالة مهنتهم!! اذا اعتمدنا الصورة المكبرة لعمال العراق الذين يتجمعون في مراكز المدن بانتظار من يلحقهم بعمل يومي مؤقت..
حتى ان هذا اليوم بات مثقلاً في ظل عمالة جاهزة من المحافظات، تقصد مركز العاصمة بغداد، علها تجد فرصة للعمل.. أي عمل كان!!
ضمن هذه الدائرة المحفوفة بخطر السيارات المفخخة التي تقصد في المألوف تجمعات العمال العاطلين عن العمل مع وجود طاقة معطلة لا تتنبه السلطات الى اماكنها وقدراتها.. بل هناك مغالاة ومصادات مقصودة في استخدام العمالة الاجنبية على حساب الايدي العاملة العراقية، تحت مسوغ ان العامل العراقي غير منتج ومتكاسل ويبحث عن اجور اعلى من الاجنبي!
هذه المشكلات هي نفسها التي تواجه شغيلة الفكر والابداع والفنون وهم يجدون انفسهم في مأزق يعانون فيه من بطالة لا تعرف حتى المظهر الذي تظهر به في دوام روتيني كامل، من دون ان تكلف بعمل كاف ومنتج .. مع ان الثقافة باتت صناعة لإنتاج المعرفة وسبل الارتقاء بالمجتمع لكي يعيش حياة حرة كريمة خالية من معاناة البطالة والفاقة والجهل والمرض..
يوم العمال العالمي في العراق.. يوم يعيش في ضمائر ووعي العمال في ظل بطالة تسحق طموحاتهم وآمالهم وحتى ترقبهم للآتي!

البعد السياسي والاجتماعي للحداثة وما بعد الحداثة

(2-1)

ياسين النصير

اساس هذه المقالة المؤلفة من قسمين، هو محاضرة ألقيتها على الفضاء الافتراضي يوم 18 - 10 - 2020 ضمن برنامج ثقافي، أعدته لجنة العمل الفكري خارج العراق. وجرى الآن تطوير بعض فقراتها، وتقسيمها الى قسمين القسم الأول يتحدث عن نشوء الحداثة وأهمية ذلك بالنسبة للكوادر اليسارية المبتدئة والمثقفة من الاهتمام بأصول وجذور الحداثة لأن الفكر الماركسي التنويري لا يغفل هذا الارث الإنساني بل ويعد جزءا اساسيا من فكرة التنوير الحداثوي في العالم. اما القسم الثاني فتحدثت فيه عن اثر انعدام فكر الحداثة على مجتمعنا العراقي، ثم تحدثت ـ ملحقا بذلك ـ عن معنى ومفهوم ما بعد الحداثة.

ـ القسم الأول ـ

بداية يجب ان أوضح مسألة غاية في الأهمية، وهي اننا كمثقفين على مختلف مشاربنا وعقائدنا يهمنا بالأساس تطور مجتمعنا العراقي، لذا ستكون مهمتنا اوسع من تفكيرنا الذاتي. بمعنى علينا أن نمتلك رؤية جذرية لفهم واقعنا وصولا لتغييره، وإن كانت أدواتنا الحالية غير قادرة على

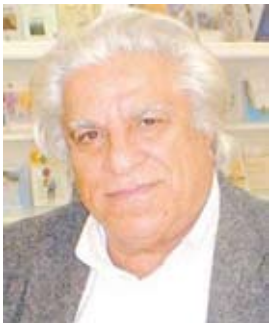

تنفيذ تلك الرؤية، هذا لا يعني عدم قدرتنا أو عجز الافكار التي نمتلكها عن أداء هذا الدور. كما لا يعني التغيير تفاؤلا ساذجا ننشده، بل هو امكانية للعمل ضمن الظروف. من منطلق الإمكان وعدم الإمكان يجب ان يكون عليه تفكيرنا الاجرائي للتغيير، وأولى الخطوات هي النقد. النقد بمعنى الوعي بما يجري. ولذلك ليس شرطا علينا ان نطبق كل ما تقوله الماركسية مثلا كي نفهم واقعنا؛ فالواقع اوسع من النظريات. كما أن الحقل الفكري للإنسانية أوسع بكثير من اي تفكير محدد، لأسباب عديدة:

أولا، لأننا بطبيعة الحال مهما اوتينا من معرفة، لم نهضم كلية الفكر الماركسي الذي يمتلك رؤيته الكونية لتغيير العالم مثلا. ولكنه كفكر مجرب يمكنه ان يفهم آليات تشكل

المجتمع العراقي. ولذلك تكون الماركسية احد المناهج العلمية لفهم طبيعة وتركيب بنية المجتمع العراقي.

وثانيا، أن ننطلق من تجربة الحزب الشيوعي العراقي طوال هذه العقود، وهي تجربة ممارساتية وليست تجربة تثاقفية محدودة؛ ففي الكثير من مراحل تشكلها المعرفي، اضاءات مسلطة على بنية وتركيب هذا المجتمع. ومع ذلك علينا ان لا نقف عند التجارب المحلية فقط، والعالم يضخ يوميا تجارب جديدة. وعليه تكون معرفتنا بالفكر الحديث في العالم من مهمات الماركسي، ومنها الحداثة ومابعد الحداثة، لاسيما واننا نعيش في نتائجهما العملية دون ان نساهم في فهمها. وهذه مفارقة، فكل ما في حياتنا اليومية، يعود لانتاج الحداثة والتحديث وما بعد الحداثة. التفكير في مسائل فلسفية من هذا النوع علينا ان نكون جادين: في فهم النظرية الماركسية عن طريق منظورها الجدلي للصراع الطبقي والاجتماعي من جهة. كما علينا الإنتباه لدور الإنسان والشعوب لما تختزنه من قوى مادية وروحية للإضافة والتطوير من جهة أخرى. إن ممارسات الحزب الشيوعي العراقي مثلا للأوضاع المحلية لها تاريخ طويل. وعلينا كمفكرين وممارسين وفاعلين ان نأخذ بعين الاعتبار ان ليس من تجربة منتهية إلى قرار يثبت ويبقى ثابتا. كل التجارب الحية منفتحة حتى على تغيير أدواتها نفسها إذا تطلب الأمر ذلك، من دون ان تفقد اسسها الماركسية في التفكير. من هذا المنطلق يكون حديثنا اليوم، عن الحداثة وما بعد الحداثة في آخر تطور مشروعهما السياسي والاجتماعي، هو جزء من مهمات الماركسي عندما يضع مجتمعه في بؤرة التفكير الحديث. أي يجب ان لا تغيب مفردات ومفاهيم الحداثة ومابعد الحداثة من تفكيرنا بمشكلات مجتمعنا، حتى وان اختلفنا معها. فهذه المفاهيم جزء من آلية تطور عالم اليوم، ونحن نملك ارثا نقديا لها منذ ماركس وحتى الفلاسفة المحدثين ومنظري الحداثة ومابعد الحداثة. لذلك ليست هذه المفاهيم غربية أو شرقية، انما هي انسانية، وعلينا ان نستخدم آلياتنا المنهجية النقدية لفهمها، وعدم رفضها لمجرد انها نشأت خارج مرحلتنا وتبنتها تيارات غربية براجماتية وفلسفية ووضعية وغيرها. لذلك ستكون مهمة حوارنا هي الكيفية التي ننقد بها منطلقات الحداثة ومابعد الحداثة.

بدايات متعددة للحداثة

ابتداء أقول ليس من بداية واحدة للحداثة، حتى نركن إليها بالحديث عنها كتيار اجتماعي إنساني وجد كحاجة بشرية لفهم طبيعة وبنية المجتمعات، ثمة عدد من البدايات كأي ظاهرة اجتماعية، ولذلك يمكن القول إنها بدأت منذ ثمانية قرون، ولها جذور في أفكار وفلسفات شعوب عديدة حتى قبل هذه القرون، وابتداء من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر، تبلورت الكثير من مفاهيمها، حيث شكلت بمجملها ما سمي بعصر النهضة بكل تحولاته، ثم عصر التنوير، الذي ابتدأ في القرن الثامن عشر، ولا تزال الحداثة تمارس حضورها الفاعل في القرن الحادي والعشرين. لذلك اقول ان

الحداثة شهدت عدة بدايات، كل بداية يتطور جانب منها ضمن حياة الإنسان والفكر، ومن ضمن هذه الجوانب الفلسفة، والعلم، والمدينة، والثقافة.

البداية الأولى للحداثة بدأت مع ازدهار المدن الإيطالية خلال القرن الثاني عشر، وبلغت أوجها في القرن الخامس عشر عندما بدأت المدن الإيطالية تتصل بالشرق وحضارته الترفيهية، ويرجح أننا "[1] نستطيع القول أن بدايتها الأولى كانت مدينية اي متعلقة بـ: العمران والبناء وتنظيم المدينة، وهذه نقلة أولى كبيرة حينما تتحول المدينة الشرقية إلى ثقافة مؤثرة في بنية المدينة الغربية، وتكون المدينة بداية لتنظيم التجارة والصناعة والأسواق وتشعيل الاف العاملين، لعل ثقافة حوض البحر الابيض المتوسط الشرقية والهلينية هي الوسيط الناقل لهذا التلاقح.

البداية الثانية للحداثة بدأت باختراع المطبعة، والطباعة، في منتصف القرن الخامس عشر، ذات الحروف المتحركة التي عرفت التيبوغرافيا، وهو ما كان له الأثر العظيم في نشر الكتب، أي هذه المستطيلات الورقية codex التي حلت محل لفائف [2]" Volu. يمكن القول عن البداية الثانية، أنها ثقافية وعملية اي دخول الصناعة الثقافية في الحياة المدينية واتساع قاعدة القراءة الشعبية بعدما كانت الكنيسة تتولى نشر الكتب فقط، سنجد ان للمطبعة دورا كبيرا في القرن الثامن عشر عندما بدأ عصر الأنوار في اوربا، وعدّها المفكرون مع الباردود القوى المحركة للصناعات العسكرية والمدينية والثقافية والفلسفية والتعليمية. فالمطبعة دخلت بمهمة تنظيم الثقافة وانتشارها وتوسيع دائرة القراءة والعمال والانتاج المعرفي والاستهلاك، وشجعت المثقفين على الانتاج، وبدأت اولى مهمات المثقفين انهم نقدوا الثقافة الدينية وانهضوا الثقافة الشعبية واللهجات المحلية، ردا على هيمنة اللاتينية على ثقافتهم. وأول انتاج كبير لدور المطبعة هو الكوميديا الإلهية لدانتي اليجري عام 1308 - 1321 أي القرن الرابع عشر.

البداية الثالثة للحداثة، تمت في القرن الخامس عشر، في اكتشاف اميركا، العالم الجديد 1492. وبعد خمس سنوات من نشاط التجارة البحرية بين آسيا وأوربا تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح 1497، في جنوب افريقيا. وذلك يعني اكتشاف عالمين جديدين: اميركا والمحيط الأطلسي، ويعني ضمنا بزوغ حضارة جديدة مغايرة للحضارة اليونانية التي تركزت في حوض البحر الابيض المتوسط وجنوب ايطاليا وشمال الاسكندرية وشواطئ تركيا. إن انحسار دور البحر الابيض المتوسط الذي هيمن منذ العصور اليونانية والرومانية على اوربا ثقافة وفلسفة وتجارة ومواصلات، يعني تحولا في كل الخطط العسكرية وطرق المواصلات وصناعات السفن والبحث عن المعادن والتغيير الجذري في علاقة اوربا بالمحيط الاطلسي، بعدما كانت مرهونة بحوض البحر الابيض المتوسط. وبدأ المحيط الاطلسي مقترنا باكتشاف امريكا يلعب دورا محوريا في جعل امريكا مركزا

للعالم. يقول روزفلت عن الاقليم الأمريكي انه اقليم المال والدم، وتوظيف رأسمال بشري ونقدي وفي الوقت نفسه استثمار الحروب المحلية للتوطين والغاء دور السكان الاصليين. سنجد لاحقا ان تأثير هذه البداية سيكون كبيرا في القرن الثامن عشر والى اليوم.

البداية الرابعة للحداثة، بدأت بالقضاء على الهيمنة الاقطاعية للقرون الوسطى في اوربا، وتحويل الدين الكهنوتي الى دين اجتماعي. وتسمى حرب المائة عام بين انكلترا وفرنسا، بحروب دينية اقتصادية وسياسية، انتهت بهزيمة انجلترا والطبقة الاقطاعية وسيطرة الدين الكلية. إلا ان هذه الحداثة لا تعني الهيمنة المطلقة للكنيسة، وانما تعني بروز قوى اجتماعية وفلسفية عديدة، ما مهد لاوربا توسيع قاعدة التعليم الجامعي، وان تبرز افكار الأمة والهوية الثقافية لبلدان اوربا. فالقضاء على هيمنة الاقطاعيات الكبيرة وبروز دور الطبقات الاجتماعية بهويات محلية وأوربية مكنت أوربا من ان تعيد التفكير بثرواتها المادية وكشوفاتها العلمية.

البداية الخامسة للحداثة، ظهور مجموعة من الدراسات المهمة التي ساهمت في تغيير النظرة إلى المجتمعات الاوربية وحوّلتها من سكونيتها إلى ديناميكية التنظيم المؤسساتي، خاصة في مجالي التعليم والطباعة، وما يعني الثقافة بعموم انشطتها. من هذه الكتب: كتاب الامير لميكافيلي 1513، كتاب لفياتان لهوبز 1651. روح القوانين لمونتسكيو 1748، العقد الاجتماعي لروسو 1762، توكفل عن السياسة 1835 وغيرها من المؤلفات المفصلية التي حرّكت اوربا باتجاه كشوفاتها الذاتية.

البداية السادسة للحداثة، هي البداية العملية والمهمة، وتتمثل بانفصال المجتمعات عن سلطة التراث الديني والماضي الأسطوري والغيبي، ولكن ليس لرفض التراث أو رفض الماضي، إنما لاحتوائهما، وادماجهما بالحداثة، ولذلك بدأت الحداثة كحركة لمرحلة اتصال في الفكر الإنساني، وفي الوقت نفسه حركة انفصال عنه، وقطيعة هذا الاتصال والانفصال تمارسه الحداثة على نفسها [3]. هذه البنية جدلية، أي تسمح الحداثة لتطوير جوانب والغاء جوانب أخرى.

المرحلة السابعة للحداثة حدثت مع الثورة الفرنسية 1789 - 1799. الترجمة العملية لنتائج الثورة الفرنسية التي بدأ تأثيرها يتسع في اوربا، واوضح صورة لها هي الصورة الثقافية للحداثة والصورة السياسية لطبيعة المجتمعات المدنية. ويعد القانون المدني (قانون نابليون) الخاص بتنظيم العلاقات التعاقدية بين الناس صياغة لرسم معالم الحياة المدنية. وهي فترة مؤثرة في العالم كله، لأنها مليئة بالاضطرابات الاجتماعية والسياسية المختلفة، وفي الوقت نفسه مليئة بالانجازات التنظيمية المدينية.. انتهت بسيطرة البورجوازية خلال التحالف مع نابليون، وانتهت بتصدير الأزمة عن طريق الاستعمار بالتوسع اللاحق للإمبراطورية الفرنسية، انتهت بسيطرة البورجوازية التي كانت متحالفة مع طبقة العمال مع إحقاق مجموعة من الحقوق والحريات للطبقة

العاملة والمتوسطة للشعب الفرنسي. أسقطت الملكية وأسست الجمهورية وشهدت فترات عنيفة من الاضطراب السياسي، وتوجت أخيرا في دكتاتورية نابليون الذي جاء سريعا بكثير من مبادئها إلى أوربا الغربية وخارجها. استوحت الثورة الفرنسية أفكارا ليبرالية وراديكالية، غيرت بشكل عميق مسار التاريخ الحديث، وأطلقت الانحدار العالمي للملكيات المطلقة، واستبدالها بالجمهوريات، كما أطلقت من خلال الثورة الفرنسية صراعات عالمية مسلحة، امتدت من البحر الكاريبي إلى الشرق الأوسط. يعتبر المؤرخون على نطاق واسع الثورة الفرنسية واحدة من أهم الأحداث في تاريخ البشرية [4]، لارتباط بداياتها ببناء الدولة الحديثة، وما يرافق حداثتها من نهوض لمفهوم الأمة والمجتمع والقضاء على حكم الملكية والاستبداد وسلطة الأمراء ورجال الدين. وهذه البداية ليست بلا جذور أيضا؛ فالكثير من الجذور الفرعية لها تمتد إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ومع مشروعية هذه البداية إلا أنها لم تكن بداية راسخة او دائمية، لأنها قامت على مفاهيم مناقضة للدين المسيحي، ومتطلعة لبناء مجتمع العدالة والقانون ومؤكدة على هوية الامة وتوزيع الأراضي. أي بقيت هذه الأوليات للحداثة، ضمن منطقها الثقافي والفلسفي ربما يعيدنا مونتسكيو إلى هذه النقطة المفصلية. وكان لها تأثيرات عميقة على أوربا والعالم الغربي وامريكا، وهي فترة مؤثرة في العالم كله، كانت مليئة بالاضطرابات الاجتماعية والسياسية، انتهت بسيطرة البرجوازية خلال التحالف مع نابليون، وانتهت بتصدير الأزمة عن طريق الاستعمار بالتوسع اللاحق للإمبراطورية الفرنسية، انتهت بسيطرة البرجوازية التي كانت متحالفة مع طبقة العمال مع احقاق مجموعة من الحريات، اسقطت الثورة الفرنسية الملكية، وأسست الجمهورية، وغيرت مسار التاريخ الاجتماعي والسياسي في اوربا، واستلهمت افكارا ليبرالية وراديكالية، وغيرت بعمق مسار التاريخ الحديث.

المرحلة الثامنة للحداثة جاءت من تعميم مفاهيم الأقلمة للدول الأوربية وامريكا، فنشأ اقليم الحداثة الفكرية ممثلا في فرنسا، واقليم التقنية العلمية ممثلا بألمانيا، واقليم المال والدم المقدس ممثلا في امريكا. هذا التقسيم جعل العالم في مهمات اساسية: الفكر وحرية الفكر، في فرنسا، الصناعات باكتشاف البارود والتقنيات العسكرية الرأسمالية كنواة للاستيلاء على العالم في المانيا وبريطانيا باسم المقدس تارة، وباسم الاستعمار تارة ثانية. كما قال روزفلت عن الاقليم الامريكي. كل هذه المفاهيم هي اوليات النزعة القومية واعتماد الأمة كمفاهيم للهيمنة واكتناز الثروات.

المرحلة التاسعة للحداثة: هي الثورة الصناعية في اوربا. ويعد اكتشاف البارود 1830 بداية عهد الصناعات العسكرية والمدنية، وفي هذه الفترة المرافقة لنهوض الامة والقومية والفلسفة وفي المقدمة الفلسفة الهيجلية، بدأ العالم الغربي الاهتمام بالشرق، أي استعمار الشرق فأحيا مشروعات سان

سيمون الاشتراكي الطوباوي الفرنسي في القرن السابع عشر، حينما نادى بفتح قناة السويس ومد مشروع سكة حديد برلين - بغداد، وفتح قناة بنما. ليبدأ تسليح الجيوش وصناعات السفن التجارية والعسكرية الكبيرة، لعل تايتانيك أول سفينة سياحية تجارية دشنت بداية القرن العشرين، تمهيدا للاسطول التجاري والعسكري الاوربي في الهيمنة على طرق المواصلات البحرية، ومن ثم تسهيل نقل الجيوش الاوربية لاستعمار اسيا والشرق الأوسط، ولعل الحرب العالمية الاولى ثم الحرب العالمية الثانية، كانت نتائج لهذه المرحلة التصنيعية الاستعمارية التي لعبت فيها قوى البارود والمطبعة دورا كبيرا في نشر الحداثة عن طريق الاستعمار.

كل هذه الحركات سميت بعصر النهضة. وسيضم عصر النهضة في اوربا شريحة واسعة من التغييرات الجذرية والجزئية، على مدى ثلاثة قرون لاحقة، ابتداء من السابع عشر الى القرن التاسع عشر.

وعموما نصل إلى تحديد ثلاثة مستويات للحداثة، بعد الثورة الفرنسية، علينا ان نتطرق إليها لأنها الأساس الذي تطورت في ضوئه المجتمعات الأوربية، وهي:

المستوى التقني والاقتصادي، فقد حددت الحداثة العلاقة مع الطبيعة من خلال البحث المنظم للنظم الإنتاجية. اي أن الحداثة كما يقول ريمون آرون "بوصفها معرفة عملية مُحققة تساعد على تنظيم الإنتاج عقلانيا"[5].

مستوى قانوني سياسي، وهو الفصل القائم بين دائرة الحياة العامة ودائرة الحياة الخاصة. ويعني ذلك ان استعمال العقل لا بد أن يكون حرا. كما اشار كانط إلى ذلك حين فصل بين الذات والموضوع، بين الوعي والكون. وقد اشار ماركس الى هذه الفترة في نقده لفلسفة القانون عند هيجل، الى التماثل بين حياة الشعب وحياة الدولة في القرون الوسطى، التي اعتمدها هيجل في فلسفة القانون.

المستوى الثالث هو مستوى دنيوية الحداثة الاجتماعية، وتتركز حيثيات المستوى الدنيوي بين متطلبات المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي القديم، وميدان هذه الدنيوية هي الحياة اليومية والكيفية التي دخلت فيها الثياب، والكلمات المستعملة في التبادل اليومي، والرياضة، والاثاث، والأشياء التي تحيط بنا، والموسيقى، والاغاني، والممارسات الحياتية اليومية، في ادق تفاصيلها، كإشارات ميزت بين الطبقات الاجتماعية تبعا لقوانين اقتصاد السوق ودوره في الممارسات الاخلاقية والدينية، وبدا الصراع الاجتماعي يأخذ اشكالا اجتماعية مختلفة، وصل الى الحوانيت والمكاتب الصغيرة وورشات العمل التي لم تصمد امام تنامي الرأسمال وسيطرة رجال الدين على مرافق الدولة. ونجد هذه الصورة واضحة في مراحل تطور مجتمعنا العراقي.

هذه النقاط تشكل جزءا من مراحل تطور الحداثة في اوربا. ولكن الحداثة لم تقف عند مرحلة أو عند منهجها التطوري فقط بل تقف في نقدها المستمر لآليات اشتغالها والكيفية التي تتمظهر بها سياسيا وثقافيا. كلما تعمق النقد للحداثة خُلقت مرحلة جديدة لتطورها، لذلك حدثت تحولات للحداثة التي

بدأت في منتصف القرن الثامن عشر، اي تلك التي كانت مصاحبة لنتائج الثورة التقنية والسياسية، والفلسفية، وصعود الكولونيالية الاستعمارية واتساع السيطرة والهيمنة والنظم الكولونيالية والثورات الصناعية. ويمكن تلخيص هذه المرحلة باكتشاف مجالات جديدة لصناعة البارود واتساع دور المطبعة في الحياة الأوربية، ليشمل حركة التأليف واتساع القراءة والوقوف على زيف الكثير من ادعاءات الكنيسة. إن مكان التحولات الجديدة للحداثة كانت في انجلترا وفرنسا، وهو ما يشخصها "البيان الشيوعي". وشخصيا، أعد هذه التحولات المتشعبة هي الاكثر تجذرا في المجالات الإنسانية، وبناء المجتمعات الحديثة وتطور الثقافة وتنوع الأشكال السياسية. إذن هي البداية العلمية للحداثة، وفيها تمت قضيتان مهمتان: نمو الرأسمال المالي واتساع دائرة التصنيع. وشمل ذلك قطاعات عسكرية وصناعية كبناء السفن والقطارات وظهور النزعة الاستعمارية، والاهتمام المتزايد بالخرائط، فقويت الجيوش وبنيت تقنيا على التفكير بتحقيق النزعة الاستعمارية للدول الأوربية، من اجل الهيمنة على الثروات الطبيعية، ثم المباشرة بالحرب لتحقيق هذه النزعة، فكانت الحربين العالميتين الأولى والثانية.

كل هذه الحداثات المختلفة اطلق عليها عصر النهضة. وهو العصر الذي مازال قائما إلى اليوم على الرغم من ظهور نزعة مابعد الحداثة، او كما يسميها فريدريك جايمسون المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة.

رؤية ماركس للحداثة

"يعد البيان الشيوعي نقطة تحول في فهم الحداثة وما آلت إليه حيثيات تطور عصر النهضة. البيان صدر في 21 - 2 - 1848. (علينا أن نتذكر أن البيان كتب في لحظة تاريخية مهمة تشهدها الأوضاع في أوربا وخصوصا في انجلترا وفرنسا، لذلك اهتم البيان بهذين البلدين أكثر من اهتمامه بألمانيا عهد ماركس)، من جانبنا في هذه المداخلة أن نركز على جانب واحد مما جاء في البيان وهو علاقات الإنسان بالبرجوازية، والكيفية التي سخرته لصالح مشروعها الحداثي.

الإنسان الذي يتحدث عنه ماركس هو الإنسان الاجتماعي بالأساس، المحدد بمكانته في عالم من الإنتاج، في فضاء تقني وضمن علاقات ملكية أكثر مما هو محدد بالبحث العقلاني عن المصلحة. وفي نظره لا يكفي اللجوء إلى التعارض بين النزعة الجماعية والنزعة الفردية"[6].

يركز ماركس على الحياة الحديثة كحياة مغتربة، هيمنة رأس المال والسلطة وضعف دور العامل وجعله ملحقا بالآلة وتبديد طاقة الإنسان من اجل بقائه حيا مجردا من اي نشاط ثقافي يقول ماركس: "كلما ابتعد العمال عن الثقافة والعمل الثقافي زاد الرأسماليون من ثرواتهم".

تركز الماركسية على الكيفية التي تنتزع "الرأسمالية عن المهن والاعمال التي كانت تعد محترمة ومقدسة، كل بهائها ورونقها وقدسيتها، وأدخلت الطبيب ورجل القانون والكاهن ورجل العلم والمعرفة في عداد الشغيلة المأجورين في خدمتها"[7]، فالهالة

تقسم الحياة إلى مقدس وما هو مدنس: انها تسبغ مسحة من الرهبة والاشعاع المقدس على الشخصية التي ترتديها؛ الشخصية المقدسة تنتزع من نسيج الشريط الإنساني، وتبعد بعناد عن الحاجات والضغوط التي تحرك الرجال والنساء الذين يحيطون بها"[8]. يقول ماركس "كل ما هو مقدس يجري تدنيسه" لقد شهدت انجلترا وفرنسا استياء طاغيا وحادا إزاء الرأسمالية، يكاد يصل إلى أن يندلع آخذا اشكالا ثورية ملتهبة". البيان من حيث قوة التخيل، ومن حيث التعبير والامساك بالإمكانات المتألقة والمرعبة التي تزخر بها الحياة الحديثة، شكلت علامة بارزة، بوصفه أول عمل فني كبير في دنيا فن الحداثة" [9] اذ لم يصدر طوال سبعة قرون من ارهاصات الحداثة وتنوعها أي بيان عن ماهية الحداثة، سوى تلك الممارسات القانونية والعلاقات العامة للحريات وعن الحياة المدنية، التي جاءت بها الثورة الفرنسية، البيان أو الوثيقة كشفت تناقضات الحداثة، كما كشفت الكيفية التي يمكن للقوى الاستعمارية المهيمنة أن تجعلها صالحة لأهدافها، نتيجة ما تملكه من قوى مادية وادارة وتقنية ورأسمال، وما تمتلكه من تأثير على الكنيسة ورجال الدين من تبرير لأفعال وخطط الرأسمالية في الهيمنة على الجغرافيا الروحية للناس بعد هيمنتها على الأراضي والملكيات والاقطاعيات، اي الهيمنة على الجغرافيا المادية. وأول خطوة اقدمت عليها الحداثة على وفق الرؤية الرأسمالية، أن قلبت علاقات الناس فيما بينهم ومع أنفسهم. على الرغم من ان البرجوازية في القاموس الماركسي هي الأداة - حيث فعاليتها الاقتصادية هي التي تحدث التغييرات الكبرى – ذلك ان رجال ونساء كل الطبقات ما هم إلا مواضيع لانهم خاضعون للتغيير.

يقول البيان: "وحطمت البرجوازية دونما رأفة الصلات المزخرفة التي كانت في عهد الاقطاعية التي تربط الإنسان بأسياد طبيعيين"، ولم تبق على صلة بين الإنسان والإنسان إلا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف "عدا ونقدا"، واغرقت الرأسمالية الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البرجوازية المنافقة في مياه السحاب الجليدية المشبعة بالأنانية". ويقول البيان أيضا "وانتزعت البرجوازية عن المهن والاعمال التي كانت تعود إلى ذلك العهد محترمة مقدسة، كل بهائها وقدسيتها"، ويقول البيان "مزقت البرجوازية الحجاب العاطفي الذي كان مسدلا على العلاقات العائلية، واحالتها إلى علاقات مالية صرفة". ويقول أيضا "بالاختصار استعاضت البرجوازية عن الاستثمار المقنع بالأوهام الدينية والسياسية باستثمار مكشوف: شائن، مباشر، فظيع".

ويقول ماركس "ان ناس الطبقة العاملة غير المتكيفين عليهم ان يواجهوا الظروف الحقيقية لحياتهم ولعلاقاتهم مع الناس الآخرين. ان صورة البرجوازية ضمن منطق الحداثة مبهرة، لكن الضوء يهتز حين نثبت أنظارنا ونحدق فيها".

"لقد جعلت البرجوازية من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادلية، وقضت على الحريات الجمة، المكتسبة والممنوحة،

واحلت محلها حرية التجارة وحدها. هذه الحرية القاسية التي لا تشفق ولا ترحم. اي ان القوة الهائلة للسوق في حياة الناس الحديثين الداخلية: جعلتهم يتطلعون إلى قائمة الاسعار بحثا عن اجوبة لأسئلة ليست اقتصادية فقط بل ميتافيزيقية - اسئلة حول الجدير، وماهو الشريف، بل وحتى الحقيقي الواقعي". فحين يقول ماركس "إن سائر القيم تحولت إلى "مجرد قيمة تبادلية"، إنما يعني أن المجتمع البرجوازي لا يمحو بنى قديمة من الوجود بل يصنفها. إن الأنماط القديمة من الشرف والكرامة لا تموت بل يجري ادماجها بالسوق، وتحمل لصقات عليها أسعارها، كي تكتسب حياة جديدة بوصفها سلعا. وهكذا فأي نمط يمكن تخيله من السلوك الإنساني يغدو مسموحا به أخلاقيا، ممكنا اقتصاديا، لحظة صيرورته، و"ثمينا"، فكل ما هو مربح مجاز يقول ماركس، "ذلك هو المحور الذي تدور عليه النزعة العدمية الحديثة. النظام الاقتصادي للرأسمالية يساوي بين قيمتنا الإنسانية وسعرنا في السوق" [10].

ويقول البيان "انتزعت البرجوازية عن المهن والاعمال التي كانت تعد إلى ذلك العهد محترمة مقدسة، كل بهائها ورونقها وقدسيتها، وادخلت الطبيب ورجل القانون والكاهن ورجل العلم في عداد الشغيلة المأجورين في خدمتها". "إن هالة القدسية بالنسبة لماركس، هي رمز رئيس وأول للممارسة الدينية، لممارسة شيء يتصف بالقداسة. إن الممارسة وليس الايمان هي التي تشكل جوهر الحياة الدينية". الممارسة تعني كل ما هو مقدس يجري تدنيسه لا شيء يتسم بالقداسة. لا احد يبقى محظورا على اللمس، الحياة تفقد قدسيتها بصورة كاملة، يقول ماركس ان هذا الامر يبعث على الخوف.

يقول ماركس في فصل "النزوع التاريخي لتراكم رأس المال": "حين تصبح منظومة العلاقات الاجتماعية قيدا على التطور للقوى المنتجة" فإن ذلك النظام الاجتماعي يكون قد وصل إلى حافة قبره. "لابد من اعدامه؛ وهو يُعدم ويزال من الوجود بالفعل"، ولكن ما الذي يحصل إذا ما نجا (هذا النظام)، بشكل أو بآخر من تنفيذ حكم الإعدام؟ لا يسمح ماركس لنفسه أن يتصور مثل هذا الاحتمال إلا للحظة عابرة، لا لشيء إلا ليدحض الامكانية من الأساس.. يقول "إن تأييد أو إدامة" مثل هذا النظام الاجتماعي سيكون بمثابة اجازة التفاهة الشاملة "واطلاق الابتذال العام. ولعل هذا هو الشيء الوحيد الذي يعجز ماركس كليا عن تصور حدوثه" [11].

لذلك لم تكن ما بعد الحداثة إلا الجنين الذي نما في رحم الحداثة. أي في رحم الحياة اليومية وتناقضاتها، وخاصة نزعتها الاستعمارية وتغوّل رأسمال الدول الكبرى وصعود امريكا بعد الحرب العالمية الثانية كقوى مهيمنة على اوروبا واليابان، ونشوء حلف الاطلسي، ووجود الاتحاد السوفيتي كقطب آخر للحداثة المغايرة للحداثة الأوربية.

رؤية ماركس للحداثة، من أنها جعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادلية،

وقضت على الحريات الجمة، المكتسبة والممنوحة، واحلت محلها حرية التجارة وحدها. هذه الحرية القاسية التي لا تشفق ولا ترحم "بمعنى هيمنة السوق" كقوة هائلة في حياة الناس الحديثين الداخلية. انهم يتطلعون إلى قائمة الأسعار بحثا عن أجوبة لاسئلة ليست فقط اقتصادية بل ميتافيزيقية – اسئلة حول ما هو الجدير، ما هو الشريف، بل ما هو الحقيقي الواقعي؟ فحين يقول ماركس: "إن سائر القيم تحولت إلى "مجرد قيمة تبادلية" انما يعني ان المجتمع البرجوازي لا يمحو بُنى قيمية قديمة من الوجود بل يصنفها"[12]، إن الأنماط القديمة من الشرف والكرامة لا تموت بل يجري ادماجها بالسوق"[13]. وتحمل لصقات عليها أسعارها. كما تكتسب حياة جديدة بوصفها سلعا، فكل ما هو مربح مجاز. ذلك هو المحور الذي تدور عليه النزعة العدمية الحديثة.

تحدد الرؤية الماركسية للحرب، واوضاع العراق هي نتاج الحروب، وليس نتاج الصراعات الاجتماعية ودور رأس المال والقوى المنتجة فقط، تجد أن امريكا كانت تلقي قنابلها على مدن فارغة من الدفاعات. بمعنى انها لا تريد مواجهة مباشرة مع الجيش لأن الجيش سيتحطم من تلقاء نفسه، عندما تقصف مدنه التي لا تملك وسائل دفاع، وهذا ما حدث في عام 2003 عندما انهار الجيش العراقي من دون مواجهة مع العدو. هذه هي السياسة ما بعد الحداثة التي مارستها امريكا على العراق وكان من نتيجتها صعود سردية مهمشة وهي سردية الطوائف الدينية لتصبح سردية أساسية لشكل الحكم في العراق. وهذه السردية من الصعوبة أن تجد نفسها قوية في العمران والبنى الاقتصادية، بل قوتها تكمن في تقوية ذاتها عن طريق الاستلاء على موارد البلاد وعدم تعمير المدن التي قصفت.

الهوامش:

1. محمد علي الكردي، دراسات في الفلسفة والفكر، ص 221.
2. المصدر السابق، ص 222.
3. نصوص مختارة للحداثة، ص 5.
4. موسوعة ويكيبيديا.
5. نصوص مختارة للحداثة، ص 26.
6. الحداثة وانتقاداتها، عدد 11، ص48 .
7. المصدر السابق ص 51.
8. المصدر السابق ص 51 .
9. مارشال بيرمان، حداثة التخلف، ترجمة فاضل جتكر، مؤسسة عيبال، 1993، ص 94.
10. حداثة التخلف، مصدر مذكور، ص 100.
11. حداثة التخلف، مصدر مذكور، ص103.
12. حداثة التخلف، ص 101.
13. حداثة التخلف، ص 101.

أوروك بدئية السرد

ناجح المعموري

الحديث عن الوركاء، يعني بالضرورة استعادة اعظم نصوصها الادبية، واولها في تاريخ الادب العالمي. انها ملحمة جلجامش، النص الملحمي الاول الذي كشف عن مهارة الكاهن الاول المخلق للسرد مع الشعر. انها ملحمة ما زالت الى الآن مرآة عاكسة تبديات الحاضر، وهذا ما قاله د. عبد الامير الحمداني بمصطلح "القياس العلائقي"، وهذا ما توصلنا إليه ونحن نعاين ثورات الشباب وعلاقتها مع الماضي الذي عرفته اوروك عبر انتفاضة كل سكانها ضد الملك الجبار والطاغية. نبتت فيها بذرة الرفض والاحتجاج وامتدت نحو جغرافية الجنوب. ولا بد من الاستعانة بالعقل وتوظيف المنطق والموضوعية، واقول إن هذه المدينة هي اول مدرسة عرفها العراق القديم. وذهب د. عبد الامير الحمداني الى: أنها عرفت اول مؤتمر ومجلس منتخب واول مؤرخ، اول حالة ضرائب، وسابقة قانونية، واول صف للأدوية، واول جمعية للمزارعين. التجربة الاولى في حدائق شجر الظل، واول تجربة لفهم الكون والوجود، المثل الاخلاقية الاولى، اولى الحكم والمقولات والامثال، الاسطورة والملحمة الاولى، والمناظرة الادبية الاولى، والحكاية الاولى للبعث، الحالة الاولى للاقتراض الادبي، اول الاعمال البطولية للإنسان، اول اغنية للحب، اول فهرس للمكتبة، العصر الذهبي الاول للإنسان، المؤثرات الاولى، اول صور ادبية، اول رمزية للجنس واول تهويدة مدينة. كل ما عرفه العراق هو المبتكر الاول فيها، هي العتبة الحضارية التي تداولها العراقيون، واخذته بلدان الشرق كلها، لم يبتكر بلد يعلم فيها، بل يستذكرها فضلاً وكرماً وقامة بين الامكنة، يعلم فيها الجميع اربعة الاف سنة. عرفت الطفولة الانسانية حاضنتها الاولى، ولم تنسها حتى الان. تاريخ طويل ومجيد، ويكفي أن يستذكر الإله آنو/ سيد السماء، والالهة انانا/ عشتار. اوروك هي قلب الجغرافية النابض بالأسبقية والتجديد والإبداع والخلق.

المثير جداً واللافت للانتباه ان سومر وأكد تعايشا معاً، وارتضيا التجاور، وتبادلا ما حصل كل منهما متجه للآخر واشتركا

للابتكار الجديد الذي عرفته توسعات الامكنة. واعني بذلك الحروب العديدة التي سجلت تواريخها المختلفة، وخلقت فناً لها، استدعته الحروب وذهبت في تخليق الفنون العديدة والمتنوعة. سومر اقتربت من الاختام واكد كذلك: المسلات، معالم الحرب والانتصار. وابتكرت هذه الجغرافية الحكمة والشعر وذهب الكهنة لابتكار اهم الطقوس الدينية "الجنس المقدس"، فعالية انتشرت وحافظت الحضارات على ديمومة الخصوبة والانبعاث والتجدد وزيادة النسل، لأغراض ذات وظائف وطنية وصيانية للعراق المستهدف من جواره، لأنه الأرض الخصبة وذات العناصر المانحة للقوة والحياة والعيش. لذا تميزت بانها المكان الاول للإبداع الثقافي والفني مثلما قال د. عبد الامير الحمداني.

كانت المكان الذي عرف الصراعات المستمرة والطويلة. العراق موقع للصراع الدائم، مع عدم وجود طبيعة تحميها من اقاليم ودول مجاورة، فإنها كانت مفتوحة امام هجمات الهمج والغزاة من الخارج على الدوام. اما داخليا فقد كانت فريسة للنزاع المستمر على الموارد وخصوصاً المياه. ولا غرابة أن نرى أول قانون منظم في التاريخ. واضاف د.عبد الامير الحمداني، كان تاريخ بلاد النهرين مزيجاً من الابداع الفريد المميز والعنف والدمار ايضا، تاريخ موسوم بالغزوات والحروب المستمرة، كما هو معلم بالإنجازات العظيمة التي طالما تحصنت لمرات عديدة/ د. عبد الأمير الحمداني/ ألواح رافدينية/ حكايا الماء والقصب والطين.

تميزت المرأة بمكانة متسامية. هذا ما كشفت عنه مدونات العراق القديم، وكشفت عنه المتروكات الفنية. وحازت اهم المواقع الاجتماعية والمرموقة وظلت ذات حضور جوهري، فهي الام الاولى، ذات القداسة

الكبيرة، مثلما هي العقل العلمي، والتي اخترعت العديد من العلوم. وهذا ما اشارت له المصادر العديدة. الكيمياء علمها الذي وظفته لجسدها، لان الكيمياء ادت لاختراع العطور وكيمياء اللون، للتجميل والزينة. وكلنا يتذكر الإلهة الأم الكبرى"اورورو" البابلية ومن قبل ننماخ/ وننخرساك/ ومامي السومرية. وعلى الرغم من قناعتي بعلمية د. عبد الامير الحمداني، لكني لا اعتقد بأن معظم النساء في بلاد الرافدين متعلمات، يلتحقن بالمدارس ويتعلمن الكتابة وعلم الحساب وعلم الفلك.

سرديات الندب والمراثي

تعددت المواضيع أو الأغراض التي اهتم بها الأدب العراقي القديم، ومن أهمها الأساطير الخاصة بالنشأة والتكوين والعناصر المكونة للآلهة وملامح البطولة، وسرديات الطوفان وما بعد الموت، فضلاً عن الوصايا والمراثي والمرويات الساخرة والفكاهة والأدب ...

اللافت لانتباه، الكثير من الباحثين والمهتمين بالحضارات القديمة، الذهاب نحو الحب والغزل والرثاء. وقد قدمت الحضارة العراقية/ سومر وأكد أهم النصوص في هذه المواضيع.

كان الرثاء والمباكي من أهم المواضيع التي اهتم بها د. الحمداني في الواح عراقية قديمة، التي تكرست على العديد من الوظائف، لكن الرثاء والندب أحد أهم ما انشغلت به المراحل الثقافية والدينية. ولعل أهم المراثي التي عرفتها الدراسات والبحوث التي قام بها الكثير من الباحثين، هي مراثي المدن الشهيرة جدا، مثل مرثية أور، نفر، أريدو، لكش ...

انطوت هذه النصوص الملحمية على براعة سردية، تضمنت توفر الحبكة النصية التي ميزت المراثي بوصفها نوعاً من الدراما والندب. انطوت على ما كانت عليه المدينة العظيمة مثل أول/ أريدو. وقد تم التعامل معهما وغيرهما فنياً. ومازلنا نتذكر ترجمة د.عوني كرومي لمرثية أور وإعدادها مسرحياً. وتأكد للكثير من الأساتذة توفر العناصر البنائية/ الفنية في الملاحم والمراثي وأساطير الخلق والتكوين، ووجد كل فنان فيها ما رآه ممكناً الاشتغال عليه مسرحياً. والاكثر حضوراً ملحمة جلجامش التي قدمت على المسرح أكثر من مرة، وبرؤى فنية مغايرة.

عودة للمناحات التي تحدث عنها د. الحمداني، وقال بأن المرثية هي سرد للوقائع والأحداث التي حصلت في مدينة من المدن من خراب وتدمير، مثل مرثية أريدو التي كان فيها سكن الإله أنكي، وحسب المعتقدات السومرية هي مدينة الكون، ونزلت فيها الالوهة، وأسباب الحكم من السماء الى الأرض، وفيها خلق أنكي الإنسان الأول المسمى "أدابا"، وفيها اكتشفت عناصر ومقومات الحضارة البشرية. ويوصف أنكي بأنه إله المياه والحكمة وهو من خلق الفأس والمحراث وزرع النخلة وعلم الإنسان الزراعة والكتابة والتعدين والشرائع. ويعد ريف أريدو موطناً للحدائق الإلهية/ ألواح رافيدينية/ ص206.

الرثاء فن من فنون الشعر الغنائي، يوظفه الشاعر للتعبير عن حزنه وأوجاعه وخساراته وفقدانه لما هو عزيز كالزوجة أو الابن. وتقترن البكائيات بالخسارات الكبيرة مثل دمار نفر، أور، لكش. ودائماً ما تتميز المراثي بخصائص فنية، صارت ملمحاً مميزاً لها، مثل التكرار والتواري والتشبيه والاستعارة ولازمة الإنشاد. وقد صورت لنا مشاعر الحزن لآخرين من كاهنات المعبد وأبناء المتوفى... ووفرت لنا مكتبة آشور بانيبال على 49 مرثية مسجلة في فهرس واحد. ولكن تم العثور على نصوص رثائية عددها 37 نصاً من بين الـ 49 التي تضمنها الفهرس الآشوري/ د. شبيب الراوي/ الطقوس الدينية في بلاد الرافدين/ مخطوطة/ ص210.

قال د. الحمداني في عنونة البكائيات "أريدو التي غادرتها الطيور" هذه السردية ذات البلاغة الاستعارية العميقة والتي ضمرت معاني عديدة، لها عمق؛ فغياب الطيور، بسبب الدمار دلالة على تدمير حدائق الآلهة، لأن أريدو هي حدائق الآلهة، وتستدعي الكثير من الطيور وتواجد الأعشاش والتكاثر.

توقفت الأغاني المقدسة، الأغاني من جميع الأنواع.

انتهت الطقوس العظيمة في أريدو، مكان آلهة السماء والأرض.

لم يعد الحكم الذي أصدره الملك ساريا، صاحب الصولجان المقدس

الكاهن غادر، الوزير إسيمود متحير، دخل الغرباء الى المعبد

آه اريدو، ضريح آبسو، المنطقة ذات السماء اللازوردية.

د. بلاسم محمد.. وداعاً!

ببالغ الحزن والاسى تلقينا نبأ رحيل الفنان التشكيلي والاكاديمي د.بلاسم محمد (مواليد 1954 الكوفة/ العراق).

كان الراحل العزيز قد رفد مجلتنا بالعديد من دراساته الفنية المعمقة، وقدم للمكتبة العربية كتباً ثرية ابرزها: (دراسات في بنية الفن، النقد والفن، دراسات في الفن والجمال، تأويل الفراغ في الفنون الاسلامية، حدود الخزف، سيميولوجيا الفن، الفن التشكيلي ـ قراءة/ سيميائية في أنساق الرسم، تاريخ التصميم الكرافيكي.

وكان اخر اصداراته: (الفن والقمامة).

وفي اخر مقابلة تلفزيونية معه قال: "كل مايهمني ان يكون ابناء بلدي سعداء"، واضاف: "اتمنى ان اكون اكثر شخص فاعل داخل الحياة الاجتماعية".

إن رحيل الفنان التقدمي د. بلاسم محمد، خسارة للوسط الجامعي وللحياة الثقافية والابداعية العربية..

لروحه السكينة والسلام، ولذويه العافية والصبر والسلوان.. ولنا في منجزاته الثقافية والابداعية، خير عطاء تركه لنا وللأجيال القادمة.. له المجد والبهاء.

(الثقافة الجديدة)

بلاسم محمد.. ومشاغل الخطاب الجمالي

د.جواد الزيدي

يعيد الغياب السريع والمفاجئ للفنان بلاسم محمد، فكرة الخسارات غير المتوقعة المقترنة بامتلاء ذاكرتنا من الأشياء والأسماء المحببة والاطمئنان على وجودها بالقرب منا. بيد ان الخسران يذكرنا بحجم الأسى الذي يحل بنا إزاء ذلك. إن هذا الرحيل الذي ينطوي على اكثر من اشارة بفعل اهتمامات الفنان ومساعيه الجمالية النبيلة وهي تغمر الوطن باستشاراتها وتهكمها من المستهجن والغريب في الظاهرة الفنية، ويعيد انتاج تلك الأفكار بما يتلاءم مع المعطى والقناعات الجمعية وان كانت نسبية من اجل تصحيح المسار المتعرج في هذه الظاهرة او تلك. هذا الفنان الذي اهدر اغلب حياته في مراقبة المساعي الجمالية وانتاجه ايضا عندما كان بداية حياته الفنية ضمن الجماعة التي شيدت بصدق جزءا كبيرا من الثقافة العراقية بمنطقها المجموعي، بعيدا عن التخصصات الفرعية، ونقصد بها دار ثقافة الأطفال التي كانت تديرها مجاميع فنية في مجالات الرسم والتصميم والخط العربي وكتابة السيناريو والشعر والقصة. هذه الجماعات المتعاقبة والمتناوبة على هذا الجهد لعدم ثباتها بفعل ظروف موضوعية ومعطى خارج عن الارادة، وهكذا كانت

نهاية السبعينيات من القرن الماضي تشيء بموهبة فنية قادمة ستأخذ موقعها الحقيقي في مسار الفن، وكانت بصمته واضحة ضمن هذا المسار وتلقفه الدرس الجمالي بسرعة، وزاد من تغذيته بمصادر متنوعة تتجاوز الرسم والخط العربي والتصميم الى مرجعيات التفكير الفلسفي بما يؤسس لمشروع يمكن ان يكون بديلا عن اللحظات التي تتعارض مع تلك النسقية الجمالية.

ولعل هذا الحضور المؤثر الذي حفر علامته الخاصة على جسد التشكيل تم تتويجه في الدرس الأكاديمي الذي حاول به أن يكون معينا ورافدا لخدمة الغرض الجمالي، وليس لغرض براجماتي شخصي. ومن هنا بداية حكاية أخرى على مستوى التفكير النظري والجمالي وتأويلات سيميائية العلامة المرسومة بمختلف اتجاهاتها واصنافها،

وبدأ يدرك جيدا ما وراء المقاصد الرسموية المنتجة في الخطاب البصري العراقي أو غيره من الخطابات، كونه يمتلك ادواته النقدية في التحليل، وتابع عبر هذه المساحة المهمة درسه النقدي بعيدا عن الأطر الأكاديمية الصارمة والتفكير بحرية أكبر في النظر الى ذلك الخطاب وتوسيع رؤيته التي يتداخل فيها الضاغط الخارجي سواء كان اجتماعيا او ثقافيا او سياسيا وينبش في المسكوت عنه في هذا الحقل الفني وصولا الى ترتيبات المدينة الجمالية وتأثيثات ساحاتها وشوارعها وانظمتها العمارية المقترحة بالقبول أو الرفض القاطع أو التصحيح في بعض الأحيان. ويتعدى هذا الخوض في غمار المجازفة التي احاطها الكثير من الاشكاليات والتبعات. مدينة بغداد التي أحبها ووضع ذات يوم شعارا مختزلا لها عندما اصبحت عاصمة الثقافة العربية عام 2013 ويصل الى مناقشة الأثر الفني الذي ترسمه الذوات المبدعة في ساحات وشوارع المدن العراقية الأخرى وامكانية تأثيث فضاءاتها بما يليق بمفاهيم ترتبط

بالجذر الحضاري وبالقدسية مرة أخرى، ليسهم في معالجة الأثر ضمن حاضنته الفنية بشكل ايجابي، يدعو للاحترام لأنه نابع من فعل المحبة والمسؤولية تجاه الوطن والأهل.

وبفعل هذا امتدت افكار د.بلاسم الى المؤسسات الراعية للفن او ذات المسؤولية التزيينية ليصبح عضوا في لجانها الاستشارية أو التنفيذية وكان عطاؤه واضحا في مجمل ما انجزته وزارة الثقافة في سنواتها الأخيرة وبنفس الفاعلية، فيما يخص أمانة بغداد من اجل اعادة خارطة جمال الوطن، واستطاع استثمار هذا الحضور لتمكين تلك المؤسسات الافادة من الخبرات الوطنية والاعتناء بالذائقة الجمعية التي تعكس جذوة الانتماء للأرض والسياق التأريخي الوطني من حيث التعامل مع فضاء المدينة الحضاري باتجاهاته المختلفة. وعلى الرغم من هذا لم يتوقف الفنان عند هذا الحد، بل كان راعيا لمواهب وطاقات فنية موجها لها من أجل أن تكون أكثر فاعلية، ضمن وجوده في كلية الفنون الجميلة واشرافه على طلبة الدراسات العليا واستكمال ما بدأه بنفسه في مسار البحث العلمي من خلال التوصلات الجديدة والرؤى الاستشرافية في موضوعات العلامة والتداول الذي اصبح عنوانا لاهتمامه في ضوء اشراك المتلقي في انجاز المهمة الجمالية.

بيد ان هذا الفعل الكبير لم يمنعه من ممارسة غوايته الأولى (الرسم)، وبقي يحفر ويجترح لنفسه اسلوبا مميزا في المشهد الرسموي العراقي والعربي، واللعب الحر على فضاء لوحته والسطح التصويري لخطابه الجمالي انطلاقا من رؤى فلسفية، وأفكار تتجسد على صعيد المرئي، متخذا من الهم العراقي والمشاغل الاجتماعية وعناوين رئيسة أخرى أساسا في تشييد ذلك الخطاب على صعيد استثمار دلالة اللون وتأسيس المفارقة الجمالية أو على مستوى العلامة المشيدة للشكل العياني وتابع الرسم بالحماسة نفسها التي تبناها في متابعة تأثيث فضاءات المدينة، ليجعل من كل هذا فعلا واحدا لا يمكن تجزئته، وعنوان حياة يتخذه طريقا للسعادة والمتعة والتأمل، السعادة التي كان يمنحها لزملائه وأصدقائه وفي كل محفل فني واجتماعي، حاضرا فيه. تبقى خسارتنا برحيل الفنان والاستاذ بلاسم محمد كبيرة وباهظة الثمن، لا يمكن تعويضها أو سدادها على المستويات كافة. انه فقدان بحجم الوطن سيمكث أثره طويلا في الذاكرة والنفوس.

الصكار: كنز عراقي فقدناه في الغربة

محمد الكحط

(حبري أسود فلا تطلبوا مني أن أرسم قوس قزح) الصكار

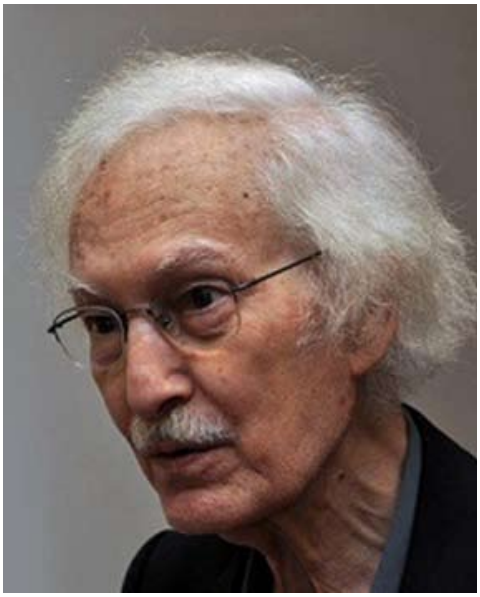

عن عمر ناهز الثمانين مليئة بالعطاء والإبداع غادرنا محمد سعيد الصكار (1934 - 2014) **يوم 23 مارس** 2014، **بعد معاناة من طويلة مع المرض، لقد كان لفقدانه وقع مؤلم على أصحابه ومعارفه.**

((إنهم يغادروننا/ يفرشون حياتنا بالرياحين والأشعار/ ويضيئون الليل فيغدو كالنهار/ خذوه الى بصرته إلى شوارعها/ طوفوا به في أزقتها لعلها تتذكر من لم ينسها/ طوفوا به هناك/ ستزهر شوارع طفولته/ ويخضر لون قصائده/ وتتلون مخطوطاتها/ إنه شاعر القصبة/ شاعر البصرة/ شاعر الغربة/ شاعر العراق/ خطاط العصر وزينة الاعمار/ إنه الإنسان الإنسان/ الصكار/ طاب ثراك/ لن ننساك/ لن ننساك/ صديقك محمد الكحط)).

التقيته في ستوكهولم وباريس ودمشق، مما ترك انطباعات لا تمحى في الذاكرة بدفئه ومشاعره ووفائه للصداقة، وجمالية تعامله مع الآخرين، شفاف كجنح فراشة غضة.

استقبلته في مطار ايرلندا الدولي (ستوكهولم)، مع ابنتي هيلين وكان عمرها لا يتجاوز العاشرة وهي تحمل باقة ورد، ولما عاد الى باريس بعث لها لوحة مخطوطة باسمها، نحتفظ بها بمكان مميز في البيت.

الصكار ليس إنساناً عادياً، بل مناضل ومثقف موسوعي وفنان في مجالات عديدة، حتى في علاقاته الاجتماعية تشعر بدفئه وبفنه وبسعة ثقافته، في ذكرى رحيله السابعة نقف بخشوع لاستذكاره.

تؤكد الوثائق ان الصكار ولد عام 1934 في المقدادية (شهربان)، ثم انتقل من بلد البرتقال والقداح عام 1947 الى مدينة البصرة، مدينة النخيل التي نشأ وترعرع فيها، وظهر أول نتاجاته في المجالات المختلفة من صحافة وفن وشعر وكذلك الخط والزخرفة والمسرح وغير ذلك، وظل في البصرة حتى عام 1957، تزوج في البصرة وسجن فيها أيضا.

افتتح في البصرة مكتبا عام 1955 للخط والرسم سماه (ستديو صكار للخط والرسم)، وكان يستخدم (البويا)، وبدأ نشر الفكاهات وكتابة الشعر بشكليه العمودي والحر وأبدع فيهما، وساهم في العديد من النشاطات الثقافية الأخرى، فكانت البصرة حلمه الأول والتي قال عنها: (إن البصرة هي مدينة الأوائل وسيدة الأوائل، ففيها أول قصيدة وأول قصة، وأول فكاهات أنشرها وأول عمل مسرحي وأول تمثيل لي على المسرح، وأول إخراج في المسرح، وأول كتاب في الصحافة، وأول حب وأول اعتقال وأول محاكمة سياسية، فهي سيدة الأوائل)، فليس غريباً أن تكون البصرة حاضرة في مجمل أعماله وإبداعاته لاحقاً، ابتداء من أول مجموعة شعرية صدرت له بعنوان "أمطار" 1962، مرورا بمجموعة "برتقالة في سورة الماء" عام 1968، ونشعر بآثارها وتأثيراتها في أعماله الفنية التشكيلية ولوحاته في الخط.

وفي مجال الصحافة ساهم في إصدار الصحف التالية: أبو نؤاس، الخواطر، جفجير البلد، والحصون، ناهيك عن المساهمة في فعاليات مختلفة.

في عام 1957 لجأ الى سوريا لأسباب سياسية، وأقام في دمشق التي عمل فيها معلما في حارة قرطانية، واحتفظ الصكار في أرشيفه الخاص بالمرسوم الجمهوري الذي يحمل توقيع الرئيس السوري الأسبق شكري القوتلي لتعيينه معلما براتب مقداره 150 ليرة سورية، وعاد إلى العراق بعد ثورة 14 تموز 1958. في بغداد افتتح له مرسما في شارع الجمهورية اسماه (ناب). ومن داخل هذا المكتب بدأت رحلة الصكار مع الفن فعمل مصمما وخطاطا. ومن هناك بدأ عمله الصحفي في بغداد الى جانب عمله في مكتب للإعلان. وقدم العديد من الانجازات الفنية وساهم في فعاليات ثقافية مختلفة، والتي كانت وراء اضطراره لمغادرة العراق من جديد، بسبب مضايقات الأجهزة الأمنية للنظام الدكتاتوري له.

انتقل الصكار الى فرنسا عام 1978 فهي بلد الجمال والحرية، التي اختارها كمنفى إجباري له، ليتفرغ لعمله الفني وليواصل مسيرته الفنية؛ حيث مارس العمل الصحفي محررا وخطاطا ومصمما ويكتب الشعر، وليبدع

في كافة المجالات، فأقام فيها عدة معارض للوحات في الخط والفن. وحوّل بعض أبيات شعر الجواهري وغيره من الشعراء إلى لوحات فنية. فهو يعد أحد أهم فناني الخط العربي والزخرفة في العصر الحديث.

عاد الصكار من باريس عام 2004 بعد سقوط النظام الدكتاتوري، وزار البصرة وبغداد بعد فراق دام 26 عاما، وزار العراق ثانية عام 2009، حيث استقبله الرئيس العراقي آنذاك جلال طالباني، وزيارة ثالثة بعدها. وفي الرابعة زار بغداد ليساهم في فعالية المركز الثقافي الفرنسي في بغداد، الذي نظم معرضاً تحت عنوان: خطاطون عراقيون في باريس، للفترة (28 تشرين أول - 25 تشرين الثاني/2010)، حيث شاركه في ذلك المعرض أربعة فنانين تشكيليين عراقيين، محمد سعيد الصكار، غني العاني، حسن المسعود، محمد صالح. وقدم الصكار محاضرة بعنوان (الخط العربي في فرنسا: تجربة ذاتية).

لقب الصكار بـ(شاعر القلم الملوَّن) وبـ(شاعر القصبة وعاشق الحرف) وبـ(صانع الأبجدية الطباعية) وهو شيخ الخطاطين العراقيين.

فهو مثقف ومبدع في مجالات عديدة، وهكذا كتب عنه الناقد ياسين النصير:

((يكتب الصكار إلى جوار الشعر والعمل بالفن التشكيلي والخط، المسرحية القصيرة وله فيها أعمال، فهو لم يكن كاتبا فقط بل كان ممثلا. وشهدت منصات المدارس في البصرة الصكار ممثلا إلى جوار توفيق البصري وغيره. وكتب القصة القصيرة وله فيها مجموعة، والخاطرة والحواريات وله فيها باع في تحويل المواقف المفارقة إلى شعر، عن أشخاص وحالات ومواقف طرفيه عدة)).

لقد حصل الصكار على جوائز عدة، منها جائزة دار التراث المعماري تقديرا لتصميمه جداريات بوابة مكة. وآخر تكريم من معهد العالم العربي لبلوغه الثمانين في 17 مارس/ آذار، أي قبل وفاته بأيام. وخلال التكريم قال جاك لانغ رئيس المعهد، ووزير الثقافة الفرنسي السابق، ان الصكار "يعد بجدارة أحد أبرز ممثلي الخط العربي المعاصر". وفي الاحتفال تم توجيه سؤال للصكار أين يجد نفسه كمبدع، فأجاب: ((أنا أقرب إلى الشعر، لكنّ هناك رأياً يقول إنني شاعر في خطّي وملوّن في شعري)). لقد وصف جاك لانغ الفنان محمد سعيد الصكار، بالرجل الاستثنائي الذي استطاع أن ينقل الثقافة العراقية والعربية عن طريق خطوطه وأشعاره وكتبه التي تجاوزت 14 كتاباً، وهي تزين مكتبة المعهد وورشات العمل التي أراد بها أن ينقل هذه المهنة إلى جيل الشباب.

أصدر 14 كتابا في مجالات الإبداع الثقافي. وأقام 30 معرضا تشكيليا في العديد من دول العالم. من دواوينه الشعرية: أمطار 1962، برتقالة في سورة الماء 1968، الأعمال الشعرية الكاملة، مجموعة باللغة الفرنسية، 1995، وله من مؤلفات: الخطّ العربي للناشئة، وأبجدية الصكار، وأخوانيات الصكار، أيام عبد الحق البغدادي، القلم وما كتب، محنة محمود الشاهد. لقد كان محمد سعيد الصكار عضوا في وفد اتحاد أدباء وكتاب العراق لمؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في قاعة الخلد ببغداد عام 1969 وكان الوفد برئاسة شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، الذي كان رئيسا لاتحاد أدباء وكتاب العراق آنذاك.

كما أنه أسس وأدار ثلاثة مكاتب للإعلان في البصرة وبغداد وباريس، وشارك في العديد من الندوات الشعرية والمؤتمرات الأدبية والفنية، ونشر الكثير من المقالات في النقد الأدبي والمسرحي والسينمائي. كما قدم استشارات خطية وزخرفية لعدد من المؤسسات المعمارية في بلدان مختلفة. وهو الحاصل على جائزة وزارة الإعلام العراقية لتصميم أحسن غلاف 1972، وترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والدنماركية والبلغارية.

لقد كتب الكثيرون عن الصكار، منهم الأستاذ الدكتور عبدالإله الصائغ حيث وصفه (إنه شاعر مبدع وقاص ممتع وإخواني لاذع وفنان تشكيلي وخطاط حداثوي ومبتكر حروفي ومناضل وطني وأممي... إنه شاعر مجدد وفنان حداثوي).

وأثار الصكار الجدل في مشروعه "الأبجدية العربية المركزة" في أول محاولة لإدخال الحروف العربية في الطباعة الإلكترونية، وكسر قيود الحرف العربي وتطويره بما يتلاءم مع معطيات التحديث في الطباعة على أسس علمية متطورة. وقد حصل عليها براءة اختراع

من بغداد ومن لبنان. وسجَّلها في كل من فرنسا وبريطانيا، وقد تحدث الناقد ياسين النصير عن أساس هذه الأبجدية فقال: إنها (مشروع طباعي يختصر عدد الحروف العربية الطباعية لكي تتناسب مع أجهزة صف الحروف الطباعية، معتمدا على جذورها المشتركة، فوجد ـ الصكار ـ أن جذور الأبجدية هو 21 جذرا تشكل تكوين وتشكيل الحروف، وهو ما يغطي حاجة المطبعة من الحروف العربية، وتوصل إلى أن الأبجدية لم تعد لها حروف أولية أو وسطية أو متطرفة، فهذه الجذور تأخذ أشكال تلك الحروف وحسب موقعها من الكلمة، وهذا هو باختصار أساس أبجدية الصكار).

ويقال عنه (إنه من جيل الخطاطين الذين استثمروا الشعر في الخط حيث الرشاقة والدقة والاختصار).

وتحدث آخرون عن سلوكه الاجتماعي المليء بما هو جميل، فهو (لا يعرف الضغائن على أساس سياسي أو اجتماعي، فكم ظل مرتبطاً بصداقة مع المختلفين معه سياسياً، وعندما يسأل عن ذلك يُجيب قائلاً: هم أصدقاء والسياسة والأحزاب شيء آخر). كما عُرف بكونه (مملوءاً بالحياة والحيوية، على الرغم من مرضه الذي زامنه لفترة طويلة. وعُرف بكونه أنيق المظهر وخفيض الصوت، حريصاً على التعامل الحضاري والثقافي. وظل مخلصاً لأصدقائه القدماء. وتجد هذا في شعره الذي كثيراً ما يحيي المجالس به، وهو ما يمكن التعبير عنه بالإخوانيات. انتمى إلى اليسار العراقي، ولم يبق مشدوداً لتنظيم حزبي، بعد أن تفرغ لفنه وشعره، وما يكتبه من خواطر حيَّة في الصحف العراقية والعربية).

وصف الناقد فاضل ثامر، الصكار بأنه (ينتمي إلى جيل ـ المرفأ ـ الذي اتخذ من إحدى زوايا اتحاد أدباء وكتاب العراق عام 1959 مرفأ له، وقد ضمَّ شعراء من أمثال رشدي العامل وسعدي يوسف وحساني عبدالكريم....).

أما الصكار فيقول عن نفسه، (أنا أحمل الوطن معي أينما سرت، أنا صحفي ومقيم في المطابع وعندما لا أشمُّ حبر المطابع أدوخ). وعن سيرة حياته قال (أنا إنسان مدني التكوين، أعني لست ريفيا، فعلاقتي بالمدينة علاقة حميمية).

كما عبّر عن شعوره بالمدن التي عاش فيها فهو يعد: (الخالص/ بداية علاقته بالمدرسة، والبصرة شبابه وتكوينه، ودمشق وعيه السياسي. أما باريس فهي التي لها ثقل كبير عليه).

ويقول عن البصرة (إن أول ما يتعلمه القادم لها الحب والخط).

أنشد لباريس أشعاره فهي:

وباريسُ إنْ طالَ الحديثُ فكوكبٌ
يعزُّ علينا مثلُهُ في الكواكبِ
لها في حنايا بؤسِنا ونعيمِنا
مواقفُ لم تتركْ مجالاً لعاتبِ
فكيف سأنسى للحبيبةِ فضلَها
وصورتُها ما بين خدّي وحاجبي

ولم تكن بغداد بعيدة عن قلبه فكتب لها:

ألا ليت شعري هل ببغدادَ نخلةٌ
تُجيبُ إذا أعيا المجيبُ ندائيا
فقد غابَ أصحابي وأوحشني السُّرى
وضعضعَ آمالي اغترابٌ نبا بيا
أُقلِّبُ طرفي في الجرائدِ علَّني

أرى ألقاً من فجرِ بغدادَ آتيا
إنِ اللهُ يُرجعْني لبغدادَ أرتمي
على تُربِها أستافُ فيهِ شبابيا
لعمري لئنْ طالتْ بباريسَ غربتي
وآنستُ فيها كلَّ ما كنتُ هاويا
لأعلمُ أنّي في العراقِ مضيَّعٌ
ومغتبطٌ أنَّ العراقَ مآليا

أما عن منبع إبداعه البصرة

فكتب عنها عدة قصائد، نختار هذا النص المستل من قصيدته: أيها الخل الخليلي، وهو يحاكي الموت وعودته التي تنبأ بها الى بصرته....

((...لا تقولوا أتينا به ليودعكم
بل خذوني برفقٍ الى الثانوية، وأمّ البروم
أتركوني قليلاً على جسر سورين
في رأس سوق الهنود
أرى مكتبتي
وأقبل فيه جميلاً وموسى وتوفيق
أملأ عيني من القصب المتناثر بين الوريقات
أرنو الى الشط
أرقب نادل قهوتنا
فلولا مرؤته ورجولته لانتهيت
وما كان لي موعد معكم
لا تقولوا أتينا به ليودع
لا توحشوهم
وخلوا طريقي يمرّ بحيّ الإبلةِ
ألقى جميلاً
أعانقه
وأذهبوا بيّ الى حيث شئتم
أنا صيدكم
وهيَ لي آخر الرغبات.

التكريمات:

عام 2008 شارك الصكار في الدورة الثالثة لملتقى الشارقة الدولي لفن الخط العربي، وتم تكريم كوكبة من المبدعين في تطوير فن الخط العربي، وهم البروفسور أكمل الدين أوغلو وحسن جلبي من تركيا ومحمد سعيد صكار من العراق وأحمد سبرين من السودان.

ولمناسبة بلوغ الصكار السبعين من العمر، أقامت إحدى عشرة منظمة عراقية احتفالا خاصا بهذه المناسبة في هولندا، واستمر الاحتفال لمدة ثلاثة أيام.

وكان آخر تكريم له من معهد العالم العربي بباريس في 16 آذار 2014 أي قبل رحيله بثمانية أيام، والذي حضره وهو على كرسيه المتحرك.

لقد وثّق السينمائي محمد توفيق إبداعات الصكار في شريط سينمائي تسجيلي أعطاه اسم (شاعر القصبة).

مناشدة:

لقد ترك الفقيد محمد سعيد الصكار ثروة فنية لا تقدر بثمن، فهناك في باريس حيث كان مرسمه، عشرات الأعمال الفنية النادرة، ناهيك عن نتاجاته الإبداعية في الشعر والأدب، نأمل من المعنيين بالثقافة العراقية، من وزارة الثقافة، ومن جمعية الفنون التشكيلية العراقية، واتحاد الأدباء والكتاب في العراق وغيرهم، التواصل مع عائلته لجمع ذلك الإرث الجميل والاحتفاظ بهِ، ليطلع عليه الشعب العراقي وفنانيه، وليكون متحفاً أو جناحا في متحف وطني للفن المعاصر، فكان الفقيد من رواد

الحداثة، لعل ذلك يأتي خلال ذكرى وفاته العاشرة.

كذلك أهيب بالباحثين والدارسين، دراسة هذه الشخصية النادرة من كل جوانبها، لتكون حصيلة تلك الدراسة في خدمة الثقافة والمثقفين.

المصادر:

- محمد سعيد الصكار، الأعمال الكاملة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق 1996.
- إبراهيم محمود، (محمد سعيد الصكار.. شاعر الحرف) تاريخ النشر: 07 /04 /2014/ http://www.alkhaleej.ae/home/print/
- ياسين النصير، (الشاعر والفنان محمد سعيد الصكار.. بحث دائم عن أفق جديد).
- غزاي درع الطائي، (خط رحلة الصكار العمرية).
- رحيل محمد سعيد الصكار مجدد رسم الحرف العربي، جريدة العرب، -03-2014 25. 25-03-2014. https://www.alnaked-aliraqi.net/article/22228.php

مؤلفات الصكار المطبوعة

1 . الأصول الفنية لتدريس الخط العربي - 1988، وقد صدر عن دار الساقي للطباعة والنشر.

2 . الخط العربي للناشئة، مقدمة مبسطة لتاريخ الخط العربي مع كراسة خط الرقعة - 1988، وقد صدر عن دار الساقي للطباعة والنشر.

3 . أيام عبد الخالق البغدادي 1995، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

4 . الأعمال الشعرية - 1996، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

5 . مجموعة شعرية باللغة الفرنسية- 1995.

6 . محنة محمود الشاهد - نصوص مسرحية، وقد صدر عام 1997 عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، وقد ضم الكتاب أربعة نصوص مسرحية هي: محنة محمود الشاهد، يا غريب اذكر هلك، سهرة كاس عراقية، وداس طاولي، والمسرحية الأولى كانت باللغة العربية الفصحى أما المسرحيات الثلاث الأخرى فكانت باللهجة العراقية.

7 . أبجدية الصكار: المشروع والصحة - 1998، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

8 . فصول محذوفة من رواية بتول - رواية، وقد صدرت عن منشورات الجمل.

9 . لواعج الأصفر - قصص قصيرة - 2000، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

10 . القلم وما كتب - 2001، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

11 . اخوانيات الصكار ومجالسه الأدبية - 2001، وقد صدرت عن دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

12 . من رسائل الأدباء - 2009، وقد صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

13. أمطار - 1962.

14. برتقالة في سَوْرة الماء - 1968.

مذكرة الملك فيصل الاول.. جدل مستمر

د. رهبة أسودي حسين *

لم أجد شخصية سياسية في تاريخ العراق الحديث يتفق عليها الكثيرون في رجاحة فكره عن معاصريه أو من بحثوا في التاريخ فيما بعد مثل شخصية الملك فيصل، فقد قال ناجي شوكت في مذكراته عنه: ((قائد فرقة موسيقية (مايسترو)، يشرف على جميع العازفين ويوجههم الوجهة التي يرتئيها ويوفق بين عزفهم ونوتاتهم)). لقد استطاع الملك فيصل تشخيص ظواهر المجتمع العراقي بكل ابعادها في مذكرته الشهيرة التي تعبر عن آرائه في العراق وسكانه ومستقبله، لقد كانت هذه الاراء التي كتبها في العقود الاولى من القرن الماضي رؤية مستقبلية نعيش في ظلالها اليوم، وربما سيقود تجاهلها الى صفحات أكثر عنُفاً وابعد خطوات عما يتمناه المرء لهذا الوطن من خير؛ فقد لخص الملك فيصل في مذكرته هذه الاوضاع في العراق، ما بحثه الكثيرون في مجلدات، وعلى الرغم من ان ما اشُيع من فقرات خاصة من المذكرة، كان القصد منها التقليل من أهمية هذه الإثارات التي دعا الى الانتباه لها ومعالجتها, حيث قال (منذ زمن طويل أحس بوجود أفكار وآراء حول كيفية ادارة شؤون الدولة عند بعض وزرائي، ورجال ثُقاتي، ..... ظهر لي عدم وقوفهم تماماً على أفكاري، وتصوراتي، ونظري في شؤون البلاد وفي كيفية تشكيلها، وتكوينها، والسير بها)، فقد اعلن ما يخفيه بعضهم فهناك كما يقول د. غسان سلامة (ميل عام لدى أبناء المذهبين، نفي وجود خلاف حقيقي، والتأكيد باستمرار على الوحدة الوطنية، وكان من شأن هذا المسلك أن يقلل في الواقع من أهمية التمايز المذهبي، لاسيما أن زعماء الشيعة، وعلمائهم على الاخص كانوا يبدون الحرص على عدم الانزلاق لتكوين قوة ضغط على الحكومة، مما كان يشكل خدمة غير مباشرة للدول المجاورة ولبريطانيا). فكانوا يتصرفون وحسب تعبير د.غسان سلامة على وفق الحديث الشريف (اذا إبتُليتم بالمعاصي فاستتروا)، وقد عبر الملِك فيصل عن خروج تلك المعاصي العلني في المذكرة، لان لا احد يريد ان يعترف بالامر او يكرسه، على الرغم من ممارسة توزيع المقاعد

الوزارية على اسس مذهبية وعرقية. حتى أن فيصلا كان يتردد في القول وقلبه (ملآن أسى)، فهو يلمس مشاكل التعددية القومية، والدينية، والمذهبية ما ادى الى فقدان الوحدة الفكرية والملية والدينية في المجتمع العراقي، فضلاً عن عدم الاخذ بالرأي الاخر (أن عدم الاخذ بالرأي بتاتا، مهما كان حقيرا جريمة لا تغتفر)، واحترام (التقاليد والشعائر الدينية بين طوائف المسلمين بميزان واحد)، وامكانية اعطاء التعليمات الى قاضي بغداد أن يسعى لتوحيد أيام الصيام والافطار، وتعمير العتبات المقدسة، وان تكون المدرسة مطمئنة لكل سكان العراق، بانهم سيشتركون فعلاً في خدمات الدولة. و(أن الحكومة أضعف من الشعب بكثير، ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر، لكنه يوجد في المملكة ما يزيد عن المائة ألف بندقية، يقابلها 15 ألف بندقية حكومية، ولا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه)، والتخندق تحت مسميات الاضطهاد بين مكونات الشعب فهذا شيعي أبُعد عن وظائف السلطة في العهد العثماني، وذاك كردي وأقلية مسيحية تشجعها إرادات خارجية للمطالبة بحقوق كثيرة، فضلاً عن طلاب الوظائف من دون استحقاق، والذين لم يستفيدوا ماديا من الحكم الجديد وتعصف مطامعهم الشخصية بإرادات الأكثرية، فغالبا ما تتحاشى المصادر ذكر هذه

الإشارات ويكون التركيز على أن فيصلا وصف الشيعة، والاكراد بـ (الجهل). أما خطته في تشكيل وتكوين دولته فجاءت من خلال طروحات قيمة (لو) طبُقت حينها لأغنت العراق عن مساوئ سياسية، واجتماعية، واقتصادية كثيرة، وتتلخص هذه الطروحات في:

بناء قوة الجيش، واعلان الخدمة الوطنية.

الاسراع في تأسيس مدرسة الموظفين للخدمة العامة.

تشجيع المعارف (أن تكون المدارس متاحة للجميع).

حماية المنتوجات المحلية.

الفصل بين السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية (بتعديل الدستور).

تثبيت ملاك الدولة.

العدل والطاعة والنظام عند موظفي الدولة وضرورة الحفاظ على استقلال الموظف من الانتماء الى الاحزاب السياسية.

الاهتمام بالزراعة والاسراع في تسوية مشكلة الاراضي وحلها الذي سيربط الأهالي بالأراضي وهو ذو مساس كبير بالشيوخ ونفوذهم، ولا لزوم للإسهاب بمنافعه، ويجب الإسراع في تطبيقه، كما أنه يجب أن لا يحس الشيوخ والاغوات بأن قصد الحكومة محوهم، بل بقدر ما تسمح لنا الظروف يجب أن نطمئنهم على معيشتهم ورفاهيتهم، فضلاً عن تبني مشاريع الري الكبرى.

تشجيع الاستثمار الحكومي بالتعاون مع القطاع الخاص أو الاجنبي لإنشاء أعمال صناعية.

وضع حد للانتقادات غير المعقولة ضد اجراءات الحكومة في الصحف والاحزاب، واحترام النقد النزيه.

وتبقى كلمات الملك فيصل حاضرة تعكس (الماضي - الحاضر) بقوله: إنه من المحزن والمضحك والمبكي معاً أن نقوم بتشييد أبنية ضخمة بمصاريف باهظة، وطرق معبدة بملايين الروبيات، (ولا ننسى الاختلاسات)، وصرف أموال هذه الامة المسكينة التي لم تشاهد معملا يصنع لها شيئاً من حاجاتها. وأني أحب أن أرى معملا لنسيج القطن بدلاً من دار حكومة . وأود أن ارى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي؟

فلم يأخذ مختصوه الذين وزع عليهم المذكرة بعين الاعتبار هذه الطروحات وهم: (جعفر العسكري)، و(ياسين الهاشمي)، و(نوري السعيد)، و(ناجي شوكت)، و(ناجي السويدي) التي عدوها نتاج نقص في الشجاعة على (العصرنة)، أو محاولة لخلق قطب سياسي في البلاد، يوازن الملك به نفوذهم. ولم يكن جميع من تولى أمر هذه الامة على اطلاع وفهم بمعنى هذه المذكرة، ومن اطلع عليها لم يدرك معناها ولم يعمل بها.

المصادر:

- عبد الرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988.
- غسان سلامة: المجتمع والدولة في المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 1987.
- باحثة وأكاديمية عراقية، صدر لها مؤخراً كتاب: المثقف والسلطة/ دار الشؤون الثقافية – بغداد 2021.

ريادة النقد الثقافي في العراق

د. علي إبراهيم

تعني كلمة "الثقافة " في المفهوم السائد، أن أصل الكلمة لغويا جاءت من الفعل "ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفةً: حَذَقَه. ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذِقٌ فَهِم، وأتبعوا فقالوا ثَقْفٌ لَقْفٌ ... وثَقُفَ الرجلُ ثَقافة" وسادت المعني في الأوساط المتعلمة من البلدان العربية. وعندما تقول هذا رجل مثقف أي أنه مطلع على تاريخ أمته ويعرف مستقبلها، حكيم، عليم، موسوعي. لا تفوته شاردة أو واردة. ولقد اصطدمت بكثير من الأصدقاء، عندما أتحدث عن مظاهر سيئة تسود المجتمع وأعدها ثقافة مجتمعية سيئة مثل (الكذب، السرقة، وضرب الزوجة والأطفال ضربا مبرحا، الرشا، رمي الأوساخ في الشوارع...) وغيرها وقلت أن أي واحدة من هذه الأمور، إذا سادت في المجتمع وتمارس بشكل يومي، تصبح ظاهرة ثقافية مرتبطة بذلك المجتمع إلى جانب الأمور النبيلة، مثل (الصدق، والأمانة، والعلاقات الإنسانية الحميمة داخل الأسرة واستهجان المظاهر السيئة من عادات وتقاليد طقوس الزواج والطلاق، الملبس، نوعية الطعام، وغيرها الكثير. وبمرور الزمن تتكون ثقافات للأقوام والشعوب، وهكذا بدأت تتكون ثقافات لدى كل شعب من الشعوب، ولا يمكن القول إن هناك ثقافة عالمية تسود العالم. ومن هنا جاءت فكرة احترام ثقافات الشعوب وتقاليدها ووقفت بعض الجمعيات والمؤسسات المدنية ضد الصهر الثقافي بالقوة وغيرها من الأساليب. وظهر عندنا والآخرين فكرة الاعتزاز بالثقافات المحلية التي تتنقل مع أصحابها أينما حلوا، وإن كانت بالية متخلفة... وإلى جانبها فكرة احترام ثقافات الشعوب. ففي أوربا تحترم المرأة المحجبة، على الرغم من أن الحجاب لا يدخل ضمن ثقافة تلك الشعوب. وقد لا تحترم المرأة السافرة عند شعوب أخرى لتعارضها مع ثقافة تلك البلدان... إذن الثقافة اصطلاحا: هي تنوع وتعدد لم يستقر ما دام هناك تطور نتيجة لحركة الواقع. "والثقافة: واحدة من البنى الفوقية التي تسهم

في تكوين الوعي الاجتماعي، وتعد الثقافة نظاما معرفيا يشتمل على إنتاج المعاني ومنتجات العقل يتجسد في نظام ورموز وإشارات الكلام ورموز لخزن المعلومات ونقلها". والثقافة مرتبطة بالأديان والأيديولوجيات والأعراف الاجتماعية والعشائرية. والمحرك الأساسي والمنظم لكل الثقافات، هو العامل الاقتصادي الذي لا ينمو بمعزل عن الديمقراطية و"تتضمن الدراسات الثقافية من حيث المبدأ الدراسات النظرية وتكتنفها، حيث تدرس الأدب بوصفه ممارسة ثقافية". ويبقى للثقافة: "مصطلح خلافي يحمل في طياته كثيرا من الدلالات والأبعاد، وبعضهم يضيقه ويحصره في الإنتاج الفكري والأدبي واللغوي والفني، وبعضهم يوسعه ليشمل الإنجاز الحضاري المادي والمعنوي لشعب من الشعوب وأمة من الأمم". وأنا مع التوسع ليشمل كل شيء، مهما كان صغيرا أو كبيرا شرط ارتباطه بالإنسان والمجتمع.

ومن صفات النقد الثقافي هو الانفتاح على ثقافة الآخر عبر النسق الغيري، كما ينبغي أن يكون منفتحا على الفلسفة بشقيها المادي والمثالي، لكي يتمكن من الوصول إلى الأنساق الثقافية المختلفة. "وما يميز النقد الثقافي هو تعديل أدواته النقدية تعديلا ثقافيا، وهذا لن يتأتى إذا لم يكن منفتحا على المجالات المعرفية والنقدية المجاورة، لهذا فهي في حاجة إلى توظيف معطيات السوسيولوجيا والتاريخ والمؤسساتية من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي".

ومن أقدم التعريفات لمصطلح الثقافة هو "ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والآراء والقدرات الأخرى، وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضوا في المجتمع"، وهناك تعريفات أخرى للثقافة بعضها اقترن بمفهوم الحضارة والمدنية:

"لا توجد في الحقيقة حدود فاصلة وحاسمة بين مفهوم الثقافة ومفهومي الحضارة والمدنية في اللغات الأوربية الحديثة، فمعانيها متقاربة وكثيراً ما تستخدم كلمة حضارة بمعنى مدنية أو ثقافة وبالعكس. وقد درج الكتّاب والمؤلفون على استخدام هذه المفاهيم الثلاثة كمترادفات، ولهذا تترجم cu-ture أحياناً بالثقافة أو الحضارة، بينما تترجم civilization بالمدنية". ونرى الكاتب المصري الكبير سلامة موسى يميز بين هذه المصطلحات وينسب لنفسه ريادة استخدام المصطلح اعتمادا على التراث العربي، إذ قال: "كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكّها بنفسه فإني انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظة (كلتور) الشائعة في الأدب الأوروبي، الثقافة هي المعارف والعلوم والآداب والفنون يتعلمها الناس ويتثقفون بها، وقد تحتوها الكتب ومع ذلك هي خاصة بالذهن". لكنها في الواقع هي خاصة بالواقع الاجتماعي، لأنها ليست شخصية وبهذا المعنى واستنادا الى تعريفات كثيرة يذكر عبد الأمير شمخي الشلاه التفسير

الآتي: ”الثقافة هي التي تمنح حضارة معينة شكلها ونكهتها... وهي السلوك الذي يتم به العمران والاستخلاص، وإقامة الحضارة والمدنية، من حيث هو انعكاس للفلسفة المعيشة للجماعة المنشئة للحضارة“.

وهناك فلسفة تلاقح الحضارات، أي أن المظاهر الناصعة والمنسجمة مع التطور والتنوير الفكري، وعدم الانغلاق، تنتقل إلى الشعوب الأخرى بسلاسة وبسلمية وبوعي وقناعة وبمرور الزمن، تضاف إلى ثقافات الشعوب. وتسعى كل شعوب الأرض إلى زرع بذور المثل العليا، وتصديرها وفقا لقاعدة فلسفية: إن الجديد يولد في رحم القديم، وينتج مولودا أكثر تطورا من القديم، والجديد يصبح قديما يلد جديدا آخر، وهكذا يتطور كل شيء نحو الرقي والانسجام مع الواقع بقانون تراكمي، يعمل بغض النظر عن إرادة الإنسان، الذي يكون دوره مساعدا، فيرتقي مع رقي الأشياء ومادتها المتحركة وسكونها النسبي ومنها الثقافة، أو أن يكون عقبة فتتجاوزه طبيعة الأشياء الداخلية وقوانينها.

بهذه المقدمة نفهم الثقافة، ولا بد من فهم النسق ـ وجمعه أنساقاً ـ ضمن النقد الثقافي، ولنبدأ بالمصطلح لغة: فهو مأخوذ من الفعل ”نَسَقَ ـُ نَسقا الدُرَّ ونحوَهُ: نظمهُ و- الكلامَ: عطف بعضهُ على بعض ورتّبهُ. نَسَّقَ الشيءَ: نظمهُ... حروف النسق: حروف العطف. النِسيق ما كان منسوقاً منظّماً“. والمعنى اللغوي ليس بعيدا عن النسق اصطلاحا: ويعني ”نظاماً ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحداً، تقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها، وكان دي سوسير يعني بالنسق شيئاً قريباً جداً من مفهوم البنية - ويمكن القول إجمالا إن الاهتمام بمفهوم ”النسق“ راجع إلى تحول بؤرة اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم ”الذات“ أو ”الوعي الفردي“.

ولكي نفهم مفهوم النسق الثقافي كونه نظاماً بنيوياً عضوياً، نرجع إلى تعريف النسق الثقافي فهو ”تلك العناصر المترابطة والمتفاعلة والمتمايزة التي تخص المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون وكل المقدمات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان في مجتمع معين، فمفهوم النسق الثقافي طور تركيبي لمفهومي النسق والثقافي“. وهذا ما أشرنا له في مستهل هذه الدراسة. وعادة تولد الأنساق مع النص من دون تدخل من الكاتب، وربما هي ”ليست في وعي الكاتب ولا القارئ، جاءت عن طريق تراكمات وتواترات فأصبحت نسقا خطابيا، وهو نسق مركزي في إطار المقاربة الثقافية“.

والأنساق الثقافية كثيرة ومتنوعة، تولد في كل نص قصصي أو روائي أو شعري، وتأتي منسجمة مع أنساق الحدث والشخصيات، قد يعلم بها كاتبها، وقد لا يعلم. قد تكون مضمرة أو واعية. وهناك أنساق ظاهرة تتستر أو تخفي أنساق مخفية. وهنا يأتي دور النقد الثقافي الذي بأدواته يستطيع أن يكشف تلك الأنساق بشروطها الأربعة

التي ذكرها د. عبد الله الغذّامي، لا داعي لأن نعيد كتابتها حرفيا في هذا البحث المقتضب، ولكن ينبغي التأكيد على الشرط الأول، وهو وجود نصين في آن ونص واحد. والآخر أن يكون أحدهما مضمرا مقابل غيره علنيا. أما الشرطان الآخران ففيهما وجهة نظر إذ ليس من الممكن أن يكون النص جماهيريا، وخاصة في بلداننا العربية التي تقلصت فيها القراءة وصارت نخبوية. انحسرت حتى بين مثقفينا الذين توزعت مواهبهم واهتماماتهم، وصار من الصعب أن يحظى بقراءة واسعة اجتماعيا وثقافيا. وهذه فحوى الشرط الرابع، وهناك تقارب بالمعنى بين الثالث والرابع.

ولكن كل هذه الأنساق وغيرها والتي يتم اكتشافها في النصوص الإبداعية المختلفة، تظهر بحالتين: أنساق مضمرة تقابلها أنساق ظاهرة "وكل نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء لتغرس ما هو غير جمالي في الثقافة"، وربما لتغرس ما هو جمالي أيضا، لكن بطريقة غير مباشرة، ولكنها تصل إلى المتلقي، والاعمام يتضمن التخصيص، لأن المتلقي أصبح عنصراً مهماً من عناصر النص.

ومن الغريب ما كتبه د. عبد الله الغذّامي: "إن العلم متى ما تشبع تشبعا يبلغه حد النضج التام، فإنه يصبح مهددا ببلوغ سنه التقاعدي. ولا شك أن العلوم تتقاعد مثلما يتقاعد البشر، غير أن الفارق هو: أن العلم لا يدرك سنه التقاعدي، ولا يراه وبحاجة إلى من يكشف له عن هذه اللحظة الحرجة في تاريخ المعرفة". ولا يمكن لأي علم من العلوم إحالته على التقاعد مثلا.. فهل تقاعدت علوم الفيزياء أو الكيمياء أو الهندسة أو الطب أو علم من العلوم الإنسانية وغيرها، بل هي علوم متطورة، وهي في تجدد، وكل واحد منها يمثل غصنا في شجرة الفلسفة الخالدة، فهذا الرأي يجانب الحقيقة العلمية والفلسفية، وقد ظهرت علوم جديدة أضيفت إلى تلك الشجرة، وقد تظهر نظريات جديدة تولد في رحم القديمة وتطورها، وتخرج منهما نظرية جديدة أكثر تطورا من النظريتين وهكذا يجري التطور والتقدم في المجال العلمي، وفي كل المجالات. ولكن من حقّه أن يشرعن شرعية الجديد وقدم القديم. الواقع والحياة والجمهور فقط من حقهم أن يقبلوا بهذا الجديد، أو أن يرفضوه جملة وتفصيلا.

لم يكتف د. الغذّامي بهذا القول العائم وإنما حدد رأيه بوضوح: "أرى أن النقد الأدبي كما نعهده، وبمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حد النضج أو سن اليأس، حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالميا، وعربيا". وبناء على ما يأتيه من أسئلة يضع مشروعه (النقد الثقافي) بديلا، ويعلن عن موت (النقد الأدبي).

ولا نعلم كيف ساوى د. الغذامي بين زمن النضج وسن اليأس المتناقضين، ذلك أن النقد الثقافي ليس مشروعه الشخصي إنما هو مشروع ولد في الغرب على يد مجموعة النقد الثقافي المعاصر في المدرسة الأنكلو/ أمريكية

وهم كل من: تيري إيغلتن، فريدريك جيمسون وإدوارد سعيد. وحتى هؤلاء ساروا على طريق رواد آخرين سبقوهم في الريادة، وقد أكد هذه الحقيقة الناقد العراقي خالد علي ياس فذكر: "ولعلنا لا نغادر الصواب إذا عددنا النّاقد والرّوائي والسّياسي رايموند وليامز، ممثلا ورائدا لحقل الدّراسات الثّقافية والنّقد الثّقافي، وتتمظهر البداية المهمة والمبكرة له مع كتابه «الثقافة والمجتمع» (1956)".

وعلى مستوى المنطقة العربية تعد البدايات التي قدمها د. علي الوردي في كتابه أسطورة الأدب الرفيع بدايات جنينية في المنهج الثقافي من خلال نقده المنجز الأدبي العربي، حيث أنكر عليه الرفعة...

من جهة أتفق مع الدكتور عبد النبي اصطيف الذي يختلف مع د. عبد الله الغذامي في أن النقد الثقافي ليس بالضرورة أن يكون بديلا للنقد الأدبي، لأن الأدب ينتمي إلى مدارس كثيرة، والنقد بشكل عام يشتغل على كل المدارس، وعلى الرغم من الاتجاه التكاملي، تجاوزته مدارس عديدة، إلا أني ما زلت أرى أن النص الواحد قد يتوسل أكثر من منهج لدراسته. و"المجتمعات الغربية المتقدمة لم تُحل نقدها الأدبي على التقاعد، بل عمدت إلى تطويره وتوسيع آفاق تفاعله مع علوم العصر ومعارفه وفنونه، وهي تستعين بما يسمى "النقد الثقافي" لديها ليؤدي الوظائف الخاصة به... بعبارة أخرى إن لكل من "النقد الأدبي" و"النقد الثقافي" وظائف خاصة به وقد يستعين أحدهما بأدوات الآخر التحليلية".

الدراسات الثقافية لم تتوقف عند حد معين، بل أنها تناولت النظريات الفلسفية والأدبية في النقد الثقافي وكذلك النظرية الماركسية والنظريات العلمية والاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية، فضلا عن المعلومات الإعلامية، والنسوية، البعد النفسي، العلامات ونظرية الأدب، علم الاجتماع واستخداماته الواسعة، التي جعلت بعض العلماء يدرسون الأدب، ومن بينهم الراحل د. علي الوردي.

"هذا المنظور الاجتماعي يحيلنا في دراسات الوردي على سلسلة من الثنائيات، أهمها: البداوة/ الحضارة، التقليد/ التجديد، القبيلة/ الدولة، السلطان/ الشعب، الفرد/ الجماعة، الكذب/ الصدق، الشكل/ المحتوى... إلخ وأحد قطبي هذه الثنائية سالب وذو مرتبة سفلى أو أقل أهمية في ضوء التراتبات القيمية المعتمدة لدى الوردي".

لقد قرأت منجز الدكتور على الوردي، ورأيت أن المنهج الثقافي واضح لديه على الرغم أنه لم يطلق عليه هذا المسمى، فيبدو بينا حتى من عناوين كتبه: (وعاظ السلاطين، أسطورة الأدب الرفيع، البداوة والحضارة، مهزلة العقل البشري، الأحلام بين العلم والعقيدة ...).

إن من أبرز نقاط التقارب بين الغذّامي والوردي والقدم يحسب لصالح صاحبه في موقفه من اللغة والبلاغة، وكما أسلفنا في هذا البحث أن الغذّامي قد حور في المصطلحات البلاغية وحولها إلى مفاهيم خاصة بالنقد الثقافي مثل:

المجاز الكلي بدلا من المجاز البلاغي، التورية الثقافية بدلا من التورية البلاغية، نوع الدلالة إلى الدلالة النسقية. وأضاف الغذّامي عنصر الوظيفة النسقية إلى عناصر الرسالة التي تتكون من :(الشفرة، السياق، المرسل، الرسالة، المرسل إليه، أداة الاتصال).

أما الدكتور علي الوردي فكان يرى أن شخصية الشاعر العربي شخصية مزدوجة. ودعا إلى تيسير وتبسيط لغة الكتابة. ولم يستسغ علم البلاغة والبديع والبيان ودعوته للغة المبسطة لا تعني العامية بل لغة يفهمها كل العرب، وهو يرى أن الأدب الحي خالد رغم أنه لا يعرف العلوم العويصة التي ذكرناها.

"يقول علم الاجتماع: إننا إذا أردنا أن نعلل ظاهرة اجتماعية فعلينا أن ندرس المجتمع الذي نشأت فيه، إذ لا بد أن نجد في ذلك المجتمع السبب الخفي الذي أدى إلى ظهور تلك الظاهرة على وجه من الوجوه".

من خلال هذا نفهم أن د. علي الوردي يعني بـ(السبب الخفي) أي (النسق المضمر) وبالتأكيد أن القصة والرواية وبقية الأنواع الفنية في الثقافة والأدب تصور مجتمعات معينة واقعية أو متخيلة وما على الناقد المبدع إلا الوصول إلى الأنساق الثقافية وخباياها المضمرة في تلك النصوص.

الاستنتاجات:

إن الظاهرة الجديدة لا يمكن أن تخلق من العدم إنما تولد في رحم ظاهرة أو ظواهر سبقتها تأخذ منها وتتطور لتصبح ظاهرة جديدة، تنفي ما سبقتها كما تقول الفلسفة.

وهذا لا يعني أن الجديد يأتي من الغيب وتعلن عن موت الظاهرة التي سبقتها إنما القديمة عندما لا يمكنها العيش ضمن الواقع الجديد ستضمحل تدريجيا. أما إذا جاءت الجديدة بشكل مفتعل، وغير متطابقة مع الواقع فستكون مجرد حذلقة، لا فائدة منها، وليس من مقوماتها التطور فتنتهي.

النقد الثقافي ظهر في الغرب على يد رائده رايموند وليلمامز، عندما أصدر كتابه (الثقافة والمجتمع). وربما ليس صدفة أن يكون رائده في العراق الباحث الاجتماعي الدكتور علي الوردي، عندما أصدر كتابه أسطورة الأدب الرفيع عام 1957 أي بعد رايموند وليلمامز بسنة واحدة.

تاريخ الخوف

د.فاضل السوداني/ الدنمارك – خاص

يضعنا الباحث الأكاديمي د.فالح مهدي مباشرةً أمام مرايا عدة لإكتشاف ذواتنا المتضامنة مع الخوف في أزمنته المختلفة. هذا الخوف الذي يشكل رعباً يؤدي الى الموت او هو ذلك الشعور حتى الموت الذي يسبب الخوف وذلك من خلال كتابه البحثي المتميز بأهميته الفكرية ومنذ صفحاته الأولى، انه كتاب (تاريخ الخوف ــ نقد المشاعر في الحيز الدائري)* الذي يعلن لنا فيه عن مجانية الرعب بل القتل المجاني المبرر منطقياً في عصرنا. لقد قُسم الكتاب الى 6 فصول على الشكل الاتي: رحلة في الزمان، الذاكرة والزمن، الخوف الأعظم الموت اولاً، الخوف الأكبر الجحيم ثانياً، دور الخطيئة في صناعة الخوف، الخروج من الخوف. وفي كل فصل من هذه الفصول هناك الكثير من العناوين المهمة التي تقربنا من فهم الموضوعات بل المشاكل الأساسية لحياتنا المهددة باللامبالاة والخوف ورعب التعصب والعنف والفوضى ومن ثم الجحيم في العالم الآخر.

في الصفحات الأولى يُدخلنا الباحث في جوهر الخوف الذي أصبح ظاهرة يتعايش الإنسان معها، وهو مرعوب، ما يدفعه هذا الى طرح السؤال الأكثر أهمية: ماهو الخوف؟

نكتشف بأنه يتعامل مع هذه الظاهرة بوصفها أبدية تلاحق الإنسان منذ طفولة مجتمعاته الأولى وهي تحيط بحياته وتشكل جزءاً مهماً من قلقه الحضاري. ولكن الباحث عندما يحاول أن يعرّف الخوف يرفض جميع القواميس، وخاصة الغربية منها، لأنها تتناول ظاهرية الخوف وبداياته منذ نشوء البشرية وعصر الصيد وحتى الآن، انطلاقا من أن الشعوب وحتى هذه اللحظة وبسبب الخوف هذا كانت ومازالت تؤمن بالمنقذ، وعلى هذا الأساس وحتى يسلك معبراً ومنهجاً بعيداً عن المألوف الجامد اعتمد على موضوعيته وقدرته على التفلسف، التي دفعته الى مناقشة ثلاث مشكلات، شكلت في جوهرها مشكلة واحدة، يمكن تلخيصها بأنها مشكلة قلق الكائن المعاصر، والتي تشكل جوهر تفكيره. وهذه المشكلات الثلاث هي: (الدين، الأيديولوجيا، والخوف).

فهل الأيديولوجيا هي التي تشكل جوهر

كل دين أم بالعكس؟ أو بعبارة أخرى هل هي التي تؤسس الخوف للانسان ام أن جوهر الخوف ومسبباته يبرر الأيديولوجيا الدينية؟

ولكنه يكشف لنا بأن الأيديولوجيا التي قامت على محاربة الدين، تحولت الى أيديولوجيا للخوف، بحيث أصبحت من أكثر الأنظمة إرهاباً في العالم. وبالتأكيد فإن الباحث هنا يقصد أيديولوجيا النظام الشمولي الذي لم يتمكن من الصمود طويلا أمام شمس الحقيقة.

وبهذا فإن المؤلف يطلعنا على قضية مهمة جداً، وهي كيفية فهم السياسي، صاحب الأيديولوجيا للدين والمظاهر الروحية الأخرى للإنسان.

فاذا كان كل ما كتبه لينين وماركس وغيرهما يعد "طرداً لأيديولوجيا الدين" فهل يمكن أن تحل محلها آيديولوجيا أخرى قائمة على أوهام المستقبل؟ إذن كيف يمكننا أن نفهم علاقة الدين بالأيديولوجيا بوصفهما يستخدمان نفس القاعدة للانتشار، وهي (الخوف)؟ على إعتبار أن نقد الدين يتمثل: (بفهم شروط قيامه وآليات فعله ومدوناته)، وهذا ما يؤكده الباحث.

ان عدم فهم العلاقة بين الآيديولوجيا والدين هو الذي يؤدي الى صناعة الرعب والذعر في نفوس المؤمنين وهذا يعني ان الآيديولوجيا الدينية المتمثلة بالفقه وآليات فعله والغرض من قيامه، تؤكد أن أهدافه مرتبطة جذريا بالدين وهي التي تجوهر ترابطها مع ايديولوجيا السياسي، مما يشكل لها دوراً مهماً في صناعة الخوف. ويشكل كل هذا أحد الأسباب الرئيسية في بلاد الخوف العربية، التي يبدأ خوف الإنسان فيها من (العائلة، المعتقد الايماني، والتقليد، ومن المجتمع، او المدرسة.. واخيراً من السلطة الإستبدادية الشرقية).

إنّ الكتابة عن أنواع الخوف وتجلياته هذه ضرورة حتمية تدفعنا لفهم مقولاته من خلال تبيان العلاقة الحقيقية بين الخوف والدين مما يؤدي الى خلق الشكل الذي تعيشه الجماعة الإنسانية الخاضعة للخرافة وخاصة في الشرق، وعلينا ان نخرج من سطوة الخوف كما خرجت اوروبا في القرن التاسع عشر، وحتى يعي الإنسان الشرقي بالذات تاريخ الخوف (الممنهج الذي رسم مسيرة المجتمعات وتحكم بطرق أداء وظائفها، وإعادة بناء سلوكياتها على ضوء المنهج الذي عملت عليه الآيديولوجيا الدينية والأسطورية منذ مئات السنين)، عليه أن يعرف أن جوهر اي آيديولوجيا سواء كانت دينية ام إسطورية ام فكرية لا بد أن ترتبط بالخوف والدين والموت، وهذا الأخير هو حقيقة لا بد من البحث في جوهرها.

وحتى نستطيع فهم هذا يدعونا الباحث الى القيام برحلة خارج الخوف على طول مسيرة الإنسان، التي يمكن ان تكون وكأنها منهج جديد للمفاهيم الفكرية والفلسفية للخوف.

ومن خلال هذه الرحلة نواجه أعقد المشاكل وهي العلاقة بين "الموت والزمن" وكيفية فهمها سواء في العالم القديم ام في عالمنا الآن.

قديماً يعد الزمن هو الذي ادى الى ثقافة الموت، يبدأ بنقطة ما لينتهي بنقطة اخرى، ولكن هذا المفهوم تغّير في القرن 16 الميلادي، حيث أصبح زمناً افقياً ليتطور أكثر في القرن 18، ما أدى الى تطور في

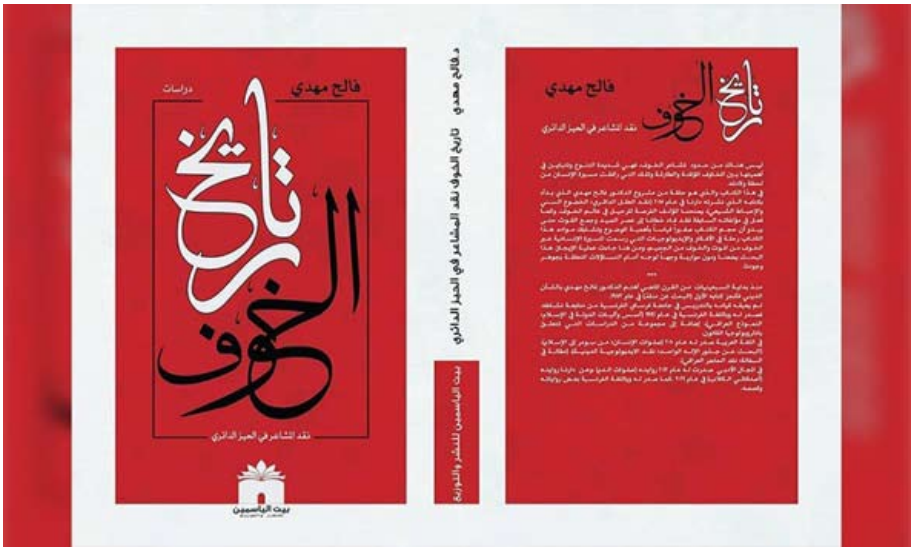

جميع مجالات الحياة؛ فاذا كان مفهوم الزمن محدداً فإنه أصبح هائلاً في القرن 19. وبعد ذلك أصبح زمناً نسبياً حسب مفاهيم اينشتاين حول الزمان والمكان والفضاء. انه نسبي لأن النظام الشمسي يتعلق بكوكبنا ولا يمكن اعمامه. ويؤكد د.فالح مهدي أنه يبحث عن ذلك الزمن الذي رافق البشرية منذ آلاف السنين فهو الزمن الموضوعي وليس الزمن الذاتي الوجودي.

وفي الرحلة هذه عبر تاريخ الزمن، يصل بنا الى تاريخ الموت المسبب للخوف، على الرغم من أهميتها لكن الباحث أفرد صفحات عديدة لمعالجة المشكلة الأساس وهي (مشكلة الزمن) وعلاقته بشتى الحضارات والأديان منذ البابلية وحتى الآن. فالزمن في مختلف الحضارات له مفهومه الفلسفي الخاص، فضلاً عن الزمن الموضوعي وكذلك الزمن الذاتي (الوجودي)، يواجهنا مفهوم الزمن الأيديولوجي الذي ينقسم الى قسمين:

الزمن السهمي الذي ينطلق من نقطة وينتهي في أخرى، والذي يمكن ان نصادفه عند السومريين والاكديين، أما الزمن الآخر فهو الزمن الدائري، والذي وجد في حضارات الهند والصين واليونان وغيرها وعادة يجري دائريا كما العجلة.. لكن اذا حاولنا ان نفهم الزمان على حقيقته، سنجد أن مفهوم الزمن متشعب وله مفاهيمه المختلفة. ففي الحضارة الإغريقية يدل على (الماضي، الحاضر، والمستقبل) وله دلالة على الحركة او هو في مفاهيم اخرى يدل على "الحدث"، كما أن له مدلولات أخرى في مختلف مراحل التطور البشري.

ولكن الشيء المهم هو قدرة الحضارات القديمة السومرية والفرعونية والبابلية والأكدية وغيرها على حساب الزمن وتفسيره في مراحل مبكرة من طفولة الإنسان، وهذا ما اكدته الرقم الطينية من خلال الكتابة المسمارية والهيروغليفية، والتي أرشدتنا الى معرفة كيف تمكن السومريون والمصريون القدماء من فهمهم

للزمن، وبالتالي تقسيم الزمن الى ساعات وأشهر وغيرها، والتي ما زلنا نعتمد الكثير منها في الوقت الحاضر.

ويتعمق المؤلف بعدة مفاهيم أخرى للزمن كالزمن التوحيدي والزمن الهندوسي وكذلك زمن النيرفانا والزمن الإلهي والزمن المقدس او مفهوم الزمن في حضارة المايا، وهي مفاهيم مهمة لدراسة الزمن وقدرته على ان يُشيخ الأشياء او يفنيها لأن كل الأشياء زائلة حيث يولد الموت مع الحياة لكن يبقى صداها او ظلالها الوجودية.

فيما يعد الفصل الثاني واحداً من أهم الفصول، لأنه يعالج موضوعاً، فائق الأهمية هو "الذاكرة والزمن"، والذي يتوسع الباحث فيه بمفاهيم مثل (الذاكرة والمقدس، والذاكرة والمعرفة، الذاكرة والموت، والمخيلة وفعل التذكر)، والشيء المهم هنا هو أنه يقلقنا عندما يضعنا أمام هذين العدوين أي "الذاكرة وفنائها" بعد موت الإنسان و"الزمن وأبديته" وقدرته على تلف الأشياء والكائنات.

ولكن اذا كانت الذاكرة ليس لها دور في صناعة الأوهام (كما ذكر الباحث بأنه درسها في كتاب آخر هو "البحث عن جذور الاله الواحد" نقد الآيديولوجية الدينية)، فهل يكون لها دورها في صناعة الخوف؟ ومثل هذا السؤال فرض على المؤلف، تناول الذاكرة الجماعية المؤدلجة، وليس الذاكرة الفردية.

وبما أن الذاكرة هي المقدرة الذهنية لخزن وتذكر ما هو قريب وبعيد، كما أنها تعد الرغبة النفسية باستحضار الماضي. ولهذا فإنه يتوصل الى تعريف شامل للذاكرة الجماعية وهو: أنها مجموعة من التمثلات لماضٍ مشترك لمجموعةٍ من المجموعات السكانيةً، مستندة الى مفهوم الهوية المشتركة لتلك الجماعة. وبالتأكيد فإن التراكم المعرفي والحضاري لا بد أن يشكل ذاكرة جماعية تؤثر على الذاكرة الفردية، ولهذا فكل إنسان له ماضي وحاضر مستقبل، يعيشه عن طريق مفهوم التذكير الذي يتعلمه من آبائه وأجداده وبيئته. وبالتأكيد فإن هذا له علاقة حتى بمفهوم الإنسان في مقدساته، ومن ثم علاقته بأهم مشكلة، وهي الموت التي خلقت تمثلاتها التي تم التعبير عنها عند مواجهة الموت بالاحتفاء بمن مات من خلال بناء القبور. فإذا كانت بعض الحضارات قد تركت موتاها في العراء او رميهم في البحر، وفي أماكن أخرى دون أن يعني هذا التخلص ممن مات وانما لمساعدة روح الميت للتخلص من الجسد او ترك للبحر مهمة الاهتمام بالميت، لكن بتأثير المقدس فإن الإنسان قام بتجهيز من مات وتهيئته للولوج الى العالم الآخر بكل قدسية من خلال إقامة المآتم والحداد الذي يستغرق عدة أيام.

فاذا كان الموت يلزمنا بإعادة التفكير بالإنسان ومصيره فأنه أيضا يدعونا للتفكير في الذاكرة التي تستحضر طقوسها عن موت الحضارات القديمة وتأثيرها على ذاكرة الإنسان في حاضرنا.

ولكن ما هي العلاقة وما هو تأثير الذاكرة على المعرفة الانسانية وبالعكس؟ هذه الذاكرة التي توّلد المعرفة وفي الوقت ذاته ترعب الإنسان، تغذي وعيه بمفهوم الموت، ولهذا فإن الزمن الماضي – مع أنه ميت – إلا أن الذاكرة تؤرق الإنسان باستعادته دائما لدرجة انه يؤثر على حاضر

الإنسان، لأن الذاكرة تستند الى التاريخ، بل هي مرتبطة به وخاصة عندما نتحدث عما يشغل ذاكرتنا معرفيا، فكل ما نعرفه تاريخياً او نتعلمه بالقراءة لا بد ان نتذكره، وبالتالي نتعاطف معه، وكأنه واقع كما هو الحال مع تعاطفنا مع (جلجامش) في مصابه بفقدان (انكيدو)، او نتعاطف مع (الملك لير) ضد نكران ابنتيه، وهي مواقف وصور حفظها لنا التاريخ، اذ ليس هناك ذاكرة من دون تاريخ، ولكن الماضي الذي تصنعه الذاكرة الجماعية لا يموت، والذاكرة تؤدي بنا الى تذكر الومضات المشرقة في تاريخ كل البشرية (كما هي آثار الحضارات القديمة السومرية والبابلية والاغريقية والفرعونية مثلا)، وبالتأكيد فإن العلاقة بين الذاكرة والمعرفة بشتى أنواعها لا بد أن تأخذنا في متاهة أخرى، هي علاقة "الذاكرة والموت"، وهذا الأخير يتدفق في الذاكرة البشرية كجريان نهر الحياة، فيهذي الإنسان أمام ذاكرة الموت نفسه كقصائد شعر، هدفها استجلاء جبروته على أمل أن يكون سقفاً يحمينا من اللص القدري (الموت).

وبما ان الذاكرة الجماعية ذاكرة انتقائية لا يمكنها أن تبقى على قيد الحياة دون الفعل الآيديولوجي، وكذلك فإن الذاكرة هذه لها خزين عظيم، تتمكن من تحريكه وإخراجه من توابيت الماضي لكي يجد تربة صالحة لينمو ويزدهر.

ومع أن موضوع الموت من أهم الأحاسيس في الماضي والحاضر الا أنه يعد الخوف الأكبر لدى الانسان لهذا فانه شكل القلق الميتافيزيقي الاول للإنسانية، وعلى الرغم من أن البنية الفكرية المتعلقة بالموت قد تعرضت للإنهيار بفعل التقدم الحضاري في الغرب، الا ان الحياة ما بعد الموت لا تشغل الإنسان الغربي بل أن شاغله هو الموت في الحياة، مع ذلك فان هناك ثقافة ووعي ازاء مشكلة الموت.

ومنذ البدء نتبين ان في مختلف الحضارات فكّر الإنسان بوسائل وطقوس، ترتبط بالموت وخاصة بناء القبور وطقوس الحزن الفردي والجماعي، وقد وصلتنا الكثير من هذه طقوس تلك الحضارات، اضافة الى الطقوس المعاصرة للدفن، مع أنها تعد أقل وقعاً وممارسة مقارنة بتلك في الحضارات القديمة.

وفي الكتابة يقدم لنا المؤلف اشكال طقوس الموت والدفن المتعددة في مختلف الحضارات القديمة كالرافدينية والمصرية او في الديانة الهندوسية او عند الايرانيين القدماء، مع أنها مختلفة الا أنها مشتركة في ما بينها لأنها طقوس متناقلة من حضارة او من ديانة الى اخرى.

وبالتأكيد فإن الموت شكل جوهر الخوف بالنسبة للإنسان، لكن الجحيم وعقوبة الإنسان تشكل الخوف الأكبر بالنسبة له. ويتشكل الخوف هنا من شقين، الموت اولاً، ثم المصير ما بعد الموت، وهذا ما يشكل الوعي الجحيمي للانسان، سواء وهو في الحياة ام بعد ذلك وهو ميت.

وقد أعطانا الباحث فرصة للإطلاع على مفهوم الموت، وما بعده الجحيم عندما عدّهما جزءاً من العقل الدائري عند مختلف الحضارات والأديان وخاصة الإسلام والمسيحية؛ ففيهما تناول كبار رجال الدين هذا الموضوع في الكثير من الدراسات. أما الجنة فهي ملك المؤمن، لكن عذاب الجحيم هو الذي يشكل الخوف والقلق الذي يعانيه

الإنسان في مخياله الآخروي.

فيما يؤمن الإنسان المسيحي منذ القرون الوسطى بأنه لا يدخل عالم العدم بعد موته، وإنما خوفه من الحساب والعذاب حتى لا يُرمى في النار الأبدية. ولهذا فان الإنسان يؤمن بالجنة والنار والعقاب والثواب ويؤمن أيضاً انه سيلتقي بالأحبة الذين أحبهم في الحياة، وبالتأكيد فإن هذا يمنحه اليقين والمخدر الديني مما يشجعه على الإيمان ببيوت الديانة (الكنائس، والكاتدرائية) حتى يصل الى الحالة الإيمانية التي يدخل عن طريقها الى الجنة ولا يهلك في الجحيم. وبالتأكيد فمن أجل الوصول الى هذا فانه يعيش حالة من الرعب والقلق في حياته، وعليه أن يضمن جنته وذلك بذهابه الى الصلاة في الكنيسة والإعتراف بذنوبه. لان الله في كل الديانات التوحيدية سينتقم من الذين لا يطيعونه، ويشذوا عن طريقه. وبالتأكيد فإن الكنائس والكاتدرائيات حتى تعمق الإيمان بالخوف من الله ويوم الحساب الجحيمي، فإنها ممتلئة بالرسوم واللوحات التي تصور وتضخم هذا المفهوم لتخويف الإنسان المسكين الذي لا حول له ولا قوة، إضافة الى أن هذه الرسوم تقوم بإعادة التمثيل عن طريق المتخيل، فتظهر هذه اللوحات غضب النار على نحو متواتر حدّ الهوس، والجحيم على شكل فم مرعب مفتوح دائما، يقوم بالتهام الكفرة والملحدين، ومن لم يسر على طريق الرب، لأن العقاب أبدي وأن الله لن يسامح من خرج على طاعته. فتعددت الشعوذات والمشعوذين لتعميق رعب الإنسان وخاصة في القرون الوسطى، لكن بالتأكيد هناك من ينقذ هذا الإنسان، وهو معروف سواء كان في المسيحية ام الإسلام.

ومن الالتفاتات الفلسفية والصوفية التي قدمها د. فالح مهدي في كتابه هذا هو دراسته لتجلي روح الإنسان بعد الموت في حيزها الرمزي، وهي بين عالم الظلمات وعالم النور اللذين يشكلان عالمين متقابلين من حيث الوظائف. فعالم الظلمات هو عالم محاكمة الروح، أما لإنقاذها وسعادتها، او لرميها في الجحيم الذي يتكون من سبع طبقات للتعذيب. وتمعن المخيلة الجهنمية لتّصور الجحيم والجنة او الظلمات والنور بأن هناك حيزاً ثامناً للتعذيب وهو يتجاوز كل أشكال التوحش. وبالتأكيد فإن الحيز التاسع هو الجحيم السفلي لمن تمت ادانتهم، أما عالم النور فهو عالم المروج والحقول النيرة التي تستقبل المؤمنين. وفي الحيز المتخيل لما بعد الموت هناك صعود للمؤمنين الى الجنة، ونزول للكفار الى الجحيم. وما يؤكده المؤلف بأن (الحيز المتخيل لما بعد الموت تمت صياغته على ضوء الحيز الأرضي، ومن إنتاج تلك الثقافة).

لهذا فأنه يأخذنا في رحلة ممتعة في مكونات المخيال لما بعد الموت سواء في المسيحية او الإسلام في عوالم الظلام والنور، موثقا آراءه بآيات من القرآن الكريم، ومن الإنجيل. وفيه يطرح لنا تصورهما عن المسكن الأبدي للانسان بعد موته، مؤشراً على تجليات الروح ومصيرها، ومشيراً الى سرديات القرون الوسطى في وصف الصراع بين الملائكة والشياطين من أجل امتلاك الروح التي ستذهب الى مسكنها الأبدي، سواء كان الجحيم ام الجنة وكذلك التصور في حيز المخيال الإسلامي، وما جاء في القرآن حول يوم الحساب والنار

الأبدية وعذابها، معتمداً على المصادر الإسلامية، وأهمها القرآن منذ ان ينفخ في الصور، لقيام الموتى في ارض المحشر أمام الله، وأحوالهم يوم القيامة، سواء كانوا عصاة، مؤمنين ام أتقياء، ولكن لكل نبي هناك حيز الشفاعة لأمته.

إن رحلة الموت في الإسلام شاقة وعسيرة، وكما هو الحال في المسيحية فان هناك ذنوبا لا تغتفر في التصور الإسلامي، وهي ذنوب متعددة، يعاقب عليها الإنسان منها الزنى وأكل الربا والنميمة وغيرها من عذابات تستند على قول الإنسان او أفعاله وحتى زلاته البسيطة، لكن الله غفور رحيم، وفي ذات الوقت شديد العقاب، بمعنى ان الإنسان محاصر في حيز جهنمي، سواء كان في حياته او ما بعد موته.

في ''كتاب الخوف'' هناك مناقشات بوعي أكاديمي وبحث رصين وغير مفتعل للكثير من المواضيع المهمة ومنها مفهوم الخطيئة في الأديان التوحيدية بروح فلسفية ووعي معاصر ليضعنا أمام حقائق لها أهمية قصوى في الخروج من الضبابية التي تغشى البصيرة بفعل تأثير الخرافة واليقينيات.

فالخطيئة الأولى قام بها آدم أما حواء فإنها ساهمت في دفعه الى أكل الثمرة المحرمة، وحواء (رمز الأنثى) مصدراً للخطيئة حسب ثقافة الحيز الدائري للمفهوم العام، وبالتأكيد فإن الخوف من العقاب في يوم القيامة فهو الذي يقلق الإنسان وملاحقته بالخطيئة الأولى التي ارتكبها آدم عندما عصى ربه، لذا فإن عذاب القيامة لابد أن تكون له علاقة بالخطيئة التي تلاحقه فهو في حياته يعيش الكوارث والمصائب الكبيرة بسبب الخطيئة الاولى.

وفي لاهوت الخطيئة يتكشف لنا كما يؤكد الباحث حقيقة الآيديولوجية الدينية في القرون الوسطى التي اكدت على بناء الخوف حسب الخطيئة الأساسية المتمثلة بتهور آدم، ولهذا فإن هذه الآيديولوجية تمكنت من وضع الخطيئة في مكانها الصحيح، لكن صناعة الخوف ومفهوم الخطيئة فقد جاءا من العبرية حيث تم تقديم خطيئة آدم بوصفها عصياناً وتمرداً مقصوداً على الأوامر الإلهية، ومن هنا أصبح الإنسان مسؤولاً عن كل ما يقوم به فدخلت الخطيئة العالم التوحيدي، لكن الاعتراف امام القس في الكنيسة، يمثل إحدى الوسائل المهمة التي لجأت لها المسيحية من أجل التخلص من الخطيئة.

وضمن التحليل الفلسفي الذي يقوم به كتاب ''تاريخ الخوف'' نرى هناك استعراضا لمفهوم الخطيئة في الفلسفة المعاصرة التي تبتعد عن أسس الفلسفة الأخلاقية للعالم القديم.

فرواد الحداثة والعلمانية من المفكرين لم يغفلوا الخطيئة، فجان جاك روسو يعد ولادة الخطيئة مع الإنسان الإجتماعي اي عندما غلّب انانيته ومصالحه على المصلحة العامة. والفيلسوف كانت لا يعترف بالخطيئة الا عند ممارسة الحرية. اما ماركس فعدّها شراً بدائياً كان ولم يزل. وفرويد عدّ الخطيئة الأولى هي قتل الأب. وسارتر وكامي وجدا أن الإنسان سجين تراث يضعه في تضاد مع الذات.

فاذا كان فلاسفة العالم القديم طرحوا السؤال المهم الذي يبحث في مصير الإنسان وهو:

ماهي الغاية النهائية للكائن البشري؟ ماذا حقق في مسيرة حياته؟

نحن نسأل عن كيفية الخلاص والانعتاق من شبكة الرعب التي تُكبلنا بها شروط الأيديولوجيا الدينية التي تجعل من الإنسان وكأنه العدو الأساس وأن الله في حالة أزلية من الانتقام من الإنسان، مما يشكل خوفه وقلقه الأبدي.

اذن، هل هناك أمل في الخروج من الخوف؟ هذا السؤال شكل الفصل الأخير في كتاب "تاريخ الخوف" وهو السؤال الأكثر أهمية لأنه يبدو لنا وكأن هناك بصيصا من النور في نفق الانسان المظلم. فعن طريق هذا السؤال يصل المؤلف الى نقد "العقل الدائري"، فيؤكد أن تاريخ الخوف هو تاريخ الدين بمعناه الواسع، فالإنسان منذ مائة الف سنة، بدأ تأمل وجوده منذ شبابه وحتى شيخوخته، وكان الذي يقلقه هو الموت والفناء وما بعد الموت، فالموت يمثل غياباً مطلقاً، لذلك شكل هاجساً ميتافيزيقياً، وعدّ أعظم المخاوف.

لكن ماهي هندسة الخوف في الحيز الدائري؟

لقد تم التأكيد في هذا البحث الأكاديمي أن الزمن تم تصوره كسهم ينطلق من نقطة ليقف في أخرى، ومن ثم ينطلق من جديد، وهذا الزمن الذي لا يعود الى الوراء، هو الزمن السهمي الذي اكتشفه السومريون وأصبح أساس تفكير مفهوم الزمن في حضارة وادي الرافدين، ومن ثم ارتكزت عليه الديانات التوحيدية. أما الزمن الدائري فقد وجد في آسيا وأخذت به الحضارة اليونانية، له بعد واحد ينطلق من نقطة. وفي النهاية يبدأ بداية جديدة. تعد الهندوسية هي التي أوجدت الزمن الدائري، وهذا المفهوم أثر على ثقافات عديدة في العالم.

وتؤكد الكثير من الثقافات والأيديولوجيات الدينية وغير الدينية، أن الخوف هو جزء من حياة الإنسان وهو الذي يشكل جوهر العلاقة بينه وبين ربه، على الرغم من أن الخوف لا يولد مع الإنسان وانما يكتسبه عن طريق علاقته بثقافة الموت وما بعده، لذلك فان الخوف من الله يدخله الجنة الموعودة يوم القيامة. لكن الفلسفة تطرح سؤالها المقلق: لماذا نخاف الموت؟

ان الشيء المؤكد هو أن الخوف جزء من الحياة بجدلية وكأنها قدرية إلا أن السؤال يشكل جزءاً من قلق الإنسان وخوفه، ولكن ما يقدمه الدين بالنسبة للإنسان المؤمن نوع من الراحة النفسية التي تبدو وكأنها خلاص وهي أن (خلود الروح بعد الموت فكرة مريحة). هي نوع من الإكسير قد يمنح الإنسان الإيمان بخلوده في ما بعد الموت على الرغم من أن جل الفلسفات تنفي هذا، ولكن عندما يفكر الإنسان بحياته، ويطرح السؤال المهم ما هو الشيء الذي أفعله بحياتي؟ لا بد أن يتوصل الى الحقيقة التي توصل اليها (جلجامش) وهي أن نحيا ونعيش الحياة، مع وجود الكثير من الأيديولوجيات وخاصة في العالم الشرقي الذي تعيقه في أن يحيا، ويعيش لأنها تحولت الى سجن من أجل أدلجة صناعة الخوف، عندما بنت ثقافة مفادها الخوف من الموت، وطورت مفاهيم ما بعد الموت.

ومن مرتكزات الخوف والعوامل التي قادت الى صناعة الخوف والتي يشار لها في الكتاب هي: "المقايضة والابتزاز"، حيث نرى أن الصلاة في جميع الهويات قائمة على مفهوم المقايضة التي يطلب فيها الإنسان من ربه أن يحميه ويحمي عائلته ويرزقه اما هو فعلى استعداد أن يقدم له الطاعة، او تُبنى

المقايضة على تقديم ضحية من الحيوانات من أجل إرضاء رب السماء، ومن لا يفي بمثل هذا الدين للرب، فالويل له في العالم الآخر.. وبهذا فإن شكل المقايضة هنا شكل أساساً لصناعة الخوف، كما يؤكد الباحث.

اما الابتزاز سواء كان في الأيديولوجيات الشمولية او الدينية فأنه يُبنى على التلاعب الذهني الذي يفرض على المؤمن بعقيدة ما أن يكون أعمى ويقدم كل شيء من أجل أن يرضي أسياده، أما الآيديولوجيا الدينية فإنها تفرض على الإنسان القيام بالإبتزاز من أجل الحصول على الجنة، وإلا سيكون المصير الذي ينظره هو الجحيم. من اجل هذا على الإنسان أن يقدم جميع الفرائض التي ترضي ربه والأولياء، لذلك فإن هذه الآيديولوجيات تفرض على الإنسان الإلتزام بفعل التكرار ومنهجية الفرائض والممارسات التي تنقذه من الذنوب والخطيئة التي تقذفه الى أهوال جهنم. وبالتأكيد فإن كل هذا يشكل رعباً وتطيّراً عند الإنسان، مما ينعكس على سبل معيشته وحياته، ويجعلها حلقات من المخاوف سواء كانت دينية او سياسية. بمعنى أن هناك روابط كثيرة بين الخوف الديني والسياسي، لأن اية سلطة سياسة لا بد ان تدعم السلطة الدينية من أجل تحقيق مصالحها، لأن الخليفة او السلطان او القائد او الملهم او الرئيس المستبد، هم خلفاء الله على الأرض ويجب طاعتهم.

بالتأكيد إذا كان الخوف يشكل رعباً وقلقاً للإنسان فأنه سيزول عندما تزول أسبابه الحقيقية، سواء كانت مرتبطة بالخوف الديني ام السياسي.

وما يؤكده الباحث د.فالح مهدي، في مجمل كتابه هذا، هو أن الخوف الممنهج بحسب مصادره التي اشار لها يشكل خطورة على مصير الإنسان. ومن أجل التخلص من أهوال هذه المخاوف يحتاج الى التخلي عن الخرافة والآيديولوجيات الدينية او الظلامية التي هي أساس هذا الخوف. والمهم هو لجوء الإنسان الى العقل في حياته، وحتى يستطيع أن يبني حياته الحقيقية عليه ان يؤمن بالالتزامات تجاه الذات واتجاه الآخرين.

إن جوهر إيمان الانسان يجب أن يكون في عمله حتى يستطيع أن يحقق قدرته على بناء نفسه وحضارته وبهذا فانه يمارس قدراته التي منحها له الله (الذي يحبه ولا يكرهه) بلا خوف آيديولوجي ممنهج، حتى لا تتحول الحياة الى جحيم، وألا يبقى الانسان مرعوباً من ربه في الحياة.

في الختام أشير الى أن كتاب "تاريخ الخوف" لا يُقرأ فقط من أجل لذة القراءة والكشف الفكري، وهذا واضح فيه، وإنما اللذة القصوى تحتاج الى التحليل الدقيق لجوهر الأفكار المهمة والآنية الواردة فيه، فهو منهج واضح وبوعي فلسفي وأكاديمي لسبر الخفايا الفكرية الدقيقة ومشكلات الإنسان المعاصرة وأهمها الخوف الممنهج الذي يؤدي الى العنف ضد الانسان ما يدفعه الى العيش في حالة من الرعب ليس فقط في حياته وانما الرعب والقلق من الموت ومن ثم مصيره ما بعد الموت، وبالتأكيد فإن الأسباب الأساسية هي التعصب الديني. إن لذة قراءة الكتاب تكمن في حجم المعلومات والأفكار التي يتمثلها القارئ الجاد في بصيرته في رحلة الخوف هذه.

***ـ تاريخ الخوف ـ نقد المشاعر في الحيز الدائري الصادر عن بيت الياسمين – القاهرة 2020م.**

الأجناس الأدبية ومؤهلات العبور

د. نادية هناوي

لأن الآداب والفنون والعلوم تتطور وتتداخل، ما عاد بالإمكان غض النظر عن فاعلية التجنيس من ناحية رسوخ صفته كجنس أدبي أو بقائه متموضعا في إطار النوع. والكتابة المبدعة هي التي تتحرر لكن من دون أن تنفلت من قالب ذي مبتدأ وختام، لتظل خاضعة لنظام تواصلي ثابت ومغلق مما سماه ياكبسون (الأدبية) التي تجعل الأدب متحققاً كشكل جديد من أشكال الكتابة والكلام. وحضور الأدبية هو شرط الأدب، أمّا غيابها فيعني غياب الحدود بين لغة الفن الجمالية ولغة الحياة الواقعية الرتيبة والمعتادة، التي بغيابها يطمس كل تمايز بينهما.

ولقد تعدت النظرية الأدبية الانغلاق في رؤاها، ولم يعد الأدب بلا تاريخ أو بلا أنظمة أو تعدد أو حقيقة أو انتهاء، وربما هو بلا معقولية ما دام يمتلك المقبولية، لا سيما حين يُساء فهم (المعقولية) فينظر لها على أنها مجرد انعتاق من القيود والقوانين أو كنتيجة لما هو غير سببي أي غير منطقي.

وما دام التطور التاريخي في الأشكال أمر حاصل، يصح القول إن لا طفرات في الأدب أعني لا ابتداع لنوع أدبي ما، إن لم يكن هناك مخاض تاريخي عاشه المبدع مع مجموعة مبدعين فأنتجوه أدبا، غير أن تفسير ظهور النوع الإبداعي وتفرعه واندماجه أعمق من أن نقارنه عضوياً بالأحياء، لأن لكل حي قابلية على العيش زمنًا ثم الذواء الذي نهايته التلاشي والانقضاء، بينما النوع الإبداعي يتعدى ذلك إلى أن يكون قابلا للاندماج والتجسد، سواء بالحلول في غيره أو بالتبدل والعودة إلى أصوله. وهي بالطبع مزايا لا يستطيعها غير الأدب، بل هي خوارق بالنسبة للقانون الاحيائي.

وإذا كانت نظرية الأجناس تعتد بالشمولية في توكيد أحقية نوع إبداعي بالتجنيس، فإن نظرية العبور لا تعتد بها، لأنها لا تركن إلى الكم ولا تعترف بالتعدد بعيدا عن التاريخ الذي ينبغي أن يقطعه ذلك النوع كي يتأهل للمطالبة بالتجنيس، وفي الوقت نفسه لا تقر بالتاريخ وحده

من دون التفرد الكمي في الإبداع الذي به يتحول النوع الإبداعي إلى أن يكون جنسًا لوحده، وهو ما استطاعت فعله القصة القصيرة بجدارة.

وما بين الاختيار والاصطلاح مرحلة من الزمن هي بمثابة اختمار تاريخي داخل حاضنة مجتمع ما، لينضج منتسبا إليها كوليد شرعي، لكنه وليد ناضج من الجذور، ما دام قد امتلك موجبات الاصطلاح التي تسمح له بالعبور. وحقيق بكل اختمار إبداعي يريد أن يكون ناضجاً كجنس له مبرراته داخل نطاق الشعر أو السرد أن يكون متميزا وذلك بانعدام وجود قسيم إبداعي له يشابهه ويضاهيه. ومسألة اللاقسيم في الإبداع هي التي تستوجب التقنين في قوالب تجنيسية، تقطع الطريق على مثل هذا الأمر من المشابهة أن يحصل، ومع ذلك يظل الأدب محضنا للتوليد والتجديد بعيدًا عن النظرة الانغلاقية.

وهذا ما يجعل القوالب ذاتها قابلة للهضم والانشطار والاندماج مع المحافظة على اجناسيتها الأصلية، لا أن يكون مؤديًا إلى اثنين لا ثالث لهما هما الشعر والنثر، بل تظل في كل عملية شطرٍ، عملياتٌ من الابتكار الكتابي والابتداع الشكلي والاجتراح النوعي داخل الأجناس المؤصِلة في انتاجيتها للكيفية المستمرة أنواعا وصيغا وأنماطا.

ومما هو مؤكد أنّ نظرية الأجناس كانت قد سارت باتجاه عقلاني من الإبتكار إلى الإختمار، ومن الإستقلال إلى الاندماج ومن التنويع إلى التجنيس، وبهذا فسحت الطريق لنظريات جديدة تريد إعادة تقنين الأجناس وتحديد الأنواع، تقنينًا لا طارئية فيه ولا اعتباطية، وإنما هي قصدية معرفية تمخضت على اثر نزاع نظري كان قد طال جنس الرواية متعلقا بطرائق تكوينها وترابط مبانيها شكلًا ومضمونًا، باحثا في نشأتها، مدققا تبلورها جنسا عابراً.

ومثل ذلك يقال مع قصيدة النثر التي استطاعت أن تثبت قدرتها على العبور جامعة فنيا الشعر بالسرد وصاهرة حدود النثر في حدود الشعر، جاعلة قالبها محافظا على استقلاله وارتكازه كجنس شعري عابر للاجناس لتكون بذلك جنسا مستقلا وقائما بذاته ممتلكة بجدارة مؤهلات العبور.

ولعل لقصيدة النثر أنواعا شعرية وأشكالا وصيغا ستنضوي فيها مستقبلا أيضا، ونحن اليوم إذ نتحدث عن قصيدة ومضة وقصيدة هايكو وقصيدة قصيرة وقصيدة بصرية وقصيدة مؤنثة وقصيدة درامية وقصيدة منفى وقصيدة حوارية، فإنها كلها قابلة لأن تكون منضوية في جنس واحد مستقل هو قصيدة النثر بوصفها جنسا شعريا، شأنها شأن القصيدة التقليدية العمودية والتفعيلة التي هي أجناس مستقلة تضم بين حدودها حدود أنواع شعرية أخرى وبأشكال وصيغ شتى. لكن هل يحصل في بعض الأحيان أن تظهر أنواع إبداعية قابلة لأن تنضوي في جنسين عابرين للأجناس مثل الرواية وقصيدة النثر؟

إن من ميزات الأدب أنه دائم التجدد والتنوع فلا يظهر نوع إلا ويباغته ظهور نوع جديد وهكذا هو الإبداع دائما يبحث عن الجديد والمستجد، لكن ذلك شيء، ومحاولة قولبة هذا التنوع وتحييد هذا التجدد شيء آخر. فالأول مرهون بالعملية الإبداعية نفسها والثاني مرهون بالعملية النقدية. وما يُقر به إبداعيا هو غير ما يُعتد به نقديا.

ويظل المبتدع الجديد مجرد شكل أدبي إلى أن يثبت قدرته على تجاوز الشكلية إلى القولبة. أما أن تشترك هذه القولبة بكل حدودها مع قالب آخر، فذلك ما يفنّد مصداقية أحد القالبين أو كليهما. لأن أهمَّ شرط في القولبة الاستقلال، ومن ثم يغدو تساؤلنا الآنف غير عملي البتة. وخير مثال على ما تقدم الحوارية أو الحواريات التي نظّرتْ لها نقديًا ومثلْتها إبداعيًا الفرنسية ناتالي ساروت، وتأثر بها كتّاب غربيون وعرب.

ومبدئيا تعد الحوارية شكلا روائيا يأخذ عن المسرحية عنصر الحوار ويبني عليه دراميا الفعل السردي، وهو ما تفعله القصيدة التقليدية أيضا التي بإمكانها أن تبني على الحوار شكل مهجنا بالتداخل الاجناسي هو القصيدة الممسرحة. فإلى إي جنس تنتمي الحوارية، أم أن الحوارية جنس مستقل لا ينتمي لأي منهما؟

الجواب أنّ ما تنماز به الحوارية من تجسيد تخييلي للواقع النصي يظل في حدود القالب الاجناسي للرواية، كما أن سعته التمثيلية وتنوعه الدراماتيكي يمنعانه من أن يكون منضويا في القالب الشعري لقصيدة النثر.

وقيام الكاتب بدور الناقد يترك بالتأكيد أثرا مهما في الترويج لما يؤسس له من أجناس أو التدشين لما هو غير مشرعن أو مقبول في العرف الأدبي من أنواع وأنماط..

ولا يحسم التنظير النقدي الخلاف حول إشكالية ثنائية كتابية ما لم تحدد مزايا التذوتن أو التفرد بموضوعية ووعي عاليين، وهو ما فعله ادجار الن بو حين أصدر كتيبا نقديا وضع به حجر الأساس لاجناسية القصة القصيرة. ولولا هذا التنظير وتلك الممارسة المداوِمة بإتقان على النوع لظلت الإشكالية قائمة إزاء تجنيس القصة القصيرة.

وما كان لمساهمات النقد الشكلاني ومن بعده النقد البنيوي وما تلاهما من نقود وتنظيرات ما بعد بنيوية، لتلغي ما كان ادجار الن بو قد أسس له، لولا أنها أضافت مزيدا من التنظير الذي يعضد إبداعيا جنس القصة القصيرة ويكون متهيئا لما قد يطرأ عليها بين الفينة والأخرى من أنواع وأشكال جديدة.

وقد لا يكون غريبا القول إن تدشين نظرية في الأدب يتوقف على انجاز مسائل التجنيس ومتعلقاتها من مفاهيم وأوصاف وإجراءات وكل ما يدخل تحتها وحولها وفيها من مواضعات وآليات وحيثيات. ولقد خاض النقد الغربي جدلا طويلا حول الجنس أو النوع الأدبي الذي مصطلحه واحد في الانجليزية وهو Genre ،

ووجد أنْ لا خلاف في أنهما واحد في عالم الأدب يحتكران أنماط الكتابة فيه. أما إذا شابه شكل شكلًا أو ماثل نوع نوعًا، فعند ذاك يبقى الجنس جنسًا بينما ينضوي النوع المشابه أو الشكل الشبيه مهجنا مذابا في الجنس الأصل.

وإذ تريد نظرية التداخل الاجناسي من الأدب تهجين نوع وجنس أو بين نوع ونوع، بقصد أن يتقارب معه، مشابهاً له في الامكانيات أو مشاركا إياه في السمات، ككتابة متعددة تتجاوز الحدود والدوال، متسمة باللا نهائية، فيها النص متسم بإعادة الانتاج والتناص والانفتاح والحوار والتعالق..الخ... فإن ما تريده نظرية (العبور بين الاجناس) التي اجترحناها ـ في كتابنا الموسوم

(نحو نظرية عابرة للاجناس) ـ هو توكيد أن هذا الانفتاح ما بين الحدود النصية لا بد أن تكون له قوالب بها (يحافظ أو لا يحافظ) الجنس على حدوده منصهرا ومذابا في جنس هو أقدر منه، ليكون الاول معبورا والثاني عابرا عليه ضاما إياه في قالبه، وبهذا تنتفي دعوتان وتصبح واهيتين وهما: دعوى موت الاجناس واستيلادها ودعوى اللاتجنيس.

وقد دللت في كتابي أعلاه وبتمثيل اجرائي على أن في اللاحدية التي تتحقق بالتداخل النصي ما هو حدي، به يثبت الجنس العابر قدرته على الرسوخ وقد تقنن قالبه صاهرا جنسا او نوعا كان قد تعالق معه فعبر هو عليه. ليكون الجنس العابر هو الجنس الصاهر والمذيب لأنواع دونه أو أجناس أضعف منه لا تقدر على مقاومة جاذبيته التي بها تتوكد حديته ورسوخه واختلافيته... وهكذا يتقنن جنساً عابراً.

عيون لو كوربوزيه العمرانية

د. خالد السلطاني *

عندما قرر شارل - أدور جانيريه (1887 – 1965) (الذي سيكون لاحقا «لو كوربوزيه» Le Corbusier، مستخدما في عام 1920 اسم عائلة جده لأمه لقبا جديدا له، مسوغاً «فعلته» تلك، قائلاً «ان بامكان اي شخص إعادة اختراع نفسه!»، عندما قرر في سنة 1911، ان يقوم بجولة تعليمية ذاتية يطلع من خلالها على خصائص عمارة بلدان مختلفة عبر زيارة ميدانية لتلك الدول. كان ذلك القرار بمثابة اضافة نوعية اخرى لاسلوب «تعليمه» المعماري المتفرد؛ ذلك «التعليم» الذي لم يكن درساً مدرسياً عاديا «يتلقاه» في مؤسسات اكاديمية، وانما «يحصل» عليه من تعليم ذاتي، ومن تجارب واقعية في ممارسات مهنية بمكاتب معمارية مرموقة. معلوم ان «لو كوربوزيه» لم ينتسب كما لم يدخل في حياته كلها اية مدرسة معمارية لتعلم المهنة المعمارية. بيد ان الامر اللافت في تلك الرحلة، لم يكن مقتصرا وحده على هذا الجانب التعليمي برؤية الامثلة المعمارية ميدانيا فحسب، وانما تخلي لو كوربوزيه كمثقف طليعي عن مزاج ما يعرف بـ»المركزية الاوربية»، ويعلن بجرأة

نادرة بانه قادر لان يتعلم من «آخرين»، حتى وان كانوا غير اوربيين، بل ويذهب بعيدا في ابداء رأي مثير للاهتمام، بانه على عكس المزاج الذي ساد طويلاً في القرن التاسع عشر، يمكن ان تكون خصائص الثقافة «الأخرى»، بمثابة اثراء لثقافته المكتسبة. وبهذا فانه يؤكد بطريقة واخرى أهمية «التلاقح» المعرفي، اكثر بكثير من النظر باستعلاء نحو الثقافة المختلفة، وحتى رفضها. وفي ظني، فان هذا «الدرس» التنويري والمعرفي المهم، المستخلص من مقاربة كوربوزيه نحو الآخر المختلف، ابان نوعية «طينة» ذلك الشاب السويسري، وتطلعاته المخلصة في التعلم من «مرجعيات» ومصادر لم تكن مقبولة، ولا متعارف عليها، ابان تلك الفترة الزمنية من بدايات القرن العشرين التي نتكلم عنها.

يمكن لنا ان نتحدث كثيرا عن «دروس» (وليس درساً واحداً) عن تلك الرحلة المثيرة التي قام بها لوكوربوزيه، وما تمخض عنها من نتائج اسهمت لاحقا في تكريس مبادئ عمارة الحداثة في الخطاب المهني والمعرفي. لكن زيارته لتركيا «العثمانية» آنذاك كمحطة اخيرة في تلك الجولة الطويلة، ولفته الانظار الى ما يمكن ان تقدمه «العمارة الاسلامية» (او بالأحرى «العمارة العثمانية» وهي احد تجليات تلك العمارة المعتبرة) من معارف وتأملات وإعادة قراءة، يمكن ان يكون موضوعا معرفيا آخر: شائقاً ومفيداً. لكننا سنكتفي الآن بعرض كتاب البروفيسور «د. أنيس قورطان»، الذي اهدى لمحبي العمارة الاسلامية ومتابعي لو كوربوزيه هدية مدهشة، ومثيرة للاهتمام بجمعه في كتاب «التخطيطات» المرسومة من الطبيعة مباشرة التي عملها كوربوزيه الشاب وكذلك سرد نصوص ملاحظاته في ما يخص مشاهداته الفطنة للعمارة والعمران التركيين وقراءتهما قراءة مهنية، بحيث تكون متسقة مع اشكاليات العمران والعمارة الحديثين. وقد عنون كتابه الممتع «العمارة والعمران التركيان في عيون لو كوربوزيه»، وصدر في 2018 بطبعته الثامنة، وبثلاث لغات: التركية والانكليزية والفرنسية، عن دار «بيوت» Boyut في اسطنبول (صدرت طبعة الكتاب الاول بالتركية عام 1983). لقد اشار مؤلف الكتاب (وهو استاذ جامعي تركي <تولد 1932>، معروف على نطاق واسع في الاوساط المهنية المحلية وخارجها، وحصل على شهادته الاولى في العمارة سنة 1953 من كلية العمارة في جامعة اسطنبول التقنية، وعمل في مكتب المعمار العالمي «مارسيل بريير» ثم في مكتب «سوم» SOM في نيويورك تحت إشراف «غوردن بونشافت»، كما عمل استاذا في جامعة الشرق الاوسط التقنية في انقرة، واصبح بروفيسورا، عام 1978 ثم نال شهادة الدكتوراه عام 1985، فضلاً عن تأليفه عدة كتب في مجال العمارة، فقد شغل عميدا لمدارس معمارية تركية)؛ اشار «د. انيس قورطان» في كتابه، بطبعته الثالثة (1997)، الى ان لو كوربوزيه «شغل مكانة بارزة في تاريخ <العمارة العالمية>. ويسعى معماريون كثر وراء فهمه مرة اخرى. كما ان طلاب العمارة يعرفون جيدا بانه من دون إدراك تام لاعماله وأفكاره، فمن الصعب بمكان اجتراح عمارة ناجحة!».

يتضمن الكتاب اضافة الى المقدمة القصيرة (والكتاب يتسم بصفة الاختزال «المدرسي» لفصوله، الذي ينزع مؤلفه لان تكون تلك الخاصية حاضرة بقوة في نوعية نصوص كتابه)، فإنه يشمل ايضا، وباختصار، فصلا عن «سنوات تعليم <جانيريه> الذاتية (1887 – 1911)-»، ثم يليه فصل اخر عن «العمارة والعمران التركيان في عيون لو كوربوزيه» وهي مادة الكتاب الرئيسية. ويتضمن هذا الفصل المهم التعاطي مع افكار مهنية يتوق مؤلف الكتاب الى ادراجها ومناقشتها

مع قارئه، كمواضيع مثل «المخطط الذي يبدأ من الداخل نحو الخارج»، و»المساجد والنقاء الشكلي» و»المدينة الخضراء» و»جماليات المدن», و»بنية المدينة المورفولوجية» و»زيارة لو كوربوزيه لتركيا مرة اخرى»، وغيرها من المواضيع التي تضمنها الكتاب الذي جاء بـ 156 صفحة من القطع المتوسط.

وتبقى «تخطيطات» لو كوربوزيه الاستثنائية في فنيتها واهميتها المهنية والتاريخية، من اهم «مواد» الكتاب. انها تخطيطات صافية وطازجة، وهي بخطوطها المختزلة المعبرة، تشي بنشاط رسامها المفعم بالدهشة والجديد، لما يحيطه ويراه من عمارة وعمران جديدين على ذائقته الفنية. انها بمثابة «وثائق» تشكيلية لمرحلة زمنية جد مهمة ان كانت لجهة العمارة ومساراتها، ام لناحية التغييرات الكبرى في مفاهيم الفن ومدارسه العديدة. ولنا دراسة نوعية لتلك التخطيطات وقيمتها الفنية الكبيرة في مسار المعمار ودلالاتها في احراز نماذج عمارة الحداثة.

ثمة نصوص في الكتاب تذكّر القراء بمقولات لو كوربوزيه التي استخلصها عن طريق فهمه العميق وتأويله لما يشاهد من بيئة مبنية مميزة، ومن دراسته العميقة و»حفرياته» المعرفية في كنه مخططات وجوهر عمارة تلك البيئة ومحاولة ادراك قيمتها المهنية. وتعد تلك الاقوال التي سجلها مؤلف الكتاب الى جانب تلك التخطيطات والمثبتة ايضاً في متن فصوله العديدة المختصرة، خلاصة «الدرس

الكوربوزيوي» وانطباعاته عن سفرته التركية المثمرة. كنت اعيد على مسامع طلابي لسنين عديدة مقولة لو كوربوزيه المجنحة، المستلة عن دراسات خاصة بمنجز لو كوربوزيه المعماري، والتي قالها وهو تحت تأثير مشاهداته اثناء اقامته باسطنبول: <انتم ايها المخططون، سجلوا في دفاتركم «السيلويت» Silhouette>. وهي ذات العبارة التي سجلها مؤلف الكتاب، مستنسخا اياها من تخطيط رسمه لوكوربوزيه، وهو يشاهد المنظر المدهش من شباك غرفة فندقه الاسطنبولي، عندما كتب «الاسوار البيزنطية، ومسجد السلطان أحمد، وايا صوفيا»، و»السراي» الكبير؛ هيا مخططي المدن، سجلوا في دفاتركم: «السيلويت!» (صفحة 87). يشرح مؤلف الكتاب في فصل «جماليات المدن» (ص79 - 85) مزاج لو كوربوزيه ويذكرنا بانطباعاته التي سجلها في دفتر يومياته، في نقاط محددة تدلل عن تلك الجماليات. كما يشير الى فكرة لو كوربوزيه، التي اراها جد هامة، وجد آنية وواقعية، عندما يقول: «اعرب لو كوربوزيه بصورة واضحة وجلية، ان على المرء ان لا يستنسخ او يقلد الاساليب المعمارية التاريخية. وسيكون خطأً فادحا اذا اعتبرنا تاريخ العمارة بمثابة «مستودع للاشكال»، نستعير ما يعجبنا منه. فمثل هذه المقاربة السلبية تؤدي بالنتيجة الى ايقاف الابداع وتدهوره، مثلما تقود لا محالة الى «الرومانطيقية» الكاذبة وتكرار القديم والى التقليد، فضلا على انها تدفع نحو «الاكاديمية»، والى كثير من انواع الاحياء نيو – الكلاسكية». وفي نصوص كتابه الممتع يتوقف «د. انيس قورطان» مرارا وتكرارا عند تلك الافكار الطليعية التي ارتبطت باسم لو كوربوزيه واسهمت في تقدم العمارة، وترسيخ مبادئها الحداثية في المشهد وفي الخطاب المهنيّن. وسنرى ان المعمار الرائد لا يتردد في ذكر ما تعلمه من اراء وافكار عبر مشاهداته التي وفرتها له مدينة اسطنبول وعمارتها الثرية الزاخرة بالقيم الجديدة والافكار الذكية التي يمكن تأويلها وتفسيرها لتضيف اضافات لافتة الى ذخيرة الفكر المعماري الحداثي.

لقد قدم د. انيس قورطان لمحبي العمارة ومتابعي لو كوربوزيه كتابا ممتعا وشيقا وبالطبع مفيدا. انه احد الكتب التي تبين ان ظاهرة التلاقح الثقافي، ظاهرة صالحة ومثمرة، وبمقدورها ان تغني بقيمها الجديدة وتضيف كثيرا الى الفكر الانساني، منوعة مصادر المعرفة ومسهمة في توسيع مرجعياتها. بيد ان الامر اللافت في هذا الكتاب القيم يبقى التعرف ومشاهدة نماذج التخطيطات البارعة والماهرة التي انجزها لو كوربوزيه، ورؤيتها جميعاً في مكان واحد. انه كتاب جدير بالقراءة، مثلما هو حَرِيٌّ بالمشاهدة والاطلاع من قبل المعماريين وطلاب العمارة وكذلك القراء المهتمين!

*** معماري وأكاديمي**

الفن بين الإحساس والشكل والمهارة

د. ماضي حسن *

يرى (كانط): ”أنَّ الحُكم على شيء ما بأنه (جميل) أمرٌ مستقلٌ تماماً عن وظيفته أو الغرض منه، ولا يرتبط بكونه نافعاً أو ضرورياً؛ فشروق الشمس ليس جميلاً فقط لأنه يمدنا بالدفء، والمرأة المرسومة في لوحة ليست جميلة لأنها تثير غريزتك؛ فالاستجابة الجمالية تأتي بطريقة مختلفة تماماً“. إذن هو يشير إلى تقدير الشيء بغضِّ النظر عن وظيفته أو غرضه العمليِّ كإشباع الجوع، والراحة الجسدية، أو الرغبة العاطفية.

ووفقاً لـ (كانط) نستخدم الفنَّ لغرض تكوين شعور من الجمال أو الرقي، ولا شيء غير ذلك، ومن هنا جاءت المقولة: ”الفنُّ لأجل الفنِّ“. ويتبنى البعض وجهة نظر (كانط)، وعندما يُسألون عن غرض الفنِّ يجيبون بأنَّه يثير الإحساسَ (الهادئ) بالجمال أو العظمة في عين الناظر.

وامامنا عوامل الإيصال الى مرحلة (الاستمتاع) بالفن ويمكن إيجازها بثلاث مستويات: الإحساس والتقنية والشكل.

الإحساس: ويرتبط الإيصال بالوعي الإدراكي عن طريق الحواس كـ(البصر) يسمى كذلك بالإدراك الحسي، حيث تأتي مرحلة الإدراك

بعد إرسال الاشارات التكوينية من مصدرها (الباث) عن طريق وسائل الإيصال مع الفكر وهي (الحواس) (المرئية واللامرئية) عندئذ تغدو مرحلة الإحساس (المشاعر) والإدراك (الفكر) مرحلة لاحقة تنمي مرحلة التأهيل نحو مرحلة التذوق والاستمتاع (التمتع الفني بعد مراحل أخرى لاحقة أيضاً، وهي: القياس والتقويم والمقارنة والتقدير الجمالي والتذوق، ثم الحكم الجمالي. وعلينا أن نفرق بين الحواس وبين الإحساس، فالحواس: هي وسائل لايصال مصادر الجمال الطبيعي والجمال الفني، بينما الإحساس: ارتباط بالمشاعر الوجدانية والنفسية الطريقة الأخرى للوصول والتعرف الى الفن:

التقنية: التقنية هي المستوى الذي يتميز فيه العمل الفني عن معظم الاشياء وغالباً ما يتطلب الرسم الذي يعني التصميم، وهذا ما يتضمنه المنتج او العمل الفني بداخله، كون الرسم هو قاسم مشترك في الأعمال الفنية كافة كالنحت والتصوير والبناء المعماري والفنون الاخرى ضمن مجموعة الفنون الجميلة. واحدى القواعد التي يجب اتباعها هنا، واثناء تعلمنا بالممارسة، نجد ان المسار الطبيعي لذلك هو التحرك من المألوف الى غير المألوف مما نعرفه بشكل جيد الى ما تكون معرفتنا به قليلة، وهاتان القاعدتان متصلتان بعملية (الاستمتاع) الفني، كما انهما متصلتان بفن القراءة او تعلم امور اخرى مثل الادارة والقارئ الذي يتابع ويقدر ما يتعلق بالفنون، ويرى الكلمات بتمعن فيها، ويتلفظ معانيها، ثم يصر بعد ذلك على وضع الافكار التي حصل عليها موضع الممارسة بطريقته الخاصة التي تتناسب مع اتجاهه الذاتي والنفسي. ان متابعة كتاب ثم تطبيقه عملياً، يقود الى (الاستمتاع بالفن) على عكس القراء الذين يتوقفون عن الاستمرار بعدها، وعدم ممارسة المراحل اللاحقة لا يقتصر على التعلم بالممارسة التطبيقية دون ارشاد العقل في حالة اليقظة، الى الانتباه والاستفادة من خطة تحليل النتائج للاسباب التي ادت الى الفشل والنجاح.

يرتبط (الاستمتاع) بالفن ممن يحترفون مهناً أخرى، الأمر الذي يجعل الفنانين الذين أحبطت بعض أعمالهم في التلقي والاستمتاع مقارنة مع اعمال الفنانين الذين تقبل اعمالهم بالاستمتاع من فئات خارج الوسط الفني من الجمهور.

إن مهنة الفنان نحو ايجاد وتنمية (الاستمتاع) بالمنتج الفني تحتاج الى اهتمام وتشجيع وكسب الرؤى من قبل الجمهور أكثر مما يحتاج اليه الفنان، لأن عوامل التشجيع للفنان تأتي أولاً من ذاته المرتبطة باختياره، وسلوك موهبته التي لا تفارقه منذ حياته المبكرة، ولكن عملية التلقي والاستمتاع من المجتمع غير ملزمة، الا بفعل رقي الأداء والتقنية وقيمه الجمالية التي

تكسب وتشد وتستوقف المقابل نحو التأمل والاستمتاع الفني.

لقد كانت هناك علاقة متبادلة ومتناظرة.. ومتكاملة في النتيجة والاستنتاج بين الشكل والمضمون ذلك أن المهارة في تقنياتها المتعددة التي تجلب الانتباه وتثير (الاحساس) لدى المشاهد هي التي تمهد لبنية الكيان المضموني والثيمة الفكرية للعمل الفني سواء كان التشكيلي أم المعني بالفنون الأخرى.. حيث يتحرك الهاجس والإحساس بفعل محركات الإثارة لدى المتلقي. وكلما كانت الأشكال طبيعية فإنها تقتصر على قيمها (الأستطيقيا) الجمالية. بينما يعتمد الالتفات والتنبيه والإثارة المشهدية للأعمال المنتجة يدوياً، على التحويرات والتبدلات بصيغ مهارية تجلب الانتباه والتأمل والتوافق المشاعري أكثر توقفاً وتأملاً لما يتناسب مع مكنونات داخلية لدى الإنسان في خلق متغيرات للأشكال السائدة العشوائية للطبيعة، لذلك نجد الإنسان في المهن المختلفة يقوم بتغيير الأشكال والمكونات الى صيغ خدمية نفعية وتذوقية في الوقت ذاته.. على سبيل المثال تنظيم اصطفافات الأشجار بشكل إيقاعي متكرر وبفجوات ومساحات متساوية.. وعلى تحوير الخامات من الأشجار الى صناعات نجارية نفعية تسودها صيغ التصميم الجمالي.

كالأبواب والمقاعد، فضلاً عن الأعمال النحتية من الخشب. وفي مواد أخرى تحويل خامات الطين والصخور الى هندسة معمارية نفعية، وأشكال فنية تبهج النفس.. وتتم بواسطة مستويات رقي المهارة والتكنيك الناجم عن الخبرة وأسرار المهن.

*** ناقد وفنان عراقي يقيم في امريكا**

صندوق

د. ايمان الكبيسي

الرجل: تعامل برفق معه فهو اغلى منك بأضعاف.

الصبي: لن اقبل بالإهانة .

الرجل: (بسخرية) ستقبل...ستقبل... نقبل بكل شيء حين يكون المقابل هذا (يلقي بقطع نقدية معدنية على الصبي بينما يتذمر الصبي باندفاعه فيمسك به الاسكافي محاولا منعه).

الاسكافي: ابلغتُ امك انكَ لن تستطع معي صبرا.

الصبي: لا تؤاخذني بما نسيت.

الاسكافي: عوّد ظهرك على الانحناء وطأطىء الهامة، والا لن تعيش.

الصبي: (مستنكرا) ولدت حرا..

الاسكافي: (يغضب) لا تلوث الصندوق بتلك الشعارات...ابتعد هيا ابتعد.

الصبي: خرجت لكسب الرزق الكريم.

الاسكافي: انت خارج الصندوق فلا كرامة لك.

الصبي: ماذا عمن سبقني اليه؟

الاسكافي: قالوا لنا انهم الاكرمون... لكن ليست كل الصناديق سواسية... فهي كالأحذية فيها الفاخر وفيها المميز وفيها دون ذلك.

الصبي: هل يحق لنا اختيار الصندوق؟

الاسكافي: بالطبع نحن مخيرون....اسمع يا صغيري... تعلّم دون ان تتكلم... اكسب رزقك بلا فلسفة ...اعمل من دون ان تنظر الى وجه الزبون، فما يهمك هو حذاؤه، عندها سيكون لك صندوقك الخاص.

الصبي: ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا.

الاسكافي: لا تنسى انك تتعامل مع الاحذية.

الصبي: هل احببت هذا الصندوق.. هل عشقت يوما؟

الاسكافي: مضى زمن طويل على تلك المشاعر. لكني بالطبع عاشق للحياة.

الصبي: وهل في مهنتنا متسع للعشق؟

الاسكافي: حياتنا حذاء نرتديه، وحين تنتهي صلاحيته يُخلع.

الصبي: لكنك لا تلبسه؟!

الاسكافي: لأني لم اجد مقاسي حتى الان.

الصبي: يمكنك صناعة حذاء بمقاس

يناسبك.

الاسكافي: الصناعة مكلفة ومتعبة، ابحث عن حذاء مستورد بماركة عالمية.

الصبي: وماذا عن القياس؟

الاسكافي: ان وجدت الحذاء دون القياس سأجري عملية تهذيب لقدمي، (ينظر الى قدم الطفل) ابحث في الصندوق قد تجد ما يناسبك.

الصبي: شكرا، لكني احب هذا النعل الذي صنعته لي امي.

الاسكافي: لا تحدد ذاتك بقيم فارغة... فمهما كبرت ستبقى مع الاحذية، هل فهمت؟ ...هذا حاضرك ومستقبلك.

الصبي: كنت ذلك الفارس الذي يعتلي صهوة جواده... واليوم انا مجرد حصاة في حدوة ذلك الفرس... كانت الغيوم تسترضيني كي احدد مكان هبوطها، اما الان فالأمطار تدمي الرؤوس... البطون حبلى بالخوذ والاكفان... الوليد يتشح بالأبيض او ربما الاحمر، فيصطبغ العالم بالليل الحالك، مع كل تكبيرة طازجة في اذن الوليد (اصوات تكبيرات من خارج المسرح).

الاسكافي: انه وقت التجارة... احفظ الصندوق... سأعود بعد انتهاء الصلاة.

الصبي: سارع الى التجارة فلربما (بسخرية) تتمكن من شراء حذاء. (يخرج الاسكافي، بينما يتحدث الى نفسه) كيف يمكننا اختيار صناديقنا...ان كنا في كل شيء مسيرين؟ ترى هل سيكون لي صندوق مهيب كصندوق ابي؟ ام سأُترك من غير صندوق؟ (يستدرك) نعم سيكون لي صندوق ابي نفسه... لكن عليّ الصبر وتحمل المصاعب والعمل الطويل وسأتمكن من شراء صندوق يليق بي وبعائلتي.

(اصوات ضجيج وسيارات شرطة، يدخل مجموعة رجال بزي رجال الدولة)

الضابط: اقبضوا على الاسكافي، فتشوا الصندوق.

الصبي: سيدي ما الامر؟

الضابط: ضعوه في الصندوق.

الصبي: هذا ليس صندوقي...هناك خطأ.

(يُجلِسون الصبي على الكرسي، ويحدث اظلام للمسرح ومن بقعة ضوء مسلطة على الصبي والضابط يدور حوله).

الضابط: منذ متى وانت تعمل هنا؟

الصبي: منذ ان سافر ابي.

الضابط: والى اين سافر والدك؟

الصبي: اختار صندوقا يليق به.

الضابط: سيكون لك صندوقك الخاص، لكن ليس على هذه الارض.

الصبي: لا اعرف غيره، وامي؟ بل هي امي.

الضابط: انت غريب ولا يحق لك البقاء، تتعامل مع المستورد وهذا ممنوع في مدينتنا.

الصبي: انا من هذا الاديم وابي غادر لأجله.

الضابط: لا داعي للثرثرة... ستبقى في الصندوق حتى موعد مغادرتك.

الصبي: ماذا عن هذا الصندوق.

الضابط: له من يحميه.

الصبي: وانا من يحميني؟ والجماجم تهطل بغزارة على هامتي، ليس ثمة ماء، لا

شيء يوحي باللذة، كلنا جياع نتوسد الحنظل بعد ان هجرنا الصبر الجميل.

الضابط: لا شيء بالمجان...كل شيء بثمن.

الصبي: حتى هذا الصندوق يستوجب الدفع؟

الضابط: (مال البلاش ما ينحاش) (بمفاخرة) نزيل في فندق اربع نجوم وتريد خدمة مجانية؟

الصبي: لم انتخبه بديلا عن رصيفي.

الضابط: لا مكان لك هناك.

الصبي: وامي؟

الضابط: تود رؤيتها؟

الصبي: الحنين اليها جمرات تُذيب قطبيّ الروح.

الضابط: اااه من ذلك القلب... طفل لا استطيع كبح جماحه، اعطني عنوانها وسأطلب منها زيارتك، ان كانت تريد ذلك.

الصبي: تريد طبعا تريد، فالجدران تخفق مع عقارب قلبها المتسارعة.

الضابط: سنرى... ونشعر... نتلمس... ونستمتع.

الصبي: تقدم المساعدة بلا ثمن؟

الضابط: لا شيء بلا ثمن، ربما هي من سيُحاسِب على الفاتورة (استدراك) هذا ان شاءت وشاء لها الهوى.

الصبي: ليس كل ما تظنه مباح.

الضابط: طبعا ليس كل ما تظنه مباح.

(اصوات اطلاق نار كثيف من خارج المسرح)

صوت: سيدي هجوم... ملثمون يهاجمون السجن.

(يخرج الضابط مسرعا مع صرخات الصبي): اخرجني ارجوك.

(اظلام تام، يظهر بعدها الصبي ومعه مجموعة من الملثمين يحيطون به، على شكل بقع ضوئية) الصبي: (باستهزاء) كل من خارج الصندوق يقاتل كي يدخل الصندوق... هزيلة تلك الحياة.. من انتم؟

(يتقدم المجموعة رجل ملتحي بشخصية (هو) ، يرتدي زي ارهابي)

هو: نحن من سيهبك الحياة.

الصبي: لم اعرف واهبا غيره.

هو: نحن جنوده .

الصبي: يمكنكم انقاذي؟

هو : (يضحك بهستيريا) طبعا يمكننا كما انقذنا معلمك من قبلك.

الصبي: بلا مقابل؟

هو: هل تملك ما يستحق ان يكون ثمنا؟

الصبي: لا املك شيئاً ... حتى الهواء الذي في صدري ملكيته تنتهي مع كل زفير.

هو: الم يترك لك والدك ارثا تُجازي به من يُنقذك؟

الصبي: لم يترك لي سوى بضاعة كاسدة، تدعى كرامة.

هو: نِعم الارِث... ستكون خلفا مشرفا لذلك السلف.

الصبي: ويكون لي ذات الصندوق؟

هو: طبعا.

الصبي: كيف.. والحرب قد اعلنت توبتها؟

هو: حربنا مع الظلاميين لن تنتهي.

الصبي: الظلاميون ينافسون الضابط في احتلال ارضي.

هو: لا تخف نحن لن نفعل ذلك... نستوطنها لفترة وجيزة...استراحة مقاتل... سنصنع لك صندوقا يليق بك.

الصبي: يشبه صندوق ابي.

هو: بل اجمل... فصندوق ابيك لم يكن من خشب جيد.

الصبي: وامي؟

هو: انا من سيعتني بها شخصيا. (يتحدث الى الاسكافي خارج المسرح) تعال ايها الرجل الطيب، اكمل تعليمك لهذا الصبي النبيه. (يدخل الاسكافي، ويقوم بربط حزام ناسف على جسد الصبي).

الاسكافي: اسمع يا صغيري... تعّلم من دون ان تتكلم... اكسب رزقك دون فلسفة ...اعمل دون ان تنظر الى وجه احد.

الصبي: (ينظر الى قدم الاسكافي) هل وجدت مقاسك؟

الاسكافي: بل هذبت قدماي كي تليق بالمقاس الجديد. وعليك انت ايضا ان تخضع لذلك المقاس.

الصبي: علمتني كثيرا، وقدمت لي النصح.

الاسكافي: وما حياتنا سوى حذاء نرتديه.

الصبي: لكني ما زلت اعشق ذلك النعل الذي صنعته لي امي... واطمح في وطن دون صناديق حتى وان كانت تشبه صندوق ابي. (يخلع الحزام ويلبسه للإسكافي) لقد اخترت مقاسك وسأختار مقاسي، فصندوقي لا تحده حدود... وداعا.

اظلام
المرأة في المسرح العالمي

مثري العاني *

من المعروف أن الأدب العربي عرف المسرح وأدبه قبل أكثر من مائة عام، ويعد دخوله الحياة الأدبية حديثاً قياساً إلى الشعر مثلاً، وليس مجال بحثنا هنا عن أسباب هذا التأخير، وبدايات المسرح كانت في العراق وكانت أول مسرحية عرفت بالأدب العربي هي مسرحية ـ لطيف وخوشابا ـ لنعوم فتح الله سحار، وهي أول مسرحية ترجمت إلى الأدب العربي من المسرح العالمي عن الفرنسية، ونشرت في الموصل عن مطبعة الآباء الدومينكان عام 1893، وقد مثلت قبل نشرها عام 1890م في الموصل.

لقد اتخذ الأديب المسرحي من المرأة رمزاً للأرض والحرية والوطن والقضية يناضل من أجلها ومن أجل تحقيقها، وكان بعض الأدباء العرب قد اتخذوا المرأة رمزاً لفلسطين وشعبها المشرد وفضحوا في مسرحياتهم خيانة الأنظمة العربية لقضية الشعب الفلسطيني والمساومات الكثيرة التي

تعرض لها، وأوضحوا مدى تمسك هذا الشعب بأرضه المسلوبة منه قسراً واستماتته للدفاع عنها.

أما في المسرح العالمي فشخصية المرأة فيه متميزة نظراً للبعد الزمني الذي وجد فيه المسرح بالنسبة للأديب العالمي، فالمسرح عرف في اليونان قبل ما يقارب 2500 عام وكان مسرحاً نشطاً جداً له مواسمه وأعياده، وفي المسرح اليوناني لا يمكن نسيان ''انتيجونا أو يوكاستا أو ميديا'' تلك الشخصيات المسرحية الرائعة المأخوذة من الميثولوجيا اليونانية، أما اليكترا ودورها في المسرحية التي تحمل الاسم نفسه فهي شخصية بارزة في المسرح اليوناني خاصة والعالمي عامة، إذ إنها أصرت على دفن اخيها على الرغم من التهديد الذي لاقته والمعوقات التي وضعت في طريقها، وهو موقف التزمت به، وعملت على تنفيذه مع كل ما واجهها من مصاعب.

وكانت المرأة جزءاً من المجتمع بل هي نصفه إلا أن العسف الذي لحق بها كان عسفاً وظلماً مزدوجاً فهي مظلومة ومستغلة من الرجل ومظلومة ومستلبة من النظام الاجتماعي، خاصة وأن الرجل العراقي لم يستطع التخلص من التراكمات التي خلفها الحكم العثماني والنظرة المتخلفة للمرأة، فأخذ يصب عليها الكثير من تخلفه الفكري، ويبعدها عن المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية بوصفها شيئاً يملكه، وليست إنسانة تشاركه آماله وتطلعاته في المستقبل السعيد، وقد انعكس ذلك على ما أنتجه أدباء المسرح في بدايات نشوئه في العراق في عشرينات القرن الماضي وما بعده، فكانت النظرة الجديدة للمرأة عندما دق ناقوس الأديب موسى الشابندر، بمسرحيته ''وحيدة''، وبطلة المسرحية وحيدة، وإن كانت تحمل هموماً ذاتية وهي عدم استطاعتها اللقاء بابن عمها وخطيبها بآنٍ واحد، إلا أنها كانت قد شكلت في الوقت نفسه هجوماً على الوجود الاستعماري البريطاني، وقد أحدثت المسرحية في حينه رد فعل عنيف، إذ كانت إيذاناً بنظرة الرجل الجديدة للمرأة كإنسانة وصدى للأصوات التي كانت تنادي بمنح المرأة بعض حريتها، وترك الحجاب وهي الحركة التي رفع لواءها الشاعر جميل صدقي الزهاوي، ثم نشر صفاء مصطفى مسرحية باسم ''كاترين'' لا تختلف في شيء عن سابقتها، لقد عدّت شخصية وحيدة لفترة طويلة نموذجاً للمرأة والفتاة العراقية في نظرتها لتحقيق قفزة نوعية للأمام، إذ أنها تعد أول بادرة وصرخة بوجه النظام الاجتماعي.

وفي المسرح العراقي نموذج آخر للمرأة هي شخصية ''سليمة الخبازة'' في مسرحية ''النخلة والجيران'' حيث همومها الذاتية جزء من هموم المجتمع في مقارعته للتدخل الأجنبي والوجود البريطاني ولا بد من الإشارة إلى أن نضال المرأة في العراق لم يكن نضالاً على المسرح فقط أو شخصية مسرحية فقط، فقد كانت المرأة تشارك مشاركة فعالة وفعلية وايجابية في الحياة السياسية.

وهكذا استمر الأدباء ينادون بوجوب مشاركة المرأة مشاركة حقيقية، وليست شكلية، موضحين أن همومها هي هموم الإنسان العراقي بشكل عام، وليست هذه الهموم وقفاً على الرجل، فالمرأة نصف المجتمع "ولا خير في مجتمع نصفه في المطبخ".

ويشكل ظهور يوسف العاني كأديب مسرحي حالة لها تأثيرها الفعال على مسار المسرح العراقي لسنوات عديدة إذ أنه أول أديب مسرحي ينظر للمرأة نظرة تختلف عن سابقيه[2] فبعد اشتداد النضال الوطني وتأجيجه وما صحب ذلك من انتفاضة "1954"، ودفع عدد ممكن من الطبقات الاجتماعية للمشاركة بالنضال اليومي والسياسي كانت شخصية "أم شاكر" شخصية المرأة التي تعرف مكانتها في المجتمع فهي مناضلة واعية لمكانتها وموقعها ومساندة لابنها في مصارعة الظلم، وهي تقف بجانبه تشد أزره وتدفعه إلى مشاركة أكبر حجماً وأكثر التزاماً، وصرختها المدوية على المسرح والتي أطلقتها بوجه الشرطة لا يمكن نسيانها حيث أصبحت "أم شاكر" أماً لكل مناضل وطني، فأم شاكر نموذج لا يمكن نسيانه حتى عدّت قراءة مسرحية "آني أمك يا شاكر".

أما لويجي بيرندللو الأديب الإيطالي المشهور فقد اشاد بالمرأة الحقيقية وجعلها شخصية متقدمة.

وكان الأديب السويدي سترنبورغ يكره المرأة المسترجلة ولا يطيق النظر إليها فيما كان يمجد المرأة الأم والحبيبة ذات الوفاء والإخلاص ويتمسك بها وقد تخلص من امرأة العقلية بسبب شعوره بأن المرأة التي تزوجها لا تمثل طموحه في المرأة الوفية حتى أصيب بسبب ذلك بعقدة نغصت عليه حياته وأدخلته إلى حالة شبيهة بالجنون.

أما بالنسبة للمسرح الأوربي فكان "هنريك ابسن" الكاتب النرويجي ابرز كتاب المسرح الذين تبنوا قضية المرأة ودافعوا عنها، فقد التزم ابسن قضية المرأة التزاماً تاماً فبعد ما كانت أوربا تغط في نوم عميق ولا ترى للمرأة أية أهمية تذكر برز ابسن كمناضل من أجل المرأة وحقوقها لدفعها للمشاركة في الحياة الاجتماعية ورفع الظلم الاجتماعي عنها، وإعطائها قيمتها كإنسانة فكانت شخصية "نورا" في مسرحية "بيت الدمية" من أكثر الشخصيات المسرحية ثورية في حينه، وقد كانت نموذجاً لا بد للمرأة الأوربية أن تحتذى به، وقد تبنت الكثير من الأحزاب والجمعيات النسائية آراء ابسن في الدفاع عن المرأة، وأخذت تعم شخصية نورا في وعي كل امرأة[3].

إنّ ابسن هو الذي حقق ما أراده "ديماس" الذي وجد الوسائل لإجبار الناس على مناقشة المشكلة حيث أصبحت المسرحية على يدي "ابسن" وسيلة لمناقشة المشاكل والآراء التي يعاني منها المجتمع[4] وهو الذي جعل المسرحية الاجتماعية ثورية تتناول موضوع الساعة ألا وهو تحرير المرأة، إن شخصية نورا التي صفقت الباب وراءها لتترك بيت الزوجية ليس مشهداً يعني خروج "نورا" عن طوق زوجها

"الرجل" الذي خنقها وجعلها تعيش بين جدران أربعة، وإن خروجها كان تملكاً لحريتها، وتأكيداً لها، وبالتالي بداية مشاركتها الفعلية في الحياة الاجتماعية كإنسانة لها قيمتها، وهناك أكثر من شخصية للمرأة في مسرح "ابسن" منها "هيدا جابلر" في مسرحية بالاسم نفسه في مسرحية "أعمدة المجتمع" التي تصرخ:

انهضوا أيها المتمردون

وهي تقصد المتمردين على القيم البالية[5].

لقد طبقت شهرة إبسن الآفاق في أوربا بحيث إن الإعلانات عن السكاير والقهوة والملابس كانت تذكر عن طريق إبسن وهو أمر لم يحصل لدى كاتب مسرحي آخر.

لقد كان المجتمع الأوربي ينظر إلى المرأة لا كإنسانة بل كدمية أو كمعبد ولهذا كانت مسرحيات ابسن صرخة قوية جداً ومؤثرة لتغيير واقع المرأة ومكانتها في المجتمع.

وهناك أكثر من أديب مسرحي تأثر بابسن وأفكاره وآرائه في الحياة الاجتماعية ويقف على رأسهم برنارد شو الذي وضع كتاباً عن "جوهر الابسنية" أوضح فيه مكانة ابسن وما أحدثه في نظرة المجتمع بالنسبة للمرأة، وبرناردشو الذي تأثر بابسن وضع شخصيات عن المرأة في مسرحياته لها أهميتها إذ أنه كان يؤمن بالاشتراكية الفابية، وكان يعي ما للمرأة من قيمة في المجتمع فكتب مسرحية "القديسة جان" عن "جان دارك" تلك التي رأت وطنه مهدداً بالخطر، فجمعت جيشاً وقادته بنفسها، وحررت وطنها فرنسا فعلاً، إلا أنها جوبهت من الكنيسة التي عدّتها خارجة عن الدين واتهمتها بالزندقة والإلحاد ما استوجب محاكمتها فصدر قرار بإحراقها في ساحة عامة، ونفذ الحكم فعلاً، ولكن ظهر بعدئذ خطل القرار وخطأه، فرد الاعتبار لها واصبحت قديسة تستحق الإعجاب والتكريم. وباتت مسرحية "القديسة جان" من أحب مسرحيات "برناردشو" إلى القلوب، إذ جعل من الفتاة العذراء أداة تؤدي جميع أغراضه الفكرية، ولكنها مع ذلك احتفظت بصفتها الإنسانية المقبولة وجاذبيتها.

أما في مسرح العبث فالإنسان فيه مسحوق دائماً، لا قوة له ولا حركة لنشاطه ولا قدرة له على التحرك، يعيش بلا اسم، بلا مكان، بلا زمان، تائه وهو دائماً يغوص متاهات لا يستطيع منها فكاكاً، ويبقى مقيداً وأسيراً يرضى بالخنوع. الإنسان في مسرح العبث أو "المسرح الطليعي كما يقال أحيانا" لا فرق أن يكون رجلاً أو امرأة فلا فائدة لوجوده في الحياة، وينطبق هذا على أبرز شخصية في مسرح العبث وهي شخصية "استراغون" في مسرحية صموئيل بيكت "في انتظار جودو" والذي نراه منذ البداية قاعداً لا يتحرك بعد أن تورمت قدماه، ونرى الإنسان في مسرح العبث أسير همومه، حتى أن اللغة التي يتعامل بها يومياً تصبح لديه عقيمة، وليست ذات قيمة، كما في مسرحية "الدرس" ليوجين يونسكو.

وفي مسرحية بكيت "الأيام الحلوة" نرى المرأة "ريني" قد غاصت في الركام إلى درجة لا نراها وهي تعيش بفراغ لا فكاك منه وتتخلى عنها الكلمات ويعتريها الجزع من التردي في الفراغ والصمت المقيم المقيت، ثم هناك شخصية "الفتاة" في مسرحية "المستقبل في البيض" ليوجين يونسكو حيث نرى الفتاة تجلس على بيض لا تبارحه، وأنها تنتج أو تبيض بشكل هائل، بحيث يملأ البيض المرأة للأطفال ومشاركتها في بناء المجتمع خاصة إذا علمنا أن هذا المسرح وكأنه ماكنة تفريخ، وهي دلالة ورمز على عدم أهمية إنجاب بيض خال من الحياة.

وإذا رأينا هذه الشخصيات وهذا الفكر فلا عجب إذا علمنا أن معظم أدباء مسرح العبث، قد انكمشوا على أنفسهم وابتعدوا عن المشاركة في الحياة العامة، واتخذوا مواقف معادية لقضايا الإنسان ونضاله مثلما فعل "يوجين يونسكو" في تأييده للحركة الصهيونية وإعجابه بها. إن مسرح العبث يعبر عن يأس الإنسان في الحياة وقنوطه منها.

وعلى نقيض هذا نرى مسرح برتولد برخت وبيتر فايس ومكسيم غوركي ولوركا، إذ أنه مسرح الالتزام التام الواعي لمكانة الإنسان المناضل الفاعل في المجتمع المشارك في بنائه، فالإنسان في مسرح برخت مناضل يعي مكانته في التغيير الاجتماعي، وقد شخص أعداءه ويعرف مع من يناضل، ولأجل من يناضل، وهو يخلق من كل ما يحيطه حركة ونشاطاً وهمة، ويكسب يومياً مناضلين يقفون إلى جانبه، ويتبعون آراءه ويدافعون عنها. والإنسان في مسرح برخت لا يمكن أن يكون مقيداً، كما في مسرح العبث، بل هو حركة دائمة يروي الأحداث ويوقظ المشاهد، ويحمله على اتخاذ موقف من العالم المحيط، ويدفع بالمتفرج إلى مواجهة الأحداث ودراستها والإنسان ليس متحجراً بل قابل للتغيير، وبيده الأشياء يمعن بها ويستخدمها بعقله وعلمه بعيداً عن المثالية والغيبية، وإن الإنسان بوجوده الاجتماعي يحدده العقل، ومسرح برخت عكس المسرح الأرسطي الذي كان يرى في الإنسان غير قابل للتغيير، وأنه شيء ثابت "ويعتبر برخت حين يعالج مشاكل الدين والإنسان من أفضل الكتاب وأبلغهم أثراً في إثارة تداخل الروح الشاعرية بالفكر السياسي تداخلاً وثيقاً"[8].

ففي مسرحيته "المرأة الطيبة من سيتزوان" نرى "شن تي" وهي شخصية المرأة الرئيسية محاطة بالشحاذين والمحتاجين من أصدقائها، حيث تبدي إصرارها العنيف على المبدأ، فتأخذ بمساعدة الفقراء وتقيم مصنعاً تقدم فيه الأجور والعمل. ويرى برخت أن "سيتزوان في هذه المسرحية تدل على كل الأماكن التي يستغل فيها بعضهم بعضاً"[9].

وبرخت في التزامه بقضايا الإنسان وفكره، عمل على تعرية النازية بكل ما استطاع وخاصة في المسرح، وقد نال منه هتلر، وأمر بحرق كتبه ومسرحياته علناً، وقد كتب مسرحية "اغتصاب

السلطة"، وفيها يتهكم على هتلر وطريقة استيلائه على الحكم، وتعد شخصية "الأم" بمسرحيته المعروفة بالاسم نفسه والتي اقتبسها من رواية "الأم" لمكسيم غوركي رائد الواقعية الاشتراكية، عملاً فريداً، يتفوق عما عداه من انتاج في ذلك الحين. إنها تصور تحول امرأة عاملة إلى الإيمان بالقضية والعمل من أجل تكريسها، فهي توزع المنشورات وتساهم في المظاهرات، ثم تناقش أفواج المضربين وتجادلهم وتنهض من فراشها وهي مريضة لتساعد الحزب في وقت الحاجة[10]. إن برخت يخلق علاقات إنسانية على المسرح، تختلف اختلافاً تاماً عن العلاقات التي تسود مسرح العبث؛ ففي مسرحية بنادق السيدة جيرار "نرى شخصية السيدة "جرار" وهي المرأة التي فقدت زوجها صياد السمك في الحرب الأهلية الاسبانية"[11]، إذ تحاول في البداية أن تسلم بنادق زوجها إلى الجيش الجمهوري، وبذلك تأخذ هذه السيدة البنادق وتذهب مع ابنها الآخر وأخيها للمحاربة بجانب الشعب الاسباني المستميت من أجل حريته، أما شخصية "الأم شجاعة" فتتعامل مع الحرب لذلك وجب عليها أن تدفع الثمن، والثمن هذا أبناؤها الواحد تلو الآخر، فيقتلون جميعاً وتقتل الشجاعة والأمانة والإخلاص، ولهذا فهي تخرج من الحرب وقد خسرت أبناءها وتجارتها وكل شيء، وقد أوضح برخت في هذه المسرحية عيوب النظام الرأسمالي ومآسي الحرب وويلاتها.

وفي المسرح العربي، شخصيات كثيرة للمرأة، بمضامين مختلفة فكل أديب مسرحي تناولها حسب فهمه وموقعه الاجتماعي فشخصية "شهرزاد" تلك المرأة المعروفة في قصة ألف ليلة وليلة، والتي استطاعت بدهائها وذكائها وأنوثتها أن تحول "شهريار" من سفاح لبنات جنسها إلى مطواع لها ولهن، وبذلك أنقذت كل الفتيات من شره وفتكه.

وقد نسج حول "شهرزاد" أكثر من أديب مسرحي، فكشف توفيق الحكيم مسرحية "شهرزاد" التي بدأها بعد انقضاء ألف ليلة وليلة على ارتباط شهريار بشهرزاد. أما علي أحمد باكثير فقد كتب مسرحية بدأها بحادثة زوجة شهريار مع العبد الأسود[12]، والتي ولدت "هذه الحادثة" لدى شهريار العنف الذي جعله يقتل في كل ليلة فتاة عذراء، وقد تم تأويل ذلك إلى عدة أمور، منها أن شهريار كان عنيناً، ولم يكن يستطيع أن يزاول عمله كرجل عند حضور الفتاة في الليل، فكان يتخلص منها مع مطلع الفجر، كي لا ينكشف أمره، ومنه أن زوجته أرادت أن تغيظه لإنهاكه عنها، فألبست إحدى جارياتها وزينتها بزي عبد أسود، بعد أن صبغت وجهها فما أن رآها شهريار حتى انقض عليها، وعلى زوجته، وفتك بهما للتخلص منها، انتقاما من المرأة.

ونجيب سرور كتب ثلاثية عن "بهية وياسين" أبرز فيها دور بهية ومدى تمسكها بحبيبها ياسين بقدر تمسكها بالأرض التي جمعتهما سوية [13]، وقد أراد سرور من كتابة شخصية "بهية"

أن يبرز ويوضح أن الإنسان يناضل من أجل أرضه، ولا يعمل على تركها مهما لحقه من أذى، وأن بهية بتمسكها بالأرض تعمل على تجسيد هذا النضال بعد ربط مصيرها بياسين، فتجعل منه صبياً ومناضلاً معها من أجل قضيتها و"بهية وياسين" أسطورة شعبية معروفة جداً في أوساط الفلاحين بمصر.

إن هناك شخصية للمرأة تختلف اختلافاً تاماً عما ذكرنا وهي شخصية مهمة في المسرح العالمي بشكل عام، ولا يمكن إغفالها مادمنا نتحدث عن المرأة في المسرح إنها شخصية "جولييت".

حيث أصبحت في مسرحية الأديب المبدع "شكسبير" نموذجاً لكل عاشق ومتيم بحبيبته، تتعلق بفتى أحلامها وتسعى له، وشخصية "جوليت لم تقل أهميتها منذ أكثر من أربعة قرون وفي مختلف الظروف الاجتماعية فهي الشخصية المحببة لكل فتاة تسعى نحو فتى أحلامها، وتعمل من أجله وتضحي في سبيله، إذ أن جوليت انتحرت وأنهت حياتها عندما علمت أن حبيبها "روميو" قد انتحر أيضاً ولم تكن تعلم أن انتحاره كان خدعة لتلافي موقف حرج تعرض له.

وفي أدبنا العربي ومسرحنا شخصية "جوليت" ولا تقل عنها أهمية، إنها "ليلى" مع قيس، ولأحمد شوقي مسرحية باسم "قيس وليلى" فيها من عذوبة الشعر وسلاسته الكثير.

لا بد لي أن أوضح أن المرأة لم تكن على المسرح فقط، يمنحها الكاتب أفكاره وآراءه وينفذ منها إلى ما يريد تحقيقه من آراء ومعالجات ورؤى، بل كانت ممثلة وأديبة مسرحية ومساهمة بالعمل من أجل المسرح كمصممة ديكور أو ملابس أو اختيار موسيقى فهذه الأعمال لها ارتباط مباشر بالمسرحية وإخراجها الفني، ففي مسرحنا العراقي لا يمكن نسيان "آزادوهي صاموئيل وشذى سالم وفاطمة الربيعي" كممثلات لهن قيمة لا تنكر وفي المسرح العربي سناء جميل وسميحة أيوب ومحسنة توفيق وغيرهن. أما في المسرح العالمي فإن السيدة "سارة برنار" كانت ذات نفوذ لا يبارى حتى عام 1812م وهو عدّت الذي مثلت فيه دور "الليدي ماكبث" في مسرحية شكسبير "ماكبث"، وسارة سندنز انكليزية. وقد اعتبرت من أعظم الممثلات اللاتي ظهرن على المسرح الانكليزي آنئذ. أما السيدة "افرابيهن" فتستحق الذكر لأنها أول امرأة تلقى نجاحاً كبيراً ككاتبة مسرحية محترفة في المسرح الانكليزي.

وهناك السيدة "سنتلفر" التي اشتهرت بمسرحية "المقامر"، وأوضحت فيها شرور المقامرة وخطرها، وتعد "سارة برنار" أشهر وأعظم ممثلة فرنسية حتى الآن، وتكريماً لها أنشئ في باريس مسرح يحمل اسمها، يعتبر من أرقى مسارح العاصمة الفرنسية.

وتعتبر "هيليانا نايجل" من أروع الممثلات في تاريخ المسرح الألماني، وواحدة من الذين ساهموا بنشاط كبير جداً في إرساء قواعد مهمة في الحياة المسرحية إلى جانب ما قام به زوجها "برتولد برخت". ومنذ أكثر من مئتي

سنة لم تظهر أي أديبة مسرحية في الأدب الانكليزي مثلاً أو الفرنسي سوى الروائية الانكليزية ''اجاثا كريستي'' التي اشتهرت بمسرحيتها ''المصيدة'' وبعض الروايات البوليسية. ولقد أوردنا نماذج لأهم المساهمات التي قامت بها المرأة في المسرح بشكل عام، وهناك الكثير من الأدباء الذين كانت لهم شخصيات مهمة في مسرحياتهم في مختلف مراحل الأدب العالمي.

*** مثري العاني/ باحث عراقي في شؤون المسرح والتراث الشعبي.**

الهوامش:

1. راجع بحثنا المنشور في مجلة الثقافة البغدادية، العدد الخامس/ 1971، والمعنون (يحيى ق/ دراسة في حياته وأدبه المسرحي).
2. راجع بحثنا المنشور في مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني ـ 970، المعنون أثر التراث في المسرح.
3. الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ـ تأليف عز الدين إسماعيل، ص 256.
4. ابسن النرويجي ـ تأليف ميوريل برادبورك ـ ترجمة فؤاد كامل يوسف، ص 23 .
5. تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي ـ تأليف ب ايفور ايفانز ـ ترجمة عبد المطلب عبد الرحمن ـ ص 187 .
6. مسرح برنادشو ـ تأليف د. على الراعي ـ القاهرة ـ مطبعة مصر ـ 1963 .
7. بريخت ـ تأليف رونالد جراي ـ ترجمة نسيم مجلي 102 .
8. المصدر السابق ـ 103 .
9. دراسات في الأدب الاوربي ـ تأليف شفيق مقار ـ ص 126 .
10. المصدر السابق ـ ص 127 .
11. تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي ـ ص 164.
12. المصدر السابق ـ ص 144.
13. المصدر السابق ـ 145 .

مصادر البحث:

1. المسرحية العربية في العراق/ الدكتور علي الزبيدي ـ القاهرة 1967 .
2. مجلتي الثقافة والتراث الشعبي أعلاه.
3. ابسن النرويجي/ لميوديل برادبورك ـ ترجمة فؤاد كامل يوسف.
4. الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر/ لعز الدين إسماعيل.
5. تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي/ ب ايفورايفانز ـ ت . عبد المطلب عبد الرحمن.
6. تاريخ المسرح الحديث/ جنيف سيرو ـ ترجمة بدر الدين قاسم.
7. بريخت / لرونالد جراي ـ ترجمة نسيم مجلي ـ القاهرة 1972.
8. دراسات في الأدب الأوربي/ شفيق مقار.
9. مسرح برنارندشو / الدكتور علي الراعي ـ القاهرة 1963 .

دموع الفرس

كاظم الجماسي

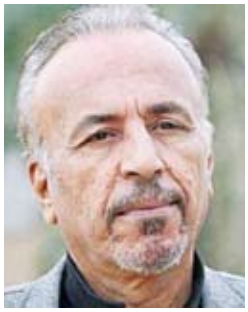

بات مألوفا منذ زمن لدى متبضعي سوق المدينة، وأولادهم العابثين رؤيته، مقتعدا رأسا واحدا من الاعمدة الكونكريتية الموزعة على سياج متنزه المدينة العام، يفترش اليته قمة العمود، وساقاه تتخالفان على ركبتيه اللتين تحملان قفا راحتيه، بوضع المستغرق الساهم بدعاء ما، مبتسما ملء وجهه، وفتائل شعر رأسه تشبه هوائيات حلزونية، مثبتا نظراته في نقطة واحدة هناك، في مرمى بصره، نقطة لا يراها احد غيره.

يكمل (بوذا) دورته يوميا متنقلا من قمة عمود الى قمة آخر من الاعمدة الاربعة والعشرين المحيطة بالمتنزه، بمواظبة لا تخطئ او تكل، وليس من احد يدري ان كان ينام ام لا، ومتى كان يأكل او يشرب، او كيف يقضي حاجته، فضلا عن كونه لا يأبه لتقلبات الطقس او المناخ اذ ليس من اثر باد لتلك التقلبات على هيئته. كذلك ليس في علم احد من اين اتى... هل ثمة من اقارب له؟ بنات أو بنين؟ أخوال أو أعمام؟ ليس من أحد يعرف.. حتى الشيطان نفسه.

تمرح على رأسه وكتفيه البلابل والعصافير، ويعابثه اثناء ذهابهم وعودتهم من المدارس، الاولاد المشاغبون يقذفون اليه بحصى الرصيف او قشور الفاكهة، ينهرهم المارة ولا يرتدعون، ويحدث ان ترمي اليه النسوة المتبضعات بقطع من العملة المعدنية او بعض من الخضار او الفاكهة ايفاءً لنذر كن نذرنه على سبيل الاحسان، فيما تظل ابتسامته العريضة راسخة، غير معنية بأيما حال سوى تصويب النظر على ذات النقطة هناك حيث اللامكان.

لم يكن احد من رجال المدينة او نسائها بقادر على الحصول على يقين يطفئ جمر الفضول فيما يخص بوذا، وقد تحولت حالته، خلل تراكم الزمن الى قضية تشغلهم اثناء لقاءاتهم اليومية في المقاهي ومجالس السمر، فتعددت واختلفت الروايات بشأنه فمن قائل انه عين من عيون محافظ المدينة.. الى قائل انه ابن السبعة شهور مخبول ولدته زانية واودعته، ذات ليلة، المتنزه وهربت مجللة بالخذلان.. وغير ذلك من الروايات، ولكن تلك الاقاويل لم تكن لتجيب على تساؤلهم الاكبر وهو كيف للنذور التي يكون بوذا وسيطها، من دون علمه، تستجاب؟

وهو الامر الذي ما فتئ يؤكده حارس المتنزه الكهل الذي ورث المهنة عن

ابيه، مشفوعة بوصيته المشددة لابنه بعدم المساس بحرية بوذا او تقييدها، وكذلك اجزال العطاء له قدر الاستطاعة. ذات مساء فيما كان الحارس يقتعد وزوجته الحصير على أرضية غرفتهما الصغيرة المقامة في أقصى المتنزه، يحتسيان الشاي، أباح الحارس بسر مقرون بتحذيرات مشددة بكتمانه لزوجته التي اعتادت كتمان السر حال تلقيه بإيداعه أذن أقرب جارة تصادفها.. مقرونا أيضا بتحذيرات مشددة بالكتمان.. قال الحارس:

- لم أكن الحظ ذلك، فيما مضى كنت أرى في البدء شبحا لا يمكنني تشخيصه، يتحرك في أعطاف الظلمة، ولما كنت أصرخ من هناك، يختفي في الحال، حتى بات المشهد يتكرر لليال عدة، وبدا لي أنه ظل لامرأة ملفعة بسوادين، سواد عباءتها وسواد الظلمة المحيطة بها. ومن دون أن تند عني أيما نأمة رحت أرقب المشهد، ناوليني استكانا ثانيا بسكر قليل.

خاطب الحارس زوجته، بعد أن تجشأ، فيما تستحثه زوجته على اكمال السرد، ناولته الاستكان فعاد ليقول:

ـ تيقنت انها امرأة حقا، ولكن لم يكن يبين من ملامحها سوى جسد فاره وبريق وامض يتحرك في عينيها، تدور حول كل عمود من اعمدة المتنزه تلتقط عطايا بوذا تودعها خرجا تحمله لا يمتلئ حتى آخر عمود ثم تنسل خفية تغيبها ستارة الظلام. وغير ذات مرة سمعتها تترنم بلحن غريب يتواشج إيقاعه الهين بنواح ممطوط غامض، ركبني الفضول أكثر مما أرتبت، فكمنت لها في الليلة التالية خلف العمود الاخير ...

الا تعطيني استكانا ثالثا يا امرأة؟

كان ما زال يلهث وهو يستل سيكارة من علبته ويشعلها، امتص منها نفسا مبتورا، إذ دهمته نوبة سعال، ما لبثت ان سكنت. اخذ رشفة من شايه ونفسا من الدخان، متجاهلا تأنيب زوجته على إفراطه في التدخين، وتستحثه على اكمال قصته، سألها:

ـ أين وصلنا؟.. أجابته على الفور.. كمنت لها..، أسترسل الحارس:

ـ كمنت لها قاطعا أنفاسي خلف العمود الاخير فلما أمست بمتناول يدي امسكت بها صارخا (قفي) ولم ألمس الا عجينة طرية خرت من بين يدي الى الأرض مغشيا عليها، أسرعت فجلبت الماء، هممت بدلقه على وجهها، ولكني وجدت الوجه ملثما، أمطت اللثام، وإذا بي أصطدم بمفاجأة على غير توقعي، احتجت لبرهة من الوقت كي ادرك انها .. من هي؟ هل تعرفين من كانت؟

سألته زوجته بلهفة صارخة:

ـ من؟

تأفف قليلا، ثم أجاب:

ـ مظلومة.. نعم مظلومة الارملة، بلحمها وشحمها، تصوري تلك الذئبة المستوحدة، "ام الخشم اليابس" التي سجنت مفاتنها الخارقة بالسواد، واحتمت كل ذاك الزمن بالوحدة تكابر فقدانها زوجها، تتسول ليلا مخلفات "بوذا"؟!!

راح الحارس يبحلق في وجه زوجته المنبهر، محاولا قراءة وقع احداث روايته على قسماتها، وهو يمتص بنهم دخان سيكارته الموشكة على الانطفاء. لم يرتسم على وجه زوجته أي ملمح تصديق، فحلف لها أغلظ الايمان، أنها مظلومة وليس غيرها.. فسألته: ـ وماذا بعد؟ أجابها انه

شعر بحياء شديد فتوارى حالا من المشهد، تاركا اياها تستفيق وتتلفت مذعورة ثم تلملم نفسها وتمضي.

روى شيخ طاعن في السن من شيوخ المدينة القدامى، وكان من الناجين القلائل من بطش سنين القحط العجاف التي ألمت بقرى الجنوب فيما مضى، فنزح شأن من نزحوا من قرى الجنوب الى المدينة هربا من ميتات محققة بسبب طغيان الاقطاعيين وقحط لحق بالأرض والضرع، روى ان أبا "مظلومة؟ كان مالكا لعدة دوانم من الارض وعدد لا يستهان به من رؤوس الجاموس والابقار والاغنام، وكان رجلا عادلا منصفا وكان الشيخ – الراوي – لما كان صبيا يعمل راعيا للماشية في أملاكه؟ وهو شاهد عيان على ما يرويه، ويضيف، كان وقوع أراضيه وسط ضياع مترامية لإقطاعيي المنطقة، سبب تحاملهم عليه ومحاولاتهم المتكررة سلبه ممتلكاته او تدجينه، غير انه لم يرضخ يوما، بل راح يقارعهم ببسالة مشهودة، وقد سميت ابنته مظلومة لانها لم تر يوما أباها، فحين سقطت من رحم أمها مات هو، وراحت الأم تاخذ دور الأب المتمرد، تتمنطق نهارا وليلا باحزمة الرصاص، وبندقيتها البرنو لم تفارق كتفها متعقبة آثار اللصوص والطامعين، ولا تترجل عن صهوة فرسها الا فيما تقتضيه رضاعة "مظلومة؟" حتى شاع صيتها في الأنحاء باسم (مكيه أم تفكه) وقد ورثت "مظلومة" من أبويها هذا الذي ترونه من أنفة وكبرياء، ولست أدري لم أطلقوا عليها "ام خشم اليابس" وهي العزيزة البأس الكريمة النفس، لا لوم عليها ولا تقريع لما آلت اليه تحولات حياتها بعد زيجتها المعذبة، وقد عانت الأمرين، غياب بعلها المتكرر، وقد كان رجلا صامتا غامضا مهابا، ثم فقدته الى الابد.

لا يمكن لأحد في طول المدينة او عرضها ان يرتاب بحديث الشيخ الطاعن لما عرف عنه من حكمة وصدق طوال السنين الماضية، غير ان خبر ارتيادها المتنزه ليلا، مضافا اليه ما أوردته زوجة الحارس في روايتها، احدث ارتجاجا جديدا في ريبتهم فراحت تتناسل تقولاتهم.

- قيل انها جنت الكثير.. الكثير من عطايا (بوذا).

- وان في حوزتها مخبأ سريا كبيرا – الله وحده يعلم – كم من الاموال مكدسة فيه..

- نشدانها العزلة ليس بسبب حزنها المقيم، بل خوف من عيون الحساد واللصوص..

- في الامر شيء مريب.. ما نوع علاقتها مع (بوذا)..

- شاهدها الحارس، ومن بعده كثيرون، ترقص واياه، ثم تلامسه، ثم تقبله، وتعانقه، وتـ.. وتـ..

- لماذا تشفق بقوة عادة على متسولي المدينة لاسيما الاطفال؟!.. هي تشفق عليهم ليس في سبيل الله، بل هم اولادها حصرا، تلدهم سرا، تحتضنهم وترعاهم حتى يصلب عودهم، ثم تطلقهم متسولين في الشوارع طمعا منها بالمزيد والمزيد.

ظلت كرة الثلج تكبر وتكبر حتى استحالت الى ان (بوذا) ليس مجهولا تماما، فقد روى أحدهم أنه عاد صديقا له وكان مصابا بجروح غائرة، خلفتها احدى معارك الحروب المتكررة، وكان الصديق في حال مزرية ينازع الموت، ومضى قائلا:

- جلست على حافة سريره، أمازحه

كيما أبث العزم فيه، قائلا له انه بصحة ممتازة والامر يسير هين واريده ان يتعافى بسرعة، اذ انني احتفظ له بزوجة بارعة في الحسن، ولا ينقص من جمالها شيء سوى اسمها "مظلومة"؟ ولما نطقت الاسم، كأنما قرصته حية، استوى جالسا على الرغم من حالته البائسة وصاح:

- من؟ اجبت مندهشا: "مظلومة"!! وما لبث ان قال: طويلة كنخلة، بضة كقطن مندوف، عيناها ينابيع، شعرها افياء، وجناتها قمران، جبهتها جبل أشم، مشيتها كما أميرة.. سألته مندهشا اكثر: هل ألتقيتها؟! أجاب: نعم .. وأضاف: صديقي.. زوجها محكوم بالاعدام لعدم امتثاله وتمرده على الاوامر العسكرية، وقبيل تنفيذ الحكم به مع مجموعة متمردين، قام بقيادتهم ليلا عبر نفق حفروه في أرضية السجن وهربوا عبره.. وهم أحرار حتى اللحظة. سألته مستوضحا: صفه لي. فوصفه بنحو ان أنت جردت (بوذا) من شعره الكث ولحيته المسترسلة ثم من أسماله كان هو .. هو لا غيره..!!

هتك السر اذن!! فبانت الحقيقة عارية بالكامل كما يقين.. (بوذا) زوج (مظلومة الارملة) المفقود ..

قررت بلدية المدينة ذات يوم انشاء نصب في قلب المتنزه، تصفه خارطة المشروع بدائرة خرسانية واسعة بارتفاع مناسب يقوم على محيط قاعدتها أربعة وعشرون عمودا مخروطيا من الخرسانة وبأقطار متفاوتة، تبدأ ركائزها من دائرة عريضة في الأساس، ما تفتأ كلما ارتفعت تضيق حتى تتم رؤوسها مدببة كأسنة حراب، ستحمل فيما بعد تمثالا من البرونز لفرس أفخاذها معضلة، وبطنها ضامرة، وعروق جيدها المتطاول تباهي شعر عرفها السابح مع الريح، نافرة تجمع وهي تشهر قائمتيها الأماميتين ازاء السماء بعنفوان جامح.

وقد حددت البلدية سقفا زمنيا لانجاز النصب أقصاه ليلة عيد المدينة ذي الأربعة نهارات..

أغلقت أبواب المتنزه بين زحمة تساؤلات السكان واستغرابهم، اذ راحوا يصنعون تخمينا إثر تخمين، (لقد وشى أحدهم بـ(بوذا) وقد طوق المتنزه وأغلقت أبوابه من اجل القبض عليه...) و(ليس الامر متعلقا بـبوذا ولكنه ـ حسب مسؤول صديق في الحكومة ـ من أجل إنشاء سجن جديد بعد أن ضاقت السجون القديمة بنزلائها ..) و(كلا، أن الأمر لا ذاك ولا ذا، بل لاقامة قصر إقامة جديد لمحافظ المدينة..) و..و.. وغيرها من التخمينات.. فيما علقت في اليوم التالي على أبواب المتنزه يافطات تعتذر فيها البلدية عن استقبال الزوار، وذلك لأغراض التعمير، وغص المتنزه بعد ذلك بحشود من العدد والآليات ومواد البناء والعمال.. وبدأت أعمال الحفر ودق الركائز، وغدت الأغصان والجذوع والاوراق كالحة بفعل الأتربة المتطايرة، وراح ضجيج المعاول والآليات المتفاقم يطرد بقايا زوار المتنزه المدمنين على زيارته، فقد غادرته البلابل والعصافير والفراشات، بينما راحت الخطى والعجلات الثقيلة تسحق بلا مبالاة العشب المضمحل، الذي باتت صفرته الشاحبة تنبئ بموت قريب.

أقام النجارون القوالب الخشبية لقواعد الأعمدة التي ستمتلئ فيما بعد بالخرسانة المسلحة بأسياخ الحديد، وربطوا بينها

سكلات تيسر تنقلهم عليها من قاعدة لأخرى.

وقد شوهد بوذا بشهادة الحارس يتمشى أنصاف الليالي فوقها متفكرا، وقد غادرت قسمات وجهه ابتسامته المعهودة..، ومع مضي الوقت واشتداد وتائر العمل، حالما كان يصل الى فتحة القاعدة الخشبية لعمود ما، والتي ما فتئت تضيق كلما ارتفعت، يدخل رأسه في جوفها راكعا مطلقا عواء فاجعا، كما لو أنه أسد طريد..

استحال في الايام التالية لون أبنية المدينة وأزقتها وطرقاتها ترابيا، اذ ما انفكت تهطل من السماء، متصلة، أمطار من تراب ناعم، حتى باتت الرؤية في وضح النهار لا تعدو مترا او مترين، بينما يتناهى الى الأسماع صراخ مصحوب بمتلازمة تترد بلا انقطاع.. (الباب التي تأتيك منها الريح سدها واستريح)...، ولأول مرة شوهدت (مظلومة الارملة) تعدو في الأزقة والشوارع تستغيث نائحة، منفوشة الشعر، مكسوة بالتراب حتى لا يبين في هيئتها معلما غير فتحات الانف والفم والعيون.

أدلهمت السماء، في الليلة السابقة لنهار العيد، وثقل هواؤها ومضت تتخلله عواءات موجعة طويلة مرسبة في قرارة النفوس أسف غامض، وتردد القمر ليلتها في الظهور حتى شوهد بالكاد أخيرا.. يبدو هلالا نحيفا خجولا، تقلب الاولاد المشاكسون على اسرتهم، تقلق مناماتهم رؤى مضطربة، فيما الأمهات قضين الليل واجمات وهن ينصتن لنتف من العواءات، تحملها السنة الريح الى أسماعهن فتكف أيديهن عن صنع وإعداد معجنات وحلوى العيد، وبقين ساهرات حتى بانت أخيرا كرة الشمس حمراء خابية من خلف ظلال معتمة سود.

وهن في طريقهن صباح العيد الى حيث المتنزه، باحت زوجة الحارس لجارتها، ان (بوذا) لم يعد يظهر كعادته في الايام الاخيرة، حتى غاب تماما عن الأنظار قبل ثلاث ليال عندما صبت المكائن خليط الخرسانة في اجواف القوالب الخشبية، وقد بذل زوجها المستحيل في العثور عليه، ولكنه لم يفلح... في حين يبدو أن مسا من الجنون اعترى (مظلومة الارملة) وظلت تدور في الازقة والطرقات عارية بعد ان مزقت ثيابها كلها وظلت تزأر كما لو كانت لبوة طريدة..

لما بلغ الوقت ضحى العيد، وبناء النصب قد اكتمل، تجمهر سكان المدينة كلهم، أطفالهم ونساؤهم ورجالهم في مهرجان ستؤرخ له المدينة، اختلطت فيه ألوان ملابس الصغار البراقة بألوان اردية ذويهم الكامدة مخلفة في حدقات العيون لونا كامدا واحدا، وعلى زعيق الطبول والابواق الذي أخذت تطلقه الآن فرقة موسيقى البلدية، قدم محاطا بمساعديه.. محافظ المدينة، كان عليه ازاحة الستار عن النصب.

لحظة أمسك المحافظ حبل الستار، تفاقمت همهمة غامضة وسط الجمهور، وراح الجميع يتلفت، تلتقي العيون حائرة في اجواء متوترة تبحث عن اجابة. بينما الستار يتكشف متساوقا مع حر لاهب يتلظى في أرجاء المكان، مسيلا عرقا مالحا، راح يلذع المحاجر، حتى إذا اكتمل ظهور النصب، فوجئ الجميع بقطرات حمر قانية تتساقط متواترة من مقلتي الفرس، وتتناثر فوق رؤوس المحتشدين.

لوحات مفخخة بقصائد لا مرئية

لطيف هلمت

من اية مرآة
يتدفق هذا الصوت الهادر
ومن اعماق اية عاصفة
يتقاطر هذا الصمت ...
صمتا ايتها الاحياء
لقد آن الاوان ان تتكلم
الموتى..
للسياسة الف طريق وطريق
تسعمائة وتسعة وتسعون منها
تؤدي الى باب:
الحرب
الموتى يحتفلون
احتفاء بميلاد شهيد قديم
سيغنون دقيقة واحدة من اجله
بصمت...
ثمة صحراء... حبلى بالضحك
ربما سمعت انباء
هطول الامطار ...
وثمة قمة مثقلة بالبكاء
ربما تدرك بان الثلوج ترحل ...
تدور حرب شريرة في تلك المقبرة
ربما الاموات الفقراء
ينوون سلب قبور الاموات
الاثرياء...
حدسي ينبؤني بأن العشق
في الالفية الثالثة
يعلب ويباع في الاسواق السوداء
كاقراص منع الحمل...
فلتهشم العاصفة فأسها المزنجرة
لأن آلاف الورود تود ان تتفتح
ولتخرس البنادق كلها
لأن طفلا ينوي ان ينام
ولتصمت الأباطرة كلهم

لأن شاعرا يتكلم...
من لم يستطع ان يتحول الى:
وردة ..
بين ثنايا جدائل صبية
يستحيل عليه ان يصبح: شوكة
مسمومة...
تحت اقدام الطغاة...
أحلم بان رأسي مجمرة
يرسم طفل بجمراتها الوهاجة
امرأة تصلي..
ربما هي امي...
ربما... كلمة واحدة
توقد آلاف الشموع في عمق ليلة
وبرعم واحد في احدى الصحارى
يتحول الى غابة..
ورب حبيبة في قلب عاشق
تصبح نهرا
ورب سماء تتحول الى زنزانة لنجمة
وعالم فسيح يصبح قفصا
لقلب...
من يدري ماذا تروي

النجوم الزرقاء طوال الليل الحالك
للينابيع ...
من يحدس ماذا يقص
طوال موسم الشتاء
لأغصان الغابة العارية:
طائر...
دوما في أيد الطغاة
تنمو البنادق
وفي الأرض تنمو الزنازين
وفي قلوبنا نوافذ جديدة
دوما في الارض تنمو الشرطة
وعلى اجسادنا ادوات التعذيب
وفي اعناقنا تنمو حبال المشانق
ودوما في قلوبنا يولد عالم جديد.
رشفت قطرة من عطر فمك
تحولت الى غيوم
وامطار...
والآن اينما توجهت اترك ورائي
بساتين الورود
وإن وددت ان اكتب قصيدة
تتدفق الازهار من قلمي ...

كتبت هذه القصائد اصلا باللغة الكردية

دموع حلبجة

الى - شيركو بيه كس

رياض الغريب

عندما اغتسلنا بماء حلبجه
امرأة تراقبنا
عجوز ترملت في حروبنا القديمة
أتذكر أبي الذي أسره الكورد
كان شرطيا مسالما
يساريا ينحت في جبل ما.. أحلامه
ويحب الثوار كثيرا
لهذا
هي.. لا تكرهنا
نحن الذين نغتسل بماء حلبجة
تكره الرصاص الذي تكوم قرب قراها
المكان قبر مفتوح لورد حياتها
الرصاص الذي ثقب ظهر الحقيقة
اخترق رؤوساً بريئة
لذا
أنا لا أشك بنوايا المكان
بنوايا المحارب القديم

هو يضع سرواله الجبلي
وصورة التقطت على عجالة
في متحف يضم اصواتهم
وهي تختنق
بينما أنا
أقف لألتقط صورة للذكرى
هو
فقد زوجته
بيته
أربعة أولاد
دفنوا أحياء في صحراء النجف
بينما

أنا أضع يدي بماء حلبجة
مبتسما للمصور
مبتسما للمحارب القديم
كي ينسى جرحه ورمال الصحراء
كيف.....؟
كيف.....؟
كيف..... ينسى ؟
الجبل ينز دماء ساخنة
آه
تقول الأغنية
انين الامهات في قرى هورمان
صرخات البيشمركه وهم ينظرون
لبيوتهم اسفل الجبل وهي تحترق
بينما انت
تقول لسائق التكسي
/نازانم عربي كاكه/
هو لا يعرف سوى حكايات الآباء
وما تركه الرصاص على الجبل
هكذا تقول الأغنية
الفدائيون حملوا البنادق في الجبل
قبل ان تضع فرحك هنا
اصمت قليلا
وتذكر

من فقد زوجته
بيته
وأربعة أولاد
دفنوا أحياء في صحراء النجف
وصلت رسالتك
لا احد يتذكر الان
ما حدث في حلبجه
عندما اختنقت
كتبت رسالة مطولة
الى الله
لكن
السكرتير الرابع
منع وصولها
كم سكرتيرا
في الارض
يمنع وصولنا الى الله
يمنع ان نحبه
كما نريد
يمنع اغنية
في قلوبنا
يمنع ضحكة
لأنه سكرتيرا
رابعا مثل عبيد

يمنع
كل شيء
حتى اللغة
حين تخنق
الاشياء
تركض مثل طفل الى الله
لكن السكرتير الرابع
يمنعها
من الوصول الى الخامس
متى نشعر
ان الله
لنا وحدنا
دون استعلامات
وحرس
دون سكرتير
رابع
عندما
تختنق المدن
اكيد سيكون الله
حاضرا في احلام
الناس
يالله
من فضلك
سرح من الخدمة
كل سكرتير
لكي
نفتح بابك
وندخل
ندخل كعشاق بسلاء
وننام في حضرتك
من فضلك
احل على التقاعد
كل سكرتير
لك في الارض

بائع التمر

جبار الكواز

لا وقتَ لديهِ
فالنخيلُ مسافرٌ.
في ظهاري (آب)
خائفاً
من وحشةِ الشوارعِ
وموتِ الظلالِ
وشحّةِ الحليبِ
في اثداءِ آبارِ الملائكةِ
وهو يرتجفُ كلّما
أيقظَهَ حارسُ البستانِ
حذراً
من سقوطِ روحِه
في اسمالِ ليلةٍ من ليالي
(آب) اللهاب .
بائعُ التمرِ
بيديه العاريتين الّا من الفطنة
سرقَ البلبلُ
والعصفورُ
والهدهدُ
والسنونو عمتَه
فما بقيَ معه سوى
لحسةِ عسلٍ
قبل أذانِ المغرب
وبعد ميتَتِهِ
وهو عائدٌ من بحرِ (الظلمات)
الذي حفرَهُ
حفاةُ(بابل)
وسطَ همومِ الأحراشِ
وقبائلِ القصبِ
ورقمِ الطين المنهوبةِ
قربَ (ناعورِ) النوم
في بستان

هناااااالك
بكاهُ السوقُ حسرةً
فلا بائعَ
فيه
يفلسفُ تاريخَ التمورِ
وجغرافيا النخيلِ
وهو تائهُ
في أطلسِ الفراغ.
بائع التمرِ
في ميتَتِهِ الأخرى
قيل:
إنّ ذئاباً افترسْته
وإنّ تمرَهُ
صار وليمةً
لذباب المقبرة
الدارسةِ
هناك.

مشهدٌ في الظلام

عادل مردان

بَعدما أدخلوا المُبتلى
الى غرفة التعتيم
بدأتْ فعاليات الزّبانية
لحظةٌ تتوقّف
لا تَعبرها العيون الكلبيّة
يدلفُ الشّاعرُ الأصلع
بِهراوةٍ مصقولة
حيثُ المُبتلى يتهالك
في الظلام تُغتَصبُ السّاعة
مازالَ جيبُ الأصلع يُتكتك
حِينها عقاربُ الزّمن تَحكي
بينما يَنبلجُ الفجر
مَنْ نَزعَ الخاتم؟
تَكْ..
تَكْ..
يالها
مِنْ رائحةٍ قاتلة.

***عادل مردان.. شاعر عراقي تولد البصرة 1955، صدر له (1) فضاءات شرقية دار ألواح مدريد (2) من لا تحضره السكينة، البصرة، 2006، (3) انشاد حامل الجمر، 2008، (4) دائما في صباح العالم، دار تموز، دمشق 2012، (5) منسق أحلام الشرق، دار الرافدين، بيروت، 2017.**

الماضي/ الهومسك وقوة التشويش الى الانصات

حميد حسن جعفر

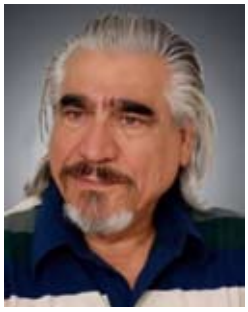

(اولا)

قد تحيلنا قراءة الاستماع الى شيء من الشفافية، ضمن حالة من التخلص من الفعل الجمعي حيث يتصاعد الوجود الفردي للشاعر ريسان الخزعلي ضمن كتابه الشعري (انصات عن بعد لما فات من العزف) الصادر عن اتحاد الادباء والكتاب في ميسان 2020.

الشاعر هنا لم يتعود الاغتراب أو الاحساس بالوحدة أو العزلة لذلك كان التواصل يمثل جانبا من العلاقات المهمة بين الشاعر والمكان الغائب/ الحاضر،

من سجايا الشعراء الذين ما زالوا يبحثون عن الجديد في الجسد القديم، عن الدهشة في البيت الشعري العربي الكلاسيكي، ومن الغائب في قصيدة التفعيلة، وعن المهمل الذي من الممكن أن يشكل مرتكزا للنص النثري.

ريسان الخزعلي واحدٌ من أولئك الشعراء، الذي لم يركض وراء الهوة/ المغامرة/ الفراغ، خريج الجامعة التكنولوجية/ قسم الهندسة الكهربائية، هل من تناقض، او تصادم ما بين المتوفر تكنولوجياً معرفياً، هذا الكائن حديث الولادة، وبين كائن شاخت بعض مفاصله، وتقرنت الكثير من أغصانه، وبين كائن ما زال ومنذ ثلاثة ارباع القرن وهو يبحث عن فجوة في الجدار الذي صنعه له الاشخاص/ اللاشعراء، ثقافة معاصرة آلية حياتية بمواجهة ثقافة متوارثة، كثيرا ما يجدها المتابع ماثلة في الهوامش على الرغم من وجوده اليومي.

تعدد الاهتمامات بما يجول وسط فضاء الأدب وخارجه، عن طريق العلم، دراسةً وتقنياته، كفعل يومي يتحول الى حرفة في يوم ما، فليس من الصعب ان تعثرَ او تلتقيَ بطبيب شاعراً، او بلاعب كرة قدم مطرباً، او تجد تشكيليا يكتب الشعر، بل استطاعت بعض الاهتمامات

ان تتحول الى قوة شاطبة لسواها، ليتحول الشاعر من الفعل الشعري الى السردي، والتدريسي الى رئيس تحرير مجلة تهتم بالترجمة، وتحول كاتب القصة الى ناقد جامعي وأي من هؤلاء ستجده في يوم ما، وزيرا للخارجية أو وزيرا للثقافة، وربما تجده سائق سيارة اجرةٍ، فالتقلبات بين الحقول المتجاورة والمتناقضة ربما فعل حاصل، حيث يتصاعد، او ليصاب فعل آخر بالخمول.

(انصات عن بعد لما فات من العزف) دفعني وربما دفع سواي كذلك الى إنصات من نوع آخر، انصات للقراءة والمتابعة للتاريخ، بالذهاب الى صفحة الصديق الشاعر فإذا بي أجد نفسي وسط كم هائل من الاهتمامات، حقول ثقافية وأدبية واهتمامات توثيقية، وسرد في التاريخ، وحضور للذاكرة، شعر شعبي ، نقود أدبية، بحوث، متابعات، ذكريات، جغرافيا، ومن ثم يجد القارئ أنه لم يدخل البوابة الخطأ حين ولج صفحةً خاصةً مليئةً بالاختلافات، قد يتصاعد إحساس لدى المتتبع أن التناقضات والمواءمات تشكل تاريخاً طويلا عريضا من حياة المهندس الكهربائي والشاعر باهتماماته، إلا أن الوجه الاخر لمن يتابع سيجد ان هناك ما ينتمي الى ما يشبه التكامل، وأن لا تمزق في الأمر، بل هناك نوع من الاصطفاف الثقافي أساسه الأدب عامةً الشعر خاصةً،

هل كان العشرات بل المئات، وربما الآلاف ممن يمتلكون هكذا اهتمامات، هل كانوا جميعا مع الكدح والجهد المبذول، هل كانوا يعملون على وفق ضرورة الكتابة في الابداع والتفرد؟ أم ان البعض فقط هو الذي استطاع أن يضع يده على أكثر من فعل ابداعي، وأن يقول الكثير من الجمال؟

(ثانيا)

هل هناك دور/ تأثر وتأثير ما بين مركزية الكتابة وهوامشها ؟ ما بين القصيدة الفصحى، والاهتمامات الإبداعية الأخرى،- الكتابات النقدية، والمتابعات، والبحث، والشعر الشعبي، وسرديات التذكر.

يبدو ان الأوزان الشعرية المتداخلة ما بين شعرية الفصحى والعامية، وضروریاتها في هذا الحقل وضعف دورها في الحقل الآخر، لذلك سيكون دور الشاعر دوراً مزدوجاً يؤدي به الى عدم التخلي عن البيت الشعري العربي/ كلاسيكية الكتابة الشعرية العربية، والتجربة الخمسينية/ قصيدة التفعيلة، لتشكل بحور الفراهيدي وأوزانه والقوافي اكثر من نقطة انطلاق للكتابة، نحو شيء من الحرية، بفعل دور العامة وإشارات متداولة، وأشياء من الالتزامات عبر عدم قدرته على التخلي عن نمطية الوزن والقافية.

فالقارئ سوف يجد أن الموسيقى/ وسيلة الكتابة، لا قدرة للشاعر على تجاوزها، لا لعيب في معارفه، بل لأن الذاكرة الكتابية التي يبحث عنها الشاعر لن تتخلى عن الذاكرة الغنائية، لذاكرة الموسيقى.

(ريسان الخزعلي) يكتب وهو في بغداد جسدياً وذاكرته/ قلبه في ميسان، ونهر هدام، وعبر ما يقارب من اربعمائة وخمسين كيلومترا يمد الشاعر اسباب التواصل، حيث اوليات الحياة وتشابكاتها، وإن كان عن طريق انصات مفترضٍ لما حدث، الماضي يشكل كلاً، عملية تراكمية غير قابلة للتوقف، فهو لم يأتِ من فراغ بل من إصطفاف الأيام الى جنب سواها، والعقود تلو العقود، لتتداخل السنوات والأجيال،

(ريسان الخزعلي) مراقب جيد لما يخرج من بين يديه، من أزمنةٍ و أمكنةٍ، ولأنه كذلك، نجد مجموعة القصائد لا تفرط بكائناتها، بالشخصيات التي مرت عليه، مسلمة له بعض ما تمتلك من خصوصيةٍ للأفعال،

لم يكن وحيداً على الرغم مما يوحي به للقارئ بأن التواصل مع ما تمنى، فهو قد اختار صفوته من شعراء ومصلحين، وثوريين وفلاسفة، وبلاشفة،

هل من قوانين اللعبة/ لعبة الكتابة، أن تشطب وتلغي القصائدُ الشعراءَ؟ أن تجردهم من تواريخهم، كأن لم يغامروا، ويُتَّهموا بتدمير المقدس، هكذا تحاول جماعة موت المؤلف/ رولان بارت، والبعض من النقاد والمهتمين بالشأن الإبداعي، ما أن يجهز على المؤلف أبعاداً و أفكاراً حتى يبدأ بالبحث عن مؤلف بديل مفترض، ليقول ما يشاء بحقه مدحا وقدحاً، من غير ان يتهمه القراء بالانحياز للمؤلف بنمطية الواقعي واللاواقعية،

ولأن الشاعر لم يكن واقفا أو متحركا خارج الكتابة، لذلك لا يمكن أن يتحول وجوده الى مجموعة اطراس، الى حالة من المحو/ الالغاء من أجل أن يوفر القارئ مكانا/ فضاءً لمؤلف يتوافق والرسمة التي تتشكل في ذهنيته/ ذهنية المهتم بالشأن الكتابي،

(ثالثا)

من الوارد جدا أن تكون الكتابة مصدراً تعويضياً لما فات، ومتوقعاً لما سيحدث، وحالةً استباقيةً تعتمد الحلم لما سيأتي، هكذا يتصاعد الحدثُ/ التاريخ، والمكان/ الجغرافيا، والأل/ الشخصيات، هكذا يتشكل الإنصات، حفنة من العقود التي تشكل ذاكرة لا يمكن أن تألفها الروح، بعد أن اثبتت وجودا قادراً على مقاومة التسلط والالغاء، انها نصف قرن من التواصل مع مرتكزات الفعل الابداعي، وهو يرعى الكثير من التجارب الشعرية والأدبية، فالشاعر لا ينفك يذكر القاريء بأجيال عدة من الشعراء والمناضلين، والمنتمين الى الفكر اليساري،

التجارب الإبداعية - خمسينيين وستينيين - وما تلاحقت من أجيالٍ تمكنت من أن تشكل منصةً لإطلاق تجارب الشاعر ذاته،

وإذا ما استعان الخمسينيون بالأساطير والخرافات، والستينيون بالاختلاف وشعر ٦٩، والقصيدة المدورة، والسبعينيون بالقصيدة اليومية، والثمانينيون بقصيدة النثر، فإن ريسان

الخزعلي وبحكم امتلاكه أفكارا تنتمي للحراك الجمعي، ولعدم الركون الى الواقع المتخثر، استطاع أن يتابع الكثير من المنجزات. وكانت له شارة في كل منجزٍ ابداعيٍ على المستوى الشخصي للأفراد من الشعراء والأدباء، وعلى المستوى الحركي للمجاميع الأدبية، في محاولة منه لتشكيل كائنٍ شعريٍ ينتمي لشخصه.

إن وجود الـ(يوسف وكلكامش، ووضاح اليمن، وابراهيم النبي، وسيزيف، وحسب الشيخ جعفر، وسان جون بيرس، وضيقة هي المراكب، وانهيدونا، وامرؤ القيس، ولوركا، وروسبير، وابو نواس، والحلاج، وسلام عادل، وموسى، والإمام علي، وباخوس، والحسن بن هاني، وكافكا، وموفق محمد، ومظفر النواب، وخليل الاسدي، والسياب، وإليوت، وإنسي الحاج، وصاحب الزمان، وزليخا، وموفق العباسي، والقائد، وعلي بن محمد، الاخضر بن يوسف، وسيدور، وسعدي الحلي، ونوح، وهيدجر، وطه باقر، وأورفيوس، ووردزورث، ونرسيس)، هذا الكم والعدد من الكائنات البشرية، اصحاب العائدية الى الماضي، وكذلك هناك أعداد من الكائنات المكانية (السجن ٧٨/ الكومونة/ الهدام/ حانة هافانا/ اندلس/ مختارة الزنج/ حديقة منزلية/ شارع الرشيد/ الجسر القديم/ بويب/ فرات/ التايمس/ نهر خوز/ بئر الملح/ حافات الهور/ مرايا النهر/ ماء العروس/ اليشن/ صور الجدار القديمة/ شط الميمونة/ حانة الجندول/ شارع المتنبي/ اتحاد الأدباء/ مقهى حسن عجمي/ سرجون/ ليالي بغداد/ كاردينيا). هاتان المجموعتان من الاشخاص/ الإنسان، والجغرافيات/ المكان لن تكونا ممثلتين لتابع ما، بل إن الفعل الحياتي الذي يحياه الشاعر ريسان الخزعلي هو الذي اوجب حضوراً كهذا، فقد كانت القصائد - الاثنين والتسعين - بحاجة الى ارتباطات بشريةٍ ومكانيةٍ، كل هذا من أجل ان يتمكن الشاعر من توفير مجموعة اغراض، فانتماؤه الشعري للحركة الشعرية العراقية أوجب عليه لأن يكون جزءاً من الكل، ففي تجربته اشياءٌ من جميع الأجيال، فهو ما زال يكتب قصيدة التفعيلة بقوانينها، كمنجز شعري خمسيني، و يكتب القصيدة التي لا تأكل نفسها للمتابع للمنجز الستيني/ فاضل العزاوي، ويتابع الامكنة والانسنة كفعل يوحي بكتابة القصيدة اليومية، فالشاعر هنا لم يتخلص من الحنين الى الماضي – الهومسك - لا كحالة مرضية، بل كفعل يعمل على صناعة اهتمامات حياتية، لا تنتمي لشخصه فحسب، بل سيكون معظم انتماءاته الى الحراك الجمعي،

لم تكن المغامرة احد أهداف الفعل الكتابي، وما كان الاختلاف فعلا مركزيا يتمكن من خلاله من منافسة التجارب الشخصية، والجمعية الأخرى، و ربما اشتغالاته بالمنجز الشعبي يتوجب عليه الإلتزام بضرورة الوصول الى

المواطن /القارئ، وانشغال كهذا كان وما زال يمثل هدفا للفكر اليساري، لذلك سوف تكون الكتابة المختلفةُ فعلاً غير مركزي، قد يجيء بالمرتبة الثانية من الأهمية في الوقت الذي يكون فيه القارئ ممثلا لهدفٍ أساسي، وإن التغيير الفكري الذي يجب أن يشملَ القارئ الاعتيادي هو ما كان من قبل فعلا ستراتيجيا، لا يحتمل الشاعر فكرة التخلي عنه، لذلك سيجد القارئ أن المغايرة تكاد تختفي كليا، وإن احتفظت القصيدةُ التي يكتبها الخزعلي بشيء من الاختلاف، ليرتبط هذا النمط من الكتابة بشخصية الشاعر الذي لا ينوي القيام بثورة شعرية أو حياتية، ولا في مخططاته ما يدعو الى ازاحة الآخر، والانفراد بالواجهة الامامية للكتابةِ،

هل كان - ريسان الخزعلي - بتعدد إهتماماته، بتاريخه الذي يمتد طويلًا فيما حوله من علاقاتٍ متشابكةٍ مع الآخر/ السلطة، او الآخر/ الخائن، او الآخر/ السائد، هل كان باحثاً عن البدائل، حاله حال الجماعات الباحثة عما يوفر لها شيئاً روحياً و جسدياً من الارتباط والعودة الى الماضي بكل ما يمتلك من حزنٍ وأسى وتصادمات،

هل هو غياب ما ينتمي الى التكامل؟ الى نوع من التعاضد، الذي من الممكن أن يعيد للحياة بهجتها، ودورها في تشكيل الفرد/ الثائر، والشاعر /المختلف؟

الشاعر في – انصاته - في قصائده كائن يحاول ان يستقبل الحياة منفردا ،الحياة التي اختير بعضها لتتسع المسافةُ التي بين الجامعة التكنولوجية/ قسم الهندسة الكهربائية. و – اليشن -، ونهر هدام، وهو لا ينتمي كليا لكل الشخصيات والحوادث والأمكنة ،بل انه المتوزعُ/ المتشظي على كل تلك المرتكزات الفرعية، لذلك يكاد يختفي الانتماء الشخصي لجيلٍ ولتجربةٍ كتابية، أو لفعلٍ ابداعي يحتل الواجهة، متخلياً عن الخلفيات الحياتية، بل ان القصائد، والاهتمامات تشير الى تخليه عن القيادات الأدبية، بل وتخليه عن أن يكون أحدها، متمسكا بشيءٍ من التبعية للماضي الشخصي والجمعيِ بشخصياته، وكائناته بتجاربه وهواجسه.

الماضي في تجارب الشاعر قوة قامعة، غير قابلة للمصالحة مع المستقبل، الذي لم يزل مجهولاً،

فالشاعر لم يعد مهتما ببيوض المستقبل، بعد أن فقست بيوض الأمس عن - انصات عن بعد ما فات من العزف - انها محاولة لإستدراج ما مضى، و محاولة تحويله الى مستقبل آمن، وغير مجهول،

الثقافة المدرسية/ الوظيفة ما تم استقباله كدرس منهجي من قبل الشاعر/ طالب التكنولوجيا لم تستطع أن تستفزه بالبحث عن الأدب المختلف، وتقنيات الكتابة، بالاستناد الى التقنيات الآلية الحياتية، لقد كانت القناعات بالمتوفر تمثل أكثر من محاولةٍ للفصل ما بين الكتابة/ الادب والدراسة/ العلم والمعرفة.

(رابعًا

توفر الاغراض، والمواضيع، والظهور الواضح للمكان والإنسان، وعدم مغادرة المنجز الشعري الجمعي الذي ما زال يمثل رغم انحسار تأثيراته على الاجيال الأدبية، والشعرية، التي قد لا تشعر بحاجتها الماسة لهكذا أفعال تنتمي الى الماضي، اكثر من إعلان انتمائها للمستقبل،

عتاد الشاعر - الخزعلي - الذي طلع على القارئ به عن طريق (انصات عن بعد لما فات من العزف) لم يعد يشكل إلّا جانبا مما ينتمي الى الممتلكات الخاصة، لما يشبه المتحف، مما يشكل آراءً شخصيةً استطاعت الذاكرةُ أن تحتفظ بها، إعتزازاً وهيبةً.

هنا يشكل الماضي والحنين إليه - الهومسك - مرتكزاً اساسياً، لم يستطع المستقبل بكل انفتاحاته وما يحمل من اختلاف وتغيير أن يواجه كتلة الماضي التي باتت تمثل (صخرة سيزيف) الماضي الذي أحسن الشاعر تربيته، وتزيينه بالكثير من القناعات، والقبولات، ماض صلب، ومستقبل غير مرحب به/ غير مؤهل لتسويقه على انه الممثل للأحلام والآمال، والطموحات التي طالما أعلن عنها الشاعر لتأخذ بيده الى محكمة الثورة ،وسجن رقم واحد، والتحقيقات،

هل كانت (طريق الشعب)/ الجريدة كوسيلة تمنحه مفاتيح المستقبل المفترض، في زمن التحدي، واختبار الذات؟

هل كانت على غير ما كانت عليه الاحلام؟ هل كانت الثورات التي كانت في يوم ما تمثل الحل الوحيد، تمثل حلا أساسيا للخلاص من انظمة القمع والدكتاتوريات، و التسلط ، و مفروزات الرأسمالية؟

هل كان لفشل هذه الثورات دور في صناعة الاحباط، والارتكاس، والتوجه نحو الماضي، والشاعر يعلن - ان لا احد تابعه طيلة مدة اعتقاله، ووجوده في - مديرية الاستخبارات العسكرية/ سجن رقم واحد/ سجن أبو غريب -ولم يزره في السجن، ومن وثق بهم، إلّا العزيز عامر علي الجواهري.

لقد كان (انصات عن بعد لما فات من العزف) أو من القول، أو من الغناء، أو لما فات من التذكر منتمياً الى عالم المختارات، الى ما لم ينشر سابقا، فهناك ست سنوات ما بين - اقرب الى الوضوح 2014 - و- الانصات 2020، كتابات تنتمي لم يقل عنها منتخبات، وذلك لغياب مركزية الحدث او الشخصية، او الزمن، فلا تاريخ يجمعها، ولا مكان مركزي تحتفي به و بتفاصيله، فهناك ازمنة لم يتم ذكرها، وأمكنة ما زالت تحمل دلالاتها، وهناك اشخاص ممن ما زال يذكرهم بشيء من الاهتمام والاحتفاء، هكذا تتشكل الكثير من المواقف، والقناعات حول - اثنين وتسعين فعلاً كتابياً أطلقَ عليها الشاعر تجنيساً محدداً - شعر - القارئ المتابع للشاعر واهتماماته سوف يقف قريباً، أو بعيداً من الإنصاف، فما

من تأكيد على تجربة حياتية دون غيرها، لا محاولةً لإبراز دور حدث أو شخصية، لذلك فإن مركزية الاختيارات التي افتقرت الى اعلام او توجه يعلنه الشاعر ليهتدي به القاريء بالقراءة واختيارات، افتقدت كلا من الزمان والمكان، اللذين كثيرا ما يوفران لمجموعة القصائد اكثر من غطاء، وأكثر من مبرر لعملية النشر والإصدار، فمن خلالها يتوفر للشاعر ما ينتمي الى تجربة كتابية جديدةٍ لم يتطرق اليها سابقًا، سواءً من قبل الشاعرُ نفسه، او من قبل سواه، فضلاً عن توقعات تعني تخلي الشاعر عن التقنيات الآلية/ الكهربائية، التي تعتمد تطورات الأفكار والتصورات، وعدم الركون الى الخمول،

فهل لفشلِ وخيباتِ الواقع العراقي – سياسياً واقتصادياً وثورياً، وأفكاراً ادبية وفكرية والتزامات اخلاقية ودينية - حيث تحول الإنسان العراقي إلّا القلة من كائن ثوري ملتزم، صادق مخلص الى ما يشبه الفوضوي/ اللامنتمي؟

الخلخلة هذه والهشاشة التي اصابت جميع الفئات تقريباً-، جميع مكونات المجتمع العراقي — ذهنياً وقومياً ومذهبياً - وغياب فعلي لدور القوانين والأنظمة، والالتزامات الاخلاقية على المستوى الشخصي والمجتمعي، وتراجع كل هذا الى الخطوط الخلفية، حيث تختفي الكثير من الطموحات والاحلام، ليغيب المستقبل، ولتتم العودة تراجعياً الى افكار - البقاء للاقوى/ للبندقية/ الغابة - وليتصاعد دور الاقصاء والقتل على الهوية، في حل النزاعات والاشكاليات والتناقضات التي استفحلت امورها بين أفراد المجتمع الواحد - معتقدات، وعشائر، وتنظيمات حزبية.

لقد كان لهكذا خراب اكثر من دور في تفكيك التصورات المستقبلية، والتخلي عن الحلم في ضرورة تغير حياة المجتمع نحو الأفضل، هكذا تتشكل انسحابات المثقف العضوي من انتاج الفعل الشعري المختلف، والإبقاء على المتوفر من المنجز الذي ينتمي الى الماضي (شارع. وانتهى ما الذي يُسعِدُ الآن قلبَ الفتى) ص131.

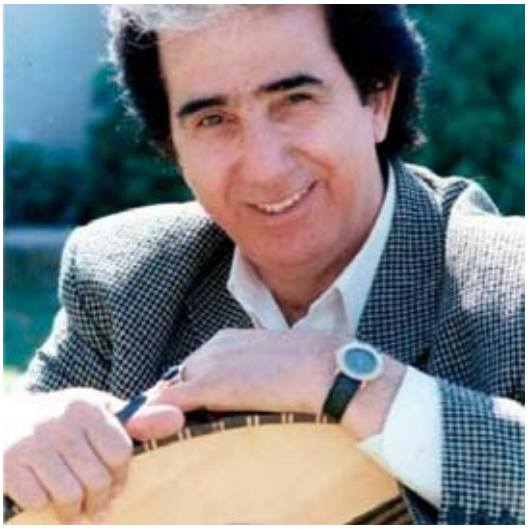

والمجلة قيد الطبع

جعفر حسن الذي غنى للوطن والناس.. سلاما.. سلاما

في الوقت الذي جهزنا فيه عدد (الثقافة الجديدة) وبات تحت نبض المطبعة، لنقدمه ساخناً كرغيف الخبز..

في هذا الوقت المليء بحركة الافكار والحروف والحياة؛ وردنا نبأ رحيل الفنان الكبير: جعفر حسن، الذي غنى قصائد: الجواهري، محمود درويش، مظفر النواب، نزار قباني، الفريد سمعان، وغيرهم..

واذا كان الراحل المضيء قد غاب لسنوات طويلة عن وطنه وأهله، بسبب الملاحقة والضغوط التي مارستها السلطة الدكتاتورية ضده، إلا انه ظل أميناً لقضايا شعبه ومواقفه الوطنية، موظفاً فنه لتقديم أغانٍ ترقى بالذائقة الجمالية وتتفاعل مع الوطن والناس..

لقد كان جعفر حسن انموذجاً للفنان الراقي والملتزم جمالياً وفكرياً، متطلعاً الى مستقبل افضل والى حياة يسودها السلام والعيش الرغيد..

ان (الثقافة الجديدة) وهي تعتز بمسيرة وعطاء جعفر حسن، تعد قراءها بكتابات لاحقة عنه في أعدادها المقبلة..

السلام والطمأنينة لروح الفقيد المضيء: جعفر حسن

مجلة (الثقافة الجديدة)

مطبوعات وصلتنا :

• فيصل الفؤادي، مسارات الطبقة العاملة وحركتها النضالية بين القانون والسياسة (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2020).

• فيصل الفؤادي، دور وتأثير الاجهزة الامنية والمخابراتية على حركة الانصار الشيوعين في العراق (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2020).

• Balsam Karam, Singularitteten (Stockholm: Norstedts, 2021).